

تصحیح اسباب القرب

على اسباب اليونان

تأليف

ادوم أئمة الاجتهاد المطلق . بدر علماء العترة النبوية محمد
ابن ابراهيم الوزير الحسنى العننى الصنعائى مؤلف إيثار الحق
على المطلق وغيره الموزع ٢٧٠٣ المحرم من سنة ٨٤٠
أربعين ومائة هجرة عن

خمس وستين سنة الا

خمس أشهر ربحه الله

وايانا والمؤمنين

أمين

طبع بالناهرة بان خاس من بعض علماء آل بيت رسول الله لصاحب الفضيلة

مدير

ادارة طباعة الجمعية العلمية الأزهرية المصرية الملاوية

الأستاذ اللغوى الكبير الشيخ (عيد الوصيف محمد) صاحب مكتبة الجمعية

العلمية الكاتبة بشار عرقعة التمعش فى الأزهر المستعدة لكل ما يطلب

منها بأمانة واعتدال

مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر

ن المظهر بن إسماعيل الحسنى المتوفى سنة ١٢٦٨ عن القاضي
هير محمد بن على الشوكانى الصنعانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ
هو رويها فى كتابه بحاف الاكابر باسناد الدفاتر بالسند المتص

على اساليب اليونان

تأليف

امام أئمه الاجتهاد المطلق . بدر علماء العترة النبوية محمد
ابن ابراهيم الورير الحسى الميى الصنعاني مؤلف إثار الحف

على الخلق وعير المتوفى فى ٢٧ المحرم من سنة ٨٤٠

أربعين وثمانمائة هجرية عن

خمس وستين سنة الا

خمس أشهر رحمه الله

وإيانا والمؤمنين

آمين

طبع بالقاهرة بادن خاص من بعض علماء آل بيت رسول الله لصاحب الفصيلة

مدير

إدارة طباعة الجمعية العلمية الأزهرية المصرية بالدار المصرية

الاستاذ اللغوي الكبير عيد الوصيف مجد صاحب مكتبة الجمعية العلمية الكائنة
بشارع رقعة القمح شرق في الارهر المستعمدة لكل ما يطلب منها بأمانة واعتدال

طبعة للقاهرة بدار قسم الجاهية بمه

بروم

يحيى ابن أمير آرمين المنصور بالله

جلهم الله في الدارين

(كتاب ترجيح أساليب القرآن لأهل الايمان على أساليب اليونان
في أصول الاديان وبيان أن ذلك اجماع الاعيان بأوضح التبيانات وسائر
مؤلفات السيد الامام محمد بن ابراهيم الوزير التي من أجلها

(العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) في أربع مجلدات
ضخمة بالقطع الكبير (والروض الباسم المنزوع من العواصم والقواصم)
(وايثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق) (والبرهان
القاطع في اثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع) (وقبول البشرى
بالتيسير لليسرى) (وتنقيح الانظار في علوم الآثار) (وكتاب الامر
بالعزلة في آخر الزمان) (وحصر آيات الاحكام الشرعية) (والتفسير النبوي)
(ومجمع الحقائق والرقائق) (والتحفة الصفية) (والتأديب الملكوتية)
(وكتاب القواعد) (ونصر الاعيان على شر العميان) وهو المعرى (والحسام
المشهور) وغير ذلك من مؤلفاته المفيدة : ورسائله العديدة

عن جبهذا لمن المولى الحافظ الحسين بن علي العمري وشيخ الاسلام المولى الحافظ
علي بن علي اليماني والحاكم الاول بصنعاء لمن المولى الحافظ زيد بن علي الديلمي
الحسنى * وثلاثهم أبقاهم الله تعالى يروونها عن السيد الحافظ أحمد بن محمد
ابن محمد الكبسي الصنعاني المتوفى سنة ١٣١٦ هـ وهو عن السيد الحافظ

يحيى بن المظهر بن إسماعيل الحسنى المتوفى سنة ١٢٦٨ عن القاضي الحافظ الشهير محمد بن علي الشوكاني الصنعاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ وهو يرويها في كتابه أنحاف الاكابر باسناد الدفاتر بالسند المتصل بالمؤلف وهو رضى الله عنه المحيط بجميع العلوم الاسلامية من خلفها وأمامها، والحرى أن يدعى بإمامها وابن إمامها محمد بن ابراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل ابن منصور بن محمد العفيف ابن المفضل بن الحجاج بن علي بن يحيى بن القاسم ابن الامام الداعي إلى الله يوسف بن يحيى المنصور ابن أحمد الناصر ابن الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهم مولده في شهر رجب سنة ٧٧٥ خمس وسبعين وسبعائة هجرية - وأخذ في علوم العربية والادب عن أخيه السيد الامام الهادى بن ابراهيم الوزير وعن القاضي العلامة محمد بن حمزة بن مظفر - وفي الأصول والفروع وعلم اللطيف - عن القاضي العلامة علي بن عبد الله بن أبى الخير والقاضى العلامة عبد الله بن الحسن الدوارى الصعدى وغيرها - وفي التفسير وأصول الفقه - عن السيد العلامة علي بن محمد بن أبى القاسم ، وأخذ عن السيد العلامة الناصر بن أحمد بن الامام المظهر الحسنى ، وعن الشيخ نفيس الدين سليمان بن ابراهيم العلوى التعزى وغيرهم من أكابر علماء عصره بمدينة صنعاء وصعدة وسائر المدن اليمنية . وأخذ بمكة المكرمة عن الشيخ المحدث محمد بن عبد الله بن ظهيرة والشيخ نجم الدين محمد بن أبى الخير القوصى الشافعى والشيخ زين الدين محمد بن أحمد الطبرى والشيخ

محمد بن أحمد بن إبراهيم المعروف بأبي اليمين الشافعي والشيخ علي بن مسعود بن علي بن عبد المعطي الأنصاري المالكي والشيخ المعمر أبي الحسين بن الحسين بن الزين محمد القطب القسطلاني والشيخ علي بن أحمد ابن سلامة المكي الشافعي وجار الله بن صالح الشيباني والشريف أحمد ابن علي الحسني الشهير بالفاسي واستجاز منهم ومن غيرهم

ومن أجل تلامذته السيد محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير والامام الناصر صلاح الدين محمد بن علي وعبد الله بن محمد بن المطهر وعبد الله ابن محمد بن سليمان الحمزي وغيرهم . وقد ترجمه القاضي الحافظ أحمد بن صالح بن أبي الرجال في مطالع البدور والسيد الحافظ ابراهيم بن القاسم بن المؤيد الحسني الشهماري في طبقات رواة الفقه والآثار تراجم مطولة وترجمه أيضاً القاضي الشهير محمد بن علي الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة منها ما نصه هو الامام الكبير المجتهد المطلق المعروف بابن الوزير تبحر في جميع العلوم وفاق الاقران ، واشتهر بصيته وبعد ذكره وطار علمه في الاقطار وترجم له السخاوي وترجم له التقي ابن فهد في معجمه وترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني في أنبائه في ترجمة أخيه الهادي

ولا ريب أن علماء الطوائف لا يكتفون العناية بأهل هذه الديار لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرد التقليد لمن لم يطاع على الاحوال فان في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة ويعتمدون على ما صح في الامهات الحديثية وما يلتحق بها من دواوين الاسلام المشتمة على سنة سيد الانام ولا يرفعون إلى التقليد رأساً ولا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي

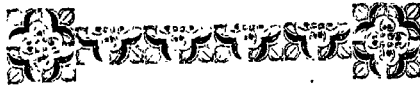
لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وضرف وبيان وأصول ولغة وعدم اخلاصهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم ، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم ويتكلم في الحديث بكلام أئمة المعتبرين ، مع إحاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الاسانيد شخصاً وحالاً وزماناً ومكاناً وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته فانها شاهد عدل على علو طبخته وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده الى النظر في غيره من أى علم كان وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غيره كائناً من كان، ودوان شعره في مجلد ثم انجمع وأقبل على العبادة وتوحش في الفلوات وانقطع عن الناس وذاق حلاوة العبادة وطعم لذة الانقطاع الى جناب الحق فصغر في عينيه ماسوى ذلك الخ كلام الشوكاني

وكان صاحب الترجمة رحمه الله تعالى يتكدر من قول بعض حسدته إنه يخالف أسلافه من أهل البيت عليهم السلام ويذب عن نفسه بمثل قوله في قصيدة له

ديني كأهل البيت ديناً قيماً
 ويشك في ذوو الجهالة والعمى
 إني أحب محمداً فوق الورى
 وأحب آل محمد (نفسى الفدا
 هم باب حطة والسفينه والهدى
 وهم النجوم خير متعبد
 وهم الأمان لكل من تحت السما
 والقوم والقرآن فاعرف قدرهم
 وكفى لهم شرفاً ومجداً باذخا
 ولهم فضائل لست أحصى عدها
 سنوا متابعة النبي ولم يكن
 ومات بصنعاء اليمن في يوم ٢٧ المحرم سنة ٨٤٠ أربعين وثمانمائة هـ
 عن خمس وستين سنة إلا خمسة أشهر وقبره بقرب مسجد فروة بن
 مسيك شمال مدينة صنعاء رحمه الله تعالى

لخص هذه الترجمة بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٤٩ محمد بن محمد بن يحيى

زيارة الحسنى اليمنى غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين آمين



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ وَبِهِ تَقْتَى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته الصالحين ، وكافة عباده الأخيار أجمعين .

الحمد لله الذي جمع بالقرآن العظيم لأهل الاسلام بين أصح العلوم وأوضحها في الافهام ، وأفضل الأعمال وأيسرها على الموفقين من الأنام ، حيث أربى لما أودعه من البراهين العظام على فني المنطق والكلام ، لما فيه من النفع العام للخواص والعوام ، ولسلامته مما اشتمل عليه في الجليات من فضلات الكلام ، والتعب الكثير في مجرد فهم عبارات الفلاسفة الطغام ، وفي الخفيات من التعمق والأوهام ، والمشى وراء الفلاسفة والمبتدعة في مداحض الأقدام ، ولأمر ما فضل الله سبحانه المهرة من حامله على جميع الاولياء الاعلام ، حيث رفعهم الى مراتب السفارة الكرام ، الذين هم أفضل الملائكة عليهم السلام ، وجعل التفاوت فيما بينه وبين سائر الكلام كالتفاوت فيما بين الرب جل جلاله وبين سائر الانام ، ومثل هذا التفاوت لا تطمح الى دركه الافهام ، ولا تنجح الى تخيله الاوهام ، ويسره سبحانه للذكر على الدوام ، رحمة منه لنا وحجة علينا لا يتغيران مرور اللبالي والايام ، وجعل العلم بحكايته نوراً ساطعاً يرفع كل ضلال وظلام ، ولم يكف أحداً ما لا يعامه من متشابه كلام الملك العلام ، كما سيأتي نصاً جلياً في كلام أمير المؤمنين على عليه

بيان عمى بصيرة من عادى القرآن

السلام ، ولا عسر سبحانه على المكلف فهم ما خاطبه به من دلائل
الايمان والاسلام ، وشرائع الحلال والحرام ، وفوائد الاخبار وسائر
الاحكام ، وبدائع البلاغة الموصوفة بالتشابه والاحكام ،
والى من نزل عليه ليهتدى به الانام ، فنص من فضائله على ما يكمل
اللسنة والاقلام ، أوجه أفضل الصلاة والتحيات والسلام ، وعلى آله
الائمة الاعلام ، الذين رووا من فضائله ما يشفي الاوام ، ويلصق أنوف
الجاحدين بالرغام .

(أما بعد) فانه نبيغ في هذا الزمان من عادى علوم القرآن ، وفارق
فريق الفرقان ، وصنف في التحذير من الاعتماد على ما فيه من التبيان ،
في معرفة الديان ، وأصول قواعد الاديان ، وحث على الرجوع في ذلك
إلى معرفة قوانين المبتدعة واليونان ، متنقصاً لمن اكتفى بما في معجز
التنزيل من البرهان ، مقبجاً لتلقى كثير من محكماته بالقبول والايمان ،
لاجرم أن الله تعالى وإن وصفه بأنه لقوم هدى ، فقد وصفه بأنه على قوم
عمى ، فحسبوه حين عموا عنه وصموا أنه لا أمر يرجع الى ذاته ، وخلال
يعود الى بين آياته ، ولم يعلموا أن ذلك يخصهم لما في قلوبهم من العمه
والعمى ، والرداءة والردى ، فكأنهم المنافقون ريباً وخبثاً وبهتاناً ، حين قالوا
ايكم زادته هذه ايماناً .

ومن يك ذا فم مر مريض * يجرد مرأ به الماء الزلالا

ومن العجب أنه يتعاطى العلم بالذات وبالصفات ، ويتأول جميع
المتشابهات ، كما يعلمها علام الغيوب والخفيات ، مع منعه غيره من الاعتماد

في التوحيد على الآيات المحكمات، وأمّهات المتشابهة البينات، وما هذه الا
مضادة للمعقولات، ومناقضة للمنقولات، فما أصح ما منعه وعده من
المحال، وأبعد ما تعطاه من مناسبة الحال: كما يتضح إن شاء الله عند
ذكر أدلة الاقوال، وتنقيح البراهين والاستدلال، فلولا ذلك لاستوى
العالم والجاهل، وتشابهت المناهج والمجاهل، وقال من شاء ماشاء، وعاد
الخبير المحتمل للنقيضين كالانشاء. وقد رأيت التقرب الى الله تعالى
بيان نقض ما ادعاه في الامرين. وإفساد جميع ما تعطاه مفصلاً في فصلين.
رجاء أن أكون من الذين قال الله تعالى فيهم «ويرى الذين أوتوا العلم
الذي أنزل إليك من ربك الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد» ولما
ورد في فضل من اتهم صاحب بدعة. من غير رياء ولا سمعة. مع الاشارة
الى جمل شافية في فضل كتاب الله تعالى وفضل حامله، وذكر نبذ من
الاخبار الواردة فيه، وبيان بعض ما شتمت عليه من الدلائل، المغنية
في الاعتقاد عن الاشتغال بكتب الاوائل

الفصل الاول

في بطلان ما ادعاه من قصور القرآن عن الوفاء بالدلالة على الربوبية
والتوحيد والنبوات. وبيان خلافه في ذلك للمعقول والمنقول واجماع
المسلمين

مقدمة

في التنبيه على عظم قدر القرآن وأنه في ذلك أجل نفعاً وخطراً وقدرًا

وأثراً من جميع تصانيف المتقدمين المتعمقين . وتدقيق المتكلمين .
وهو أنواع :

﴿ النوع الأول ﴾ قال الله جل جلاله « لو أنزلنا هذا القرآن على
جبل لرأيتنه خاشعاً متصدعاً من خشية الله » وقال سبحانه « ولو أن
قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » فما كان
لعظيم قدره ونفعه وبركته ونوره وهدايته وسره وخاصيته التي لا يحيط
بمعرفةا على التفصيل والتحقيق الا الله عز وجل بحيث يؤثر في الجبال
الراسيات . والصخور القاسيات . فكيف لا يؤثر في قلب المتدبر له .
المتعلم منه ، المعول في جميع المهمات عليه . الراجع في اقتباس نور الهدى
اليه . وأى كتاب يوجد في العالم موصوف بمثل هذا الوصف ، والواصف
له الملك الرب الجليل علام الغيوب الذي يستحيل عليه الخطأ ، والتعظيم
لما لا يستحق التعظيم ، والغلو القبيح في الكلام بغير الحق . فكيف
يترك ما في هذا الذكر المبين ، من البراهين ، ويعتمد على تأييف
المخلوقين ، وأساليب الجدلين ؟

ثم تورد اشكالات على نصوصه النيرة ، وشكوك في علومه اليبينة ،
ويعاب من دعا إلى الاعتماد عليه ، ويضلل من كان رجوعه في المشكلات اليه
﴿ النوع الثاني ﴾ قال الله تعالى « أو لم يكفهم أنا أنزلنا اليك الكتاب
يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذ كرى لقوم يؤمنون » وقال عز وجل
« فبأى حديث بعده يؤمنون » وقال تبارك وتعالى « أفلا يتدبرون

القرآن أم على قلوب أقفالها»

فهذه الآيات وأمثالها الواردة بصيغة الاستفهام المتضمن معنى الإنكار فيها مبالغة واضحة عند علماء البلاغة في وضوح كفايته، ودلالته على وجوب الإيمان وعظم النفع في تدبره بحيث لا يمانئه في هذه الأشياء غيره ولا يقاربه

﴿ النوع الثالث ﴾ قال الله عز وجل « قلئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » وما في معناها من الآيات

فلاشتغال بالنظر في علوم هذا المعجز الجليل الذي أعجز الخلق أجمعين بالنصوص القرآنية والضرورة العقلية، أولى من الاشتغال بعلوم الامثال والاجناس من سائر الناس. فالعائب لمن دعا إلى هذا خارج عن العلم وأهله لاحق بالعالم البهيمي في فاحش جهله.

﴿ النوع الرابع ﴾ قوله تعالى « ولقد جئناكم بكتاب فصلنا على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » فانظر إلى موقع قوله فصلنا على علم وما دل عليه من مطابقة ما شتمل عليه القرآن من الايجاز في موضعه والاكتفاء بالجملة في موضعه لما تقرر في علم الله تعالى بالغيوب من مصالح المؤمنين الذين خصهم بأنه هدى لهم ورحمة، فأى كتاب فصل على علم مثل هذا العلم الذي صدر عنه تفصيله؟ ونحو ذلك قوله « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً » فان معنى القيم المنفي عنه العوج هو الذي بلغ الغاية القصوى في الأحكام والاتقان، وانتفاء الخطأ والتعارض

والتناقض وإيهام الضلال . والعوج بكسر العين يختص المعاني وبفتحتها يختص الأجسام وإنما جمع بين نفي العوج وإثبات القيومية له وأحدهما يغني عن الآخر تأكيداً لذلك ومبالغة فيه فكيف يقوم مقامه سواء أو يساوى كتاب بكتاب الله تعالى

﴿ النوع الخامس ﴾ قوله تعالى « كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتندر به وذكرى للمؤمنين » وفي معناها « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » وإنما كانت في معنى الأولى لأن القرآن أكد مما قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبعد من كل ريب فمن استراب في شيء منه فهو فيما سواه أعظم ريباً ومن ولع بالنظر في دقائق الكلام المختلف فيها بين أهله وأعرض عن التدبر لكتاب الله والفرق بين نصوصه وظواهره وخصوصه وعموماته من غير أن يحكم دليل ماقطع به ويستوثق من صحته

ثم يسمع نصوص القرآن تخالف ما هو عليه فيعتقد فيها من تحمل وجوه المجاز ما لا يصح مثله في العربية ولا موجب له لو حقق النظر في الفطرة السليمة العقلية ، وذلك مثل من يقطع على استحالة تسبيح الطير وغيرها من الحيوان مع قوله تعالى « والطير صافات كل قد علم صلواته وتسبيحه » وقوله « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حايماً غفوراً » وقوله تعالى حكاية عن نبيه سليمان عليه أفضل الصلاة والسلام « يأبىها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل

شئ ان هذا هو الفضل المبين » وقوله تعالى « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شئ ثم الى ربهم يحشرون » وقوله عز وجل « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها » الآية وقوله تعالى حكاية عنه عليه السلام « وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من مغائبين * لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين * فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم » الآيات إلى السجدة وقد تأولها الزمخشري الا كلام النملة والهدهد فلم يستطع ولزمه بذلك الحق وان كان اقراره بكلامهما يدل على جواز الجميع وليس المسوغ للتأويل الاعدام الجواز واعتذارهم بالفرق بأن كلام النملة والهدهد معجز خارق لأن للحيوان البهيمي كلاما مردودا بوجوه خمسة: منها أن المعجز لا يكون الا بعد الدعوى للنبوذة على وجه يعلمه المكذب والمستدل وعلم كلام الطير والنملة من خواصه عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى « علمنا منطق الطير » ومنها ان قوله في الهدهد لا عذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه يدل على أنه عاقل مستحق للعقوبة . وثالثها ان قوله سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين دليل على أنه متكلم مختار . ولو كان ذلك معجزا لكان الكلام في الحقيقة لله تعالى عز و علا ولو كان كذلك لوجب العلم بصدقه . ورابعها ان قوله تعالى في النملة « فتبسم ضاحكا من قولها » دليل على ذلك ولو كان معجزا منسوبا الى الله تعالى لم يكن لضحكه منه وجه ولكان بالروعة

منه والاجلال له أولى. وخامسها انه لا مانع في العقل من صحة ذلك ألبتة ونحن نشاهد لها من الحزم منا والبعد من المضار وحسن الخيلة في كسب المعيشة والتألف والتعارف والتعاون والتفاهم ما يؤيد ذلك مع ما جاء في الحديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البين لكتاب الله تعالى من ذلك وقد ذكر الامام المهدي محمد بن المطهر (١) عليهما السلام جملة صالحاته من ذلك في تفسير قوله تعالى « ويلعنهم اللاعنون » وذكر فيه ما ذكره السيد الامام الناطق بالحق ابو طالب في أماليه من كلام الثعلب وطول الكلام في هذا في قدر كراس في كتابه عقود العقيان ومن مواضع ذلك كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للقاضي عياض رحمه الله تعالى فانه افرد ذلك في فصل تركته اختصارا والقصد بذكر هذا تمثيل ما حذرت منه من التزم الايمان بما في كتاب الله تعالى مما تناوله بعض المتكلمين ويعتقدون القطع ببطلان صحته ويتمحلون له من التجوز ما يتنزه أحدهم عن مثله في كلامه وبيانه

﴿ النوع السادس ﴾ انه قد اختص من شرائف الصفات تامل يشار كفيه غيره من كونه كلام الله تبارك وتعالى، وكونه معجزا ومن أنه قرآن مجيد في لوح محفوظ، وقرآن كريم في كتاب مكنون، وكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وانه نور، وانه شفاء لما في الصدور ومنه قوله تعالى « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » فجعل أهل العلم الحق الذين هم العلماء حقا هم المختصون بمعرفة ذلك

(١) الاشارة الى كلام الامام محمد بن المطهر في كلام الحيوان البيهيمي

وكذلك في الحديث عن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «القرآن هو الشفاء» رواه السيد ابوطالب في أماليه وابن ماجه بنحوه في كتاب الطب من سننه فاسبب تقصانه وقصوره؟ فان ادعى هذا الجاهل ان السبب انه لم يذكر فيه حجة أو كذبتة نصوص القرآن ونصوص علماء الاسلام وان ادعى ان القصور في عبارته أو كذبتة الضرورة والاجماع

﴿ النوع السابع ﴾ مما يدل على تعظيم القرآن عقلا ان العقلاء مازالوا يستدلون على حسن الكتب وعظم نفعها بمقدار صاحبها وقالت العرب «وكل اناء يرشح بما فيه» ولا شك ان تأليف العلماء قد تقاضلت على قدر علومهم والقرآن كلام علام الغيوب وقد أنزله هدى وشفاء ونورا وبيانا ولا شك ان في العلوم مصالح ومفاسد كما في قوله تعالى في تعلم السحر «ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم» وقال في الساعة «أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى» وقال «ولو أراكم كثيرا لفشتم ولتتازعن في الأمر» وقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبدل لكم تسؤاكم الى قوله قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا لها كافرين» وفي قوله تعالى للحواريين «إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين» اشارة الى ان زيادة العلم في بعض المواضع قد تكون سببا في زيادة العذاب فيكون مصلحة في طي كثير من العلوم واليه الاشارة بقوله عز وجل «وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون» وفي سبب نزولها حديثان عن ابن عباس وجابر بن عبد الله

رضى الله عنهما ورجال الصحيح كل منهما رجال خرجهما الهيئتي في مجمع الزوائد مفرقين في تفسير سورة هود وتفسير الاسراء فاذا تقرر هذا فالرجوع الى كتاب من يعلم من مصالحننا ومفاسدنا ما لا نعلمه أولى بنا والله يعزينا وأنتم لاتعلمون وهذا كله بعد علمنا بانه كلام الله بديل المعجزات وطريقة السلف كما سيأتى بيانه مبسوطا ان شاء الله تعالى

﴿النوع الثامن﴾ ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واهل بيته من الحث على الرجوع الى كتاب الله وتفضيله على غيره مما فيه خير وهدى وتقصى ذلك يطول ويميل فلنقتصر من ذلك على حديث مشهور يذكر بامثاله وذلك مما رواه السيد الامام أبو طالب (١) عليه السلام في أماليه والحافظ المحدث ابو عيسى الترمذى في جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب على عليه السلام قال مررت في المسجد فاذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي عليه السلام فاخبرته فقال اقد فعلوها قلت نعم قال اما انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « الا انها ستكون فتنة قلت فما الخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله وهو جبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الالهواء ولا تلبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم ينته الجن

(١) حديث شريف عن أمالي الامام ابى طالب والترمذى في الرجوع الى القرآن

إذ سمعته حتى قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشداً فآمنا به من قال به صدق ومن عمل أجر ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم انتهى هذا الحديث الجليل وقد رواه السيد الامام أبو طالب عليه السلام في أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل رضی الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنحوه ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الاصول من طريق ثالثة من حديث عمر بن الخطاب ولم ينزل العلماء يتداولونه فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقى بالقبول عند علماء الاصول فصار صحيح المعنى في مقتضى الاجماع والمنقول والمعقول ﴿التوع التاسع﴾ اجماع علماء الاسلام من جميع الطوائف على ان القرآن يفيد ما ادعيت من معرفة أدلة التوحيد من غير ظن ولا تقليد وكما ان المتكلم ينظر في كتب شيوخه ليتعلم منها الأدلة من غير تقليد غيره فكذلك من نظر في القرآن يتعلم منه الأدلة من غير تقليد بل القرآن العظيم هو الذي منه تعلم المتكلمون النظر لكنهم غالوا في النظر ولم يقتصروا على القدر الكافي النافع المذكور في كتاب الله تعالى وذلك يتضح بإيراد كلام علماء الفرق المختلفة في المصنفات الشهيرة وعدم انكار شيء من ذلك على أحد منهم في الازمنة الطويلة والقرون العديدة مع اختلافهم واختلاف المقررين لهم أغراضاً وبلداً وازماناً ولم يجمعهم بلد ولا مذهب ولا زمن ولا نسب ولا غرض فأولهم أبو الأئمة وامام الأمة أمير المؤمنين وحجة المحققين على عليه السلام وهو مشهور عنه في نهج البلاغة وغيره روى السيد الامام أبو طالب عليه السلام من ذلك ما يكفي ويشفي ولم يتأوله كما هو عادته فيما يجب تأويله عنده فقال اخبرنا أبي رحمه الله قال

أخبرنا أبي رحمه الله قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن سلام قال
 أخبرنا أبي قال حدثنا إبراهيم بن سليمان قال حدثنا علي بن الخطاب الخثعمي قال
 حدثنا أحمد بن محمد الانصاري عن بشير عن زيد بن أسلم أن رجلا سأل
 أمير المؤمنين علياً عليه السلام في مسجد الكوفة فقال يا أمير المؤمنين
 هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً وبه معرفة، فغضب علي عليه السلام
 ونادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله ثم صعد المنبر وهو
 مغضب متغير اللون فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله
 عليه وآله وسلم ثم سرد الخطبة إلى قوله أيها السائل اعقل ما سألتني عنه
 ولا تسأل أحداً عنه بعدى فإني أكفيك مؤنة الطلب، وشدة التعمق
 في المذهب، فكيف يوصف الذي سألتني عنه وهو الذي عجزت الملائكة
 مع قريش من كرسى كرامته وطول ولهم به وتعظيمهم لجلال عزته
 وقريش من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم
 من ملكوت القدس بحيث هم من معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا
 سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم: فعليك أيها
 السائل بما دل عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسل بينك وبين
 معرفته فأتم به واستضى بنور هدايته إنما هي نعمة وحكمة أوتيتها فخذ
 ما أوتيت وكن من الشاكرين وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في
 الكتاب فرضه ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا عن أئمة
 الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه فإنه منتهى حق الله عليك

وله عليه السلام نحو هذا في وصيته لولده الحسن عليه السلام وهي خير وصية من

خير موص إلى خير موصى إليه وستأتى فينبغى تأملها حق التأمل والعمل
بما فيها ومرانمة المبتدعة بها

ومهم من أئمة العترة الطاهرة الامام المؤيد بالله يحيى (١) بن حمزة عليه
السلام فانه ذكر في أوائل كتابه التمهيد في القول بوجوب النظر فقال
إن أكثر القرآن مشتمل على ذكر الأدلة وشرحها. قال عليه السلام
ولنذكر منها آية واحدة ليقاس بها الباقي وهي قوله تعالى « أو لم ير
الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين » إلى آخر السورة
فالله تعالى حكى في هذه الآية انكار المنكرين للاعادة وقرر وجه شبههم
وأجاب عن كل واحدة منها بجواب يخصه وطول في بيان ذلك إلى قوله
وأما الآيات الدالة على إثبات الصانع وصفاته والنبوة والرد على منكريها
فاكثر من أن تحصى * ومن علماء العترة وساداتهم الذين ذكروا ذلك وحشوا
عليه وصنفوا فيه السيد العلامة يحيى بن منصور رحمه الله تعالى ومن أواخر
ما صنف في ذلك كتابه المسمى بالجمال الاسلامية فانه شغنه بالاحتجاج
بالآيات القرآنية * ومن علماء الزيدية وقدماء الشيعة محمد بن منصور الكوفي
المتفق على علمه وفضله وقد بالغ في هذا المعنى وصنف فيه كتابا مفردا
سماه كتاب الجملة والالفه ونقل منه السيد العلامة أبو عبد الله محمد بن علي
ابن عبد الرحمن العلوي الحسنى في كتابه الجامع الكافي الذي لم يصنف
في فقه الزيدية مثله فقال في المجلد السادس منه في كتاب الزيادات مالفظه
وإنما جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بغاية الحجة على من سألها ما بين لله
وأنزل في كتبه اليها ولم يعد ذلك إلى غيره ولن تكون حجة أبلغ على الله من

حجج الانبياء عليهم السلام التي بلغوها عن الله تعالى خلقه ولا أهدي لهم إن قبلوها قال الله تعالى «قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض» وقال إبراهيم في محاجة قومه «أفأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون فانهم عدوا لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقنى وإذا مرضت فهو يشفين إلى قوله والذى يميتنى ثم يحيين» فدلهم عليه بالقدرة والتدبير - وقال موسى عليه السلام فى مسألة فرعون إذ يقول « من ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى» الآية وقال فرعون وما رب العالمين قال موسى «رب السموات والارض وما بينهما إن كنتم موقنين» وقال موسى عليه السلام فى آية أخرى « رب الشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» فلم يتعمد موسى عليه السلام فى الجواب عند مسألة فرعون إياه غير ما أنبأه الله به فى الكتاب ، وفرعون اللعين اعشى العمين وأعشى العاتين وأخبت المتعنتين اجابه موسى عليه أفضل الصلاة والسلام عن الله عز وجل بالدلالة من خلق الله عليه ، وكذلك محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله قومه عن الله عز وجل إذ يقولون من يعيدنا فأمره الله تعالى بالجواب لهم «قل الذى فطركم أول مرة» وقال من لا شريك له «أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم» وقال لنبىه صلى الله عليه وآله وسلم «قل يحيىها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم منه توقدون» فلم يكاف سبجانه نبىه صلى الله عليه وعلى آله

وسلم من الحججة والجواب غير ما قاله في الكتاب وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له قومه انسب لنا ربك فنزل عليه جبريل عليه السلام بسورة قل هو الله أحد انتهى بحروفه وهذا أيضا قول المنزلة ممن صرح به منهم قاضي القضاة عبد الجبار فانه قال في المجلد الرابع من المحيط في النبوات في ذكر إعجاز القرآن ما لفظه واتفق فيه أيضا استنباط الأدلة التي توافق العقول وموافقته ما تضمنه لاحكام العقل على وجه يبهر ذوى العقول ويحيرهم فان الله سبحانه بينه على المعاني التي يستخرجها المتكلمون بمعاونة وجهد بألفاظ سهلة قليلة تحتوى على معان كثيرة كما ذكره عز وجل في تقص مذاهب الطبيعيين في قوله تعالى « وفي الارض قطع متجاورات الآية » وفي الآيات التي ذكرها في نفي الثاني وفي غير ذلك من الابواب التي لا تكاد تحصى انتهى بحروفه (ومنهم الحاكم أبو سعيد المحسن بن كرامة) فانه قال في شرح العيون في الفصل السابع منه ما لفظه فلا شبهة أنه دعاهم يعنى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى هذه الاصول والنظر في الأدلة بما تلا عليهم من الآيات في أدلة التوحيد والنبوات

ومنهم مختار بن محمود أحد ناصري مذهب ابى الحسين البصرى فانه قال في كتابه المجتبى في الاستدلال بطريقة الاحوال في الطريق الرابع من الباب الثاني بعد ذكر الاستدلال وقد جمعها الله تعالى في قوله « إن في خلق السموات والارض الى قوله لا آيات لقوم يعقلون » وقال في مسألة الاطفال إن التمسك بكتاب الله المبين أقوى أركان أصول الدين وكذلك هو قول سائر الطوائف * وقال القاضي عياض في الشفاء في ذكر إعجاز القرآن

ومنها: جمعة لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل نبوته خاصة معرفتها ولا القيام بها ولا يحيط بها أحد من علماء الامم ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع والحجج والتنبيه على طرق الحجج العقلية والرد على فرق الامم براهين قوية وأدلة بينة سهلة الالفاظ موجزة المقاصد رام المتخذون بعد أن ينصبوا أداة مثلها فلم يقدرواعليها كقوله «أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم. وقوله تعالى قل يحيبها الذى أنشأها أول مرة. وقوله لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا» إلى ما حواه من علوم السير وأنباء الامم والمواعظ والحكم* وقال الفخر الرازى الاشعري فى كتابه الاربعين فى الكلام على النبوات فى ذكر المعجزات العقلية: بل أقر الكل بأنه لا يمكن أن يزداد فى تقرير الدلائل على ما ورد فى القرآن* وقال الغزالى وهو من أئمة الطائفة الشافعية فى الفقه والاصول فى الاصل الاول من الركن الاول من الرسالة القدسية فى معرفة وجود الرب تعالى: وأولى ما يستضاء به من الابواب ويسلك من طريق النظر والاعتبار ما أرشد اليه القرآن فليس بعد بيان الله بيان ثم ساق الآيات القرآنية* وقال صاحب الوظائف فى مذهب أهل الحديث والاثر فى الدليل على معرفة الخالق سبحانه ووجدانيته وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلى اليوم الآخر: وأدلة هذه الامور فى القرآن. أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى «قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فيقولون الله»

وقوله «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد) وقوله تعالى (فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شققاً أنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) وقوله تعالى (ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً إلى قوله وجنات ألفافا) وأمثال هذه الآيات وهي قريب من خمسمائة آية ينبغى للخلق أن يعرفوا جلال الله وعظمته بقوله الصادق المعجز إلى قوله فان الدلالات الشرعية الصادرة عن اللطيف الخبير وعن رسوله البشير النذير صلى الله عليه وآله وسلم تنقع وتسكن النفوس وتغرس في القلوب الاعتقادات الصحيحة الجازمة . وأما الدليل على وحدانيته فيقع بما في القرآن من قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) ونظائرها* وأما صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيستدل عليه بقوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ونظائرها وأما اليوم الآخر فيستدل عليه بقوله (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) وبقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة مخلوق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) وبقوله (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة الى قوله وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شئ عقدير)

وأمثال ذلك في القرآن كثيرة فهذه أدلة قاطعة جلية تسبق إلى الافهام يبادىء الرأى وأول النظر ويشترك كافة الخلق في دركها فادلة القرآن والسنة مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان بل كالماء الذى ينتفع به الصبى والرضيع والرجل القوى ولهذا كانت ادلة القرآن سائغة جلية الاترى أن من قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه . وأن التدبير لا ينتظم فى دار واحدة بمديرين فكيف ينتظم فى جميع العالم وأن من خلق علم ثم خلق كما قال تعالى «الايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» فهذه أدلة تجرى مجرى الماء الذى جعل الله منه كل شىء حيا إلى آخر كلامه . وبالجملة فتقصى كلام علماء الاسلام فى مثل هذا يمل والحاجة إلى الاحتجاج عليه من عود الدين غريبا من أدل دليل على عناد المخالف .

وليس يصح فى الافهام شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

﴿فصل﴾ فى ذكر ما تيسر من نصوص أهل البيت عليهم السلام على الاكتفاء بالجلل والحث على ذلك وكراهة الغلو فى علم الكلام ليعلم بذلك مذهبهم ويعلم به كذب مدعى إجماعهم على خلافه من ذلك قول على عليه السلام فى وصيته لولده الحسن عليهما السلام «واعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ به من وصيتى تقوى الله تعالى والاقتصار على ما فرضه الله عليك والاخذ بما مضى عليه الاولون من آباءك والصالحون من أهل بيتك فانهم لم يدعوا النظر لانفسهم كما أنت ناظر وفكر وا كما أنت مفكر ثم ردحهم آخر ذلك إلى الاخذ بما عرفوا والامسك عما لم يعرفوا . فان أبت نفسك أن تقبل

ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهّم وتعلم لا بتورط
 الشبهات وغلو الخصومات إلى آخر ما ذكره في هذا المعنى في نهج البلاغة.
 وتأوله ابن أبي الحديد بما يستحي من ذكره: من أن ذلك لعلم على عليه السلام بقصور
 ولده الحسن عليه السلام من درك هذا العلم. وكفى شاهداً على بطلان هذه البدعة
 ما أدت إليه من تفضيل شرار القرون في قواعد الايمان على ريحانة المصطفى
 سيد شباب أهل الجنة المجمع على إمامته بعد أبيه عليهما السلام
 وكونها لا تصح إلا مع تعسف التأويلات الرادة لكتاب الله عز وجل ثم
 لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لاقوال السلف وأفعالهم
 وتقريراتهم ثم لنصوص الأئمة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم. وكيف يظن بامير المؤمنين أنه يجعل وصيته لولده الحسن من
 أنمض المتشابهات وأدق الشبهات؟ هيهات هيهات لو لدفع الضرورات.
 وابتغاء الفتنة بالتأويلات. ومن ذلك ما تقدم قريبا عن علي عليه السلام
 في الرجوع إلى كتاب الله. والذي حمل ابن أبي الحديد مع علمه على ذلك
 التأويل ظنه أن ذلك الكلام يستلزم جواز الجهل بالله تعالى وتقليد كل
 أحد لاهله. وليس كذلك لأنه إنما امره باتباع الاولين من أهله وهم
 حجج الآله على البرايا منهم على عليه السلام المنصوب علما عند الاختلاف
 بل منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي شهدت بصدقه الآيات
 والمعجزات لكنه امره أن يكتفي بالدليل الجملي الدال على صدقه الذي علم
 على عليه السلام أن الحسن قد عرفه ونهاه عن التعرض للتفاضل والله
 أعلم * ومن ذلك قول علي عليه السلام لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم

يجبها عن واجب معرفته فهو الذى تشهد له أعلام الوجود على اقرار قلب ذوى الجحود . ونصره ابن أبى الحديد فى شرحه وعزاه نصرته إلى قاضى القضاة قال وليس هو قول الجاحظ لان الجاحظ ادعى فى جميع المعارف انها ضرورية وهذا فى معرفة إثبات الصانع فقط وانفذه: ونحن ما دعينا فى هذا التمام إلا أن العلم بإثبات الصانع فقط هو الضرورى فاين أحد القولين من الآخر انتهى بحروفه - ومن ذلك ما ذكره المؤيد بالله فى الزيادات فى ذكر مسائل الاجتهاد فقال ما لفظه: والاولى عندى الاحتياط فى مسائل الفقه ما أمكن والتوقف فى مسائل الكلام . وقال بعد ذلك فى فصل فيما يجب على القاضى والمستقضى: والاولى عندى ترك الخوض فيما لا تمس الحاجة إلى معرفته من علم الكلام لان الصحيح من المذهب أن الجهل قبيح ويجوز أن يصير الى حالة يستحق صاحبها الخلود فى النار وهذا غير ما مون كونه لو نظر فى مسألة من الكلام وأخطأ ولم يشتغل بها وترك النظر فيها أمن من ذلك ولو أصاب كان ما يستحق من الثواب على الاصابة يسيراً . والعاقلة إذا اختار الحزم اختار الاعراض عنها دون النظر فيها وهذا كرجل يقال له: إن خرجت إلى الديلم أعطيتك ديناراً وهو يملك مائة درهم ولا حاجة له إليه ويكون فى الطريق خطر وهو يعلم أنه ربما يناله ضرر يودى الى تلف النفس . فالعاقلة الحازم يختار فى مثل ذلك ترك سلوكه . وكل ذلك فيما لا يجب عليه فى الوقت من المسائل . وإن كان فيما بعد يجوز أن تتفق له شبهة يجب عليه النظر فى حلها وربما يحتاج الى علوم كثيرة تحملها فبالأهم يجب أن يشتغل

ألا ترى أن من ترك طلب قوت يومه وهو يحتاج اليه واشتغل بتحصيل

قطن یحتاج الیه بعد شهر للبس الشتاء لا یرضی فعله . اه بحر وفه
ومن ذلك ما أوردده السيد العلامة أبو عبد الله الحسنى فی كتابه الجامع
الكافی فقه الزیدية فی المجلد السادس منه فی ذم ما أحدث الناس من علم الكلام
والامر بلزوم السنة وما درج علیه السلف فانه طول فی ذلك ونقله عن عیون
أئمة العترة المجمع علی علمهم وفضلهم مثل علی بن الحسین وولده زید وحفیده
جعفر الصادق وعبد الله بن موسى وأحمد بن عیسی بن زید والحسن بن
یحیی بن الحسین بن زید بن علی رضی الله عنهم

ومحمد بن عبد الله النفس الزكية ، و ابراهیم بن عبد الله ، والقاسم بن
ابراهیم ، وأخیه محمد بن ابراهیم ، ورأس شیعته العالم الكبير محمد بن منصور
وصنف فی ذلك كتاب الجملة والالفه .

قال محمد بن منصور فی كتاب أحمد بن عیسی ، كان عبد الله بن موسى
رضی الله عنه یكره الكلام فیما أحدث الناس وكان إذا ذكر له رجل ممن یتكلم
فیما أحدث الناس من الكلام یقول اللهم امتناعی علی الاسلام ویمسك
وقال محمد فی كتاب الجملة ، رأیت أحمد بن عیسی یترحم علی من یقول
بخلق القرآن ومن لا یقول به . وكان عنده الاخذ بالجملة محموداً ، وترك
ما فیه الفرقة وهو عنده الاتباع للسلف . وقال محمد بن منصور فی كتاب
الجملة وذكر اختلاف الناس واكفار بعضهم بعضاً فقال رأیت المتفرقین
وعاشرت المختلفین من الخاصة والعامة من علماء آل الرسول وأهل
الفضل منهم ومن غیرهم من أهل العلم والفضل من الشیعة الموجبین إنكار
المنكر وحیاطة الدين فما رأیتهم یكفر بعضهم بعضاً ولا یتحلون ذلك

ولا يتبرأ بعضهم من بعض ، بل قد رأيت بعضهم يتولى بعضاً ويترحم عليه بعد المعرفة منهم بمخالفة بعضهم لبعض . ثم سرد أشياء مما شاهده من ذلك عن القاسم وغيره الى قوله وكان عمرو بن الهيثم من أصحاب سليمان بن جرير يقول بخلق القرآن وسمعت يقول لارحم الله ابن أبي دؤاد كان الناس على جملة تؤديهم الى الله فطرح بينهم الفرقة يعني حين أظهر المحنة في القرآن

قال محمد بن منصور وكان عمرو بن الهيثم وبشر بن الحسن ومحمد ابن يحيى الجبجى دعاة لعبد الله بن موسى وهم يقولون بخلق القرآن . قال وكان عبد الله بن موسى قد بعث ابنه أو أحدهما مع بشر بن الحسن الى طاهر بن الحسين يدعوه الى هذا الامر مع معرفة عبد الله بن موسى بقول بشر ومعرفة بشر بعبد الله وقوله بالجل فلم أر أحداً من هؤلاء دان بالبراءة ممن خالفه .

قال محمد وسمعت القاسم يقول ما رأيت كلامياً قط له خشوع ثم قال : الجمل الجمل . وقال محمد وقد عاشرت رؤساء المعتزلة ومن لأحصى منهم ممن يقول بهذا القول (يعنى خلق القرآن) منهم جعفر بن حرب وجعفر بن مبشر القصبى ومحمد بن عبد الله الاسكافى فاسألنى أحد منهم قطع عن ماختلف الناس فيه . ولا كاشفونى عن شيء من ذلك

وأخبرنى أبو سهل الخراسانى أنه كان رسول سهل بن سلامة وهو من كبار المعتزلة وعبادهم إلى عبد الله بن موسى يدعوه الى أن يتقلد هذا الامر ويكون سهلاً عوناً له عليه .

قال محمد فهدا غير سبيل المتحليلين اليوم للدين وغير ما أظهر واو شرعوا من التغابن والبراءة والتكفير . وهذا هو الفرق والاختلاف الذي نهى الله عنهما في القرآن في قوله « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وقوله « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » فأخبر الله سبحانه أن اختلافهم بنى من بعضهم على بعض

وأخبر عز وجل أن في الفرقة الضعف والفشل فحذر من ذلك بقوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) يقول عز وجل « فتذهب هيبتكم » فهذا ما ندب الله إليه مع ما رأينا عليه السلف الصالح المتقدم الذين يصاح أن نجعلهم بيننا وبين الله تعالى لا هم لا يخلون من إحدى منزلتين إما أن يكونوا علماء أن الديانة فيما بينهم وبين الله تعالى القول (١) ببعض هذه المقالة التي تنازع الناس فيها حق واجب لازم وأجزاء من ذلك الاضرار ورأوا الصواب والرشد في الامسالك عن الاظهار لما فيه من الفرقة والاختلاف الذي نهى الله عنه فرأوا الجمل وهو القول بظاهر القرآن كافيًا مؤديا للعباد إلى الله عز وجل فتمسكوا بذلك . فينبغي لمن أم الدين وقصد الى الله تعالى الاقتداء بهم والتمسك بسبيلهم ، أو يكونوا لم يعتقدوا في ظاهر الامر وباطنه القول بظاهر القرآن والجمل المجمع عليها فقد يجب الاقتداء بهم أيضاً في ذلك . قال محمد وهذا أحمد بن عيسى قد اجتمع عليه المختلفون واتخذ ممن

(١) لعل القول بالنصب بدل من الديانة وحق واجب اطع خبر أن اه مصححه

يشاركه في أمره جماعة من المتفرقين كتب إليه عبد الله بن محمد بن سليم يسأله عن القرآن وغيره فكان مما كتب اليه : ذكرت اختلاف الناس في القرآن ولم يختلفوا أنه من عند الله فهذا من أحمد دليل على أن الاخذ بظاهر القرآن والجمع المجمع عليها مجزئ مؤد الى الله تعالى وقد علمت أن رجال أحمد ابن عيسى الذين كان يوجههم في أمورهم مختلفين

منهم حسن بن هذيل على مذهب أبي الجارود ومنهم عبد الرحمن بن معمر وهو يظهر القول بخلق القرآن لا يستتر به ومحول بن ابراهيم وأمثالهم من المختلفين فلم نره بفرقة يخالف فيها أخرى وكان رحمه الله عالما بما يضيق عليه من ذلك وما يتسع له في أمر دينه ولو ضاق عليه ذلك لم يفعله

وهذا الحسن بن يحيى انا متصل به منذ أربعين سنة أو قريبا من ذلك يعاشر ضروبا من المتدينين مختلفين في المذاهب فما رأيت مع قوله بالجملة وكراهته للفرقة امتحن أحدا ولا كشف له عن مذهبه بل قد رأيتهم يعمهم بالنصيحة ويمحسن اليهم العشرة ويترحم على من مضى من سلفه وأهل بيته ممن يوافق في المقالة ويخالفه * هذا مع جلاله قدره وكثرة علمه ومعرفة بما يلزمه في ذلك ويجب عليه

قال محمد في كتاب الجملة وأخبرني من أثق به من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن محمد بن عبد الله أنه أوجب على من قام بهذا الامر الدعاء لجميع المتدينين وقطع الالقاب التي يدعى بها فرق المضلين وغلق الابواب التي في فتح مثلها يكون عليهم التلف والامسك عما شئت الكلمة

وفرق الجماعة واغرى بين الناس فيما اختلفوا فيه وصاروا أحزابا والدعاء لطبقات الناس من حيث يعقلون الى السبيل التي لا ينكرون وبه يألفون فيتولى بعضهم بعضا ويدينون بذلك فان اجماعهم عليه إثبات للحق وإزالة للباطل. قال محمد وكذلك سمعنا عن ابراهيم بن عبد الله انه سئل عن بعض ما يختلف الناس فيه في المذاهب فلم يجبه فيه وقال أعينوني على ما اجتمعنا عليه حتى تتفرغ فيه لما اختلفنا

حدثنا أبو الحسن محمد بن جعفر بن محمد النحوي قال أخبرنا احمد بن محمد ابن سعيد قال حدثنا محمد بن منصور قال قال لي القاسم بن ابراهيم أخبرني بعض من أثق به من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن محمد بن عبد الله بن الحسن أنه قال يجب على من قام بهذا الامر الدعاء لجميع الناس وقطع الالقاب التي يدعى بها فرق المضلين وذكر مثل هذا الكلام* وروى عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال الزم ما اجتمع عليه المتفرقون. وروى عن علي عليه السلام أنه قال يا بردها على السكبد إذا سئل المرء عما لا يعلم أن يقول الله أعلم انتهى بعض ما ذكره السيد الامام العلامة أبو عبد الله الحسنی في كتابه وهو نبذة يسيرة مما ذكره رحمه الله وما زال في أهل البيت من يدعو إلى هذا ويحث عليه من متقدميهم ومتأخريهم ويوضح ذلك تأليفهم المختصرات وبسطهم في غيره واقتصارهم في العقائد على الاجمال والاشارات ومن أشهر ذلك ما أودعه محمد بن سليمان رحمه الله في أول المنتخب علي مذهب الهادي عليه السلام فانه سأله عما يكفي في معرفة الله سبحانه ودليل ذلك فوجز له الكلام في مقدار عشرة أسطر وتبرأ عليه

السلام في خطبة الاحكام من كل معتزلى غال. وكذلك كتاب البالغ المدرك له عليه السلام وأجزه غاية الایجاز كما فعل في أول المنتخب. وسياتي بلفظه وكذلك السيد أبو طالب في شرحه له وكذلك السيد الامام المؤيد بالله عليه السلام له في ذلك كتاب التبصرة مختصر جدا واه في آخر الزينات تزهيد كثير في هذا الفن كما مر بالفاظه. وقد توسع هذان السيدان الامامان الاخوان عليهما السلام في علوم الفقه وأصوله وصنفا في ذلك الكتب الخافلة كشرح التحرير في الفقه والحديث والامالي في الحديث والمجزي في أصول الفقه للسيد أبو طالب (وشرح التجريد في الفقه والحديث للسيد المؤيد بالله) ولم يتوسعا في علم الكلام ولم يصنفا فيه تصنيفا حافلا مع مخالطتهما لأئمتهم. وكونهما كانا في فوره وسورته (١) وواعامت لأحد منهم عليهم السلام ولا من ذرياتهم المتقدمين في ذلك تأليفا مبسوطا أما صنفته بعض العجم منهم عليهم السلام وتبع فيه قاضي القضاة من شرح الاصول فانه شيء نادر فيهم ليس من شأنهم مع أنه متأخر وإنما الكلام في قدماتهم والذي يشهد بما ذكرته أن من بسط التأليف في ذلك من متأخريهم على ندوره لم ينقل لهم في دقائق الكلام اختلافا ولا اتفاقا كما لم ينقل للسلف المتفق على صلاحهم وإنما ينقلون كلام شيوخ الاعتزال وانظر الى كتب اللطيف من الكلام مثل تذكرة ابن متوية وما شاكها فانه لا ينقل عنهم عليهم السلام فيها شيئا وليس لقصورهم في العلم لكن لكرهتهم الخوض في هذا الفن. وقد اشتهرت عنهم الحكايات والوصايا والاخبار

(١) الفور الهيجان والسورة السطوة يريد أنهما متمكنان منه جدا تمكن اهما صححه عيد

الاشعار فن ذلك قول السيد العلامة يحيى بن منصور بن العفيف بن
فضل رحمه الله تعالى في ذكر المعتزلة:

ويرون ذلك مذهبا مستعظما من طول أنظار وحسن تفكير
ونسوا غنا الاسلام قبل حدوثهم

عن كل قول حادث متأخر
ما ظنهم بالمصطفى في تركه ما استنبطوه ونهيه المتكرر
أعلى صواب أم على خطأ مضى

فن المصيب سوى البشير النذر

أ يكون في دين النبي وصحبه
أوليس كان المصطفى ببيانه
ما باله حتى السواك أتى به
ان كان رب العرش أ كمل دينه
أو كان في إهمال أحمد غنية
ما كان أحمد بعد منع كاتما
بل كان ينكر كل قول حادث
وكذا القرابة والصحابة بعده
أوبين هاد للانام بعلمه
كخليفة المختار وارث علمه
ما كان منهم من يرى متعمقا
بل جاء عنه وعنهم متواترا

نقص فكيف به ولما يشعر
وتمامه أولى فليم لم يخبر
وقواعد الاسلام لم تتقرر
فأعجب لمبطن قوله والمظهر
فدع التكلف للزيادة واقصر
لهداية كلا ورب الشعر
حتى المئات فلا تشك وتمتري
ما بين راو ضابط ومفسر
أو مورد لغريبه أو مصدر
رب العلوم ابى شبير واشهر
كلا ولا نقلوه عنه فقصر
خطر التعمق والغلو لبصر

عن خبرة وبصيرة وتيقن
 لكن تأسٍ منهم بمحمد
 فالزم بعروة دينهم مستمسكا
 لا يخذعنك زخرف متصور
 إن الخلاف بكل فن ممكن
 فدع الخلاف الى الوفاق تورعا
 كم بين معتمد لقول ظاهر
 ومجاوز حد الوفاق مخاطر
 من خارج أو مرجى أو رافض
 أو ذى اعتزال مبدع أو مجبرى
 أو غير ذلك من مذاهب جمّة
 يكفيك من جهة العقيدة مسلم
 وقال رحمه الله تعالى
 يا طالب الحق ان الحق في الجمل
 هي النجاة فلا تبغى بها بدلا
 وقال السيد العلامة حميدان بن يحيى القاسمي رحمه الله وفي كلامه ما
 أذهب اليه من التهمة بتعمد العناد :
 زال أهل التفعيل والانفعال
 حرفوا بحكم النصوص فصاروا
 ولهم في التوحيد أقوال زور
 وأزيل التطريف بالاعتزال
 قدوة التليس والاضلال
 مزريات في الزور للاقوال

رائقات بالبين كل محال	فائقات في الذم كل محال
شاهدات لمفرغ الوهم فيها	باعتداء الحدود والايغال
أصلوا للقياس أصل اصطلاح	جل عن أصل صلحهم ذوالجلال
لقبوا الجسم بالذوات ليقضوا	باشتراك في حالة وانفصال
وادعوا أن للمهيمن ذاتا	شاركت ثم فارقت في خلال
ثم قالوا ما فرعوه وخابوا	في شروح لهم عراض طوايا
باجتراء في قولهم وابتداع	وبظن في زعمهم واتحجال
واختيال في فهمهم للمعاني	بين ليس فيه فرق بحال
نحو ما قد جمعت منها مثالا	ههنا فاستمع لضرب المثال
أزلى ثبوته وقديم	ووجود ما إن له من زوال
وكذا الفرق بين أمر وشيء	واشتراك الذوات والامثال
ومزيد على الذوات وغير	واقترضاء الاحكام والاغلال
أى فرق ما بين ثنتين منها	في صحيح الذكا ووضع المقال
ليس ان قيل ثابت أزلى	هو الا كبرنا المتعالى
مثل من قال لم يزل كل شيء	ذا ذوات ثوابت الاحوال

ما أتى التكليف قول بهذا

في مقال يروى ولا في فعال

بل أتى الامر بالتفكر في الصن	مع وترك اتباع رأى الرجال
غير من كان مصطنعيا واعتصام	أو حكما في قوله غير غال

وقال في أرجوزته التي سماها المتوكل على الله المطهر بن يحيى: المنزلّة

لاعضاء المعتزلة:

وما الذي ألجأهم الى الخطر	والخوض في علم الغيوب بالنظر
وما يقال فيه للمخطي كفر	وفي النبي اسوة ومعتبر
وقدوة محمودة لمن شكر	ولم يخالف في الوهوم والفكر
فانه للفكر في الله حذر	وفي عجب الصنع بالفكر أمر
فمن يكون بعده من البشر	أدرى بما يأتي به وما يذر
ليس الاله الواحد القدوس	كما يظنه الذي يقيس
اذ كل فكر دونه محبوس	وكلما تخاله النفوس
فدرك مكيف محسوس	فاحذر شيوخا علمها تليس

وهما التدقيق والتدليس	قد حازها دون الهدى إبليس
ما الفرق بين مقتض وعله	وزائد وكثرة وقله
الى اصطلاح قادة مضله	قد سلكوا في طرق مذه
فانقع بنحلة النبي نحله	فتنوع ذى دين مسلم له
فالمصطفى من أهل كل مله	أعلم باللدلول والادله
وبالفروض الواجبات لله	والشيخ أدنى ان يكون مثاه

الصح ما ذكره في الارجوزة وله رسائل كثيرة في مجلد محتو على ترك التعمق

في علم الكلام والبدع في الاسلام مما لا مزيد عليه وفي مجموعه هذا تقرير كثير ممن عاصره من أهل البيت عليهم السلام كما ذكره وانه مذهب أهلهم وممن ذكر عنهم الامام المهدي الشهيد أحمد بن الحسين والامام المتوكل على الله المطهر بن يحيى وقرر ذلك بمدم السيد العلامة محمد ابن يحيى القاسمي وصنف فيه كتابا معروفاً، وكتب الامام المهدي محمد بن المطهر على كتاب السيد محمد بن يحيى القاسمي أنه معتقده الا الجوهرفان له فيه نظراً وتابعهم على هذا ولده السيد الواثق المطهر بن محمد بن المطهر وقال في ذلك في قصيدته البليغة التي أولها :

لا يستزك أقوام بأقوال ملفقات حريات بابطال

لا تتخذ غير آل المصطفى وزراً

فالآل حق وغير الآل (١) كالأل

ولولا طولها وخوف الاملال لذكرتها كلها فانه روى فيها عن أهل البيت كلهم عليهم السلام انكار مذهب المعتزلة وخوضهم فيما لا يعلمه إلا الله تعالى . وذكر الأئمة بأسمائهم منزلها لهم عن ذلك منهم علي بن الحسين ، وولده الباقر ، وزيد ، وجعفر الصادق ، والقاسم ، وابنه محمد ، والهادي ، والمنصور ، وأحمد بن الحسين . والامام الحسن بن محمد . والمطهر بن يحيى . ومحمد بن المطهر نقلت ذلك من شرح هذه القصيدة المسمى بالآل في الدرية في شرح الايات الفخرية للسيد محمد

(١) المراد بالآل الاول أهل البيت وبالثاني السراب اهم مصححه عيد الوصيف

ابن يحيى بن الحسن القاسمي المتقدم ذكره وقد طول في شرحها وبين فيه طرق الرواية عنهم فأفاد وأجاد رحمه الله تعالى

وذكر الامام المنصور بالله عليه السلام في كتاب المهذب ما يدل على قول أهل الجمل * واحتج بأن رجلا سأل أمير المؤمنين عن قسم أقسم فيه بالذي احتجب بسبع سموات وحنث فيه ، فقال له علي عليه السلام لا شيء عليك لأنك حلفت بغير الله ثم أمره بالجهاد (١) قال المنصور بالله فليأمره بلزوم المدرسة لتعليم الادلة أو كما قال وكان سأني رجل من العامة عن قوله تعالى « أو من وراء حجاب » . وقوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) قال كيف يحيط حجاب بالله تعالى فلم أدر ما أقول حتى نظرت فألمني الله سبحانه إلى جواب حسن وهو أن الحجاب حجاب لا يمد محيط به فهو المحجوب المحصور لقوله تعالى (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ولم يقل إنه محجوب عنهم ثم انى وجدت لى الصنوجمال الدين الهادي بن ابراهيم قصيدة بليغة كبيرة نصر فيها هذا اللذهب أولها :

أغنى الصباح عن المصباح فاعتبرى

وأنعم الفكر في الآيات بالنظر

من سير الشمس تجرى في مسالكها

وجاء في ظلمة الديجور بالقمر

(١) لعله جهاد النفس وردها عن جعل الله عرضة في الأمان اه مصححه عيد

من علق الفلك الأعلى وسيره
 من وتدا الأرض بالشم الجبال ومن
 من سخر الريح تجرى وهي خافقة
 من أنزل الغيث وقت الاحتياج له
 من أنبت الحب بقلائم أخرجه
 من أبدع الحيوانات التي خلقت
 من أنزل البرد المجلو من سحب
 من أمسك الطير في جوار السماء ومن
 من قدر الرزق في الدنيا ويسره
 مجلجل الرعد فانظر كيف سخره
 ان كنت تجهل شيئاً من بدائعه
 فأين عقلك والفهم المميز
 لا شك في الله رب العالمين فإلى
 إلى قوله رحمه الله تعالى

إياك والخطر استمسك بعروة من
 قل ربى الله لا تسلك مسالك من
 فكر بنفسك يا مسكين تلق بها
 فكيف تعرف كنه الذات من ملك الـ

فدار لولاه لم يمسك ولم يدر
 أسقى البرية منها طيب النهر
 في السمع ليس لها حظ من البصر
 وعمم الأرض ذات الصدع بالزهر
 دقلاً (١) ومن توج الأكام بالثمر
 في البر والبحر أجناساً من الصور
 من أخرج النار من عود ومن حجر
 لولاه لم يمسك الطير ولم يطر
 وسلط الموت محتوماً على العمر
 وألمع البرق لمع الصارم الذكر
 وما ابتداه من الأشياء بالفطر
 من العالمية في الإنسان والبقرة
 أغنى الصباح عن المصباح فاعتبر

لم يبلغ طالب توحيد إلى الخطر
 لم يلق من سفر إلا عنا السفر
 ما ليس تعلمه من فكرك النظرى
 ملوك يا عبد ما أولاك بالقصر

وشمر فردييه بمصنفة الألم التي تنور بين جوانحه .
ولم يشأ أن يطيل عذابه .. فقال له في رفق
— لا تنهني بسىء يالويس .. إنما أرجو أن تصفح عين
الألم الذى سأسببه لك .

فمشت في جسد روكاره شمربة خفيفة . وخيل كان بدنه
ينوء تحت حمل ثقيل

ولكن هذا الضعف الوقتى لم يدم إلا طرفة عين ..
ثم ملك الطبيب نفسه واستعاد سلطانه على عواطفه فطاعه الزمان
بمقوله :

— اعلم ما تريد أن تقوله يا جان . قد بلغت كل شىء
جاءنى خطاب مجهول . : من صديق مجهول . ذكر
نى فيه كل شىء

— ونكني سأظل صديقك المخلص الى الأبد يالويس واكثر
اخلاصاً لك من الصديق المجهول الذى عنه تتكلم .. ولذى
أبانتك الخبر بشىء من . بشىء من الخبث بغير شك .
فقال روكار .

— أبداً .. انه لم يرتكب أي خطأ انه ذكر الحقيقة بمجرد

وذا دليل كلم الله في الشعري
 وقوم عيسى أرادوا منه مائدة
 وعلل الله في القرآن ودم
 وقوم أحمد لما جاء ذكرهم
 وكان أعظم في الاسلام مرتبة
 وأى معجزة دامت مكلمة
 فلم يجبههم أمين الله مكتفيا
 وانظر كلام علي في وصيته
 وسائر الآل قداوصوا من العلم ال
 وأم موسى اطمانت حين ما طرحت
 أمثل هذا من التدقيق مكتسب
 ومريم حين جاء الروح في مثل
 بأى شيء من الاسباب نزها
 بالخوض في جدليات الاوائل أم
 ومثله في جريج والرضيع وفي ال
 وقتية الكهف فدقص الآله لنا
 هذى الخصاص والعقول نعمته
 فواضح العقل معروف وقامضه
 إن البصائر كالا بصار ليس ترى ال
 لذا تخاف أهل العقل واضطربوا

ووجهة الله في بعث اليامين
 ليطمأنوا بها لاوضع قانون
 لنا وعرفانهم بالسمع واللين
 أغنت طواميه عن ظل المساكين
 من كل ما مر في ماضى الاحايين
 لنا بكل المعانى والبراهين
 به إذا لم يكن فيهم بما مون
 ريحانة المصطفى خير الرياحين
 منصوب فينا إلى الهادى بصفين
 موسى بوحي وحق غير مظنون
 أم من ابانة قلب غير مأفون
 لها بسر من الرحمن مكنون
 في المهدى مزكى الذات ميمون
 بالاعتزال وذكر الله والدين
 أخذود وهى صحاح فى الدواوين
 حديثهم وأحاديث اليامين
 مبدولة بين مهدي ومفتون
 مواقف ومجازات لذى الدين
 خفى جدا سوى رجم وتظنين
 فيه كعادتهم فى كل مظنون

قلت ذا العلم من بعد الرسوخ به
 ما فيه الا عبارات مزخرفة
 كم من فتى منطقي الذهن ماخطرت
 وكم فتى منطقي كافر نجس
 يرى وساوس أهل الكفر منقبة
 كذلك الرسل لم يعنوا بذلك إلى
 بل اكتفوا بالذي في العقل مع نظر
 مع اعتراض شياطين الخصوم لهم
 وربما كان في التدقيق مفسدة
 مثل الغلو بافعال الجوارح كما
 والله أعلم والرسل الاكارم من
 شيوخ جبة (١) قطعاً غير تخمين

وانما ذكرت هذه الايات لانها لم تحفظ في غير هذا الموضع مع
 غرابة معناها فاني إنما أخذته من كلام أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم
 في كلامه المشهور لسكميل بن زياد حيث قال عليه السلام في وصف
 العلماء: هجم بهم العلم على حقيقة الامر فاستلنا وما استوعره المترفون ،
 وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ووجه الاخذ منه أن لفظ الهجوم إنما
 يستعمل فيما حصل دفعة واحدة موهبة من الله من غير كد الخواطر في الدقائق
 والتولج بالانظار في مضائق المزالق . وقال في ضياء الحلوم يقال هجم

(١) بضم الجيم وتشديد الموحدة قرية بالعراق منها أبو علي وأبو هاشم المعتزليان

نفسية المرأة

وَمُ يُجِدُ فِرْدِيَه بِدَا مِنْ اطَاعَتِهَا وَالنَزُولِ عَلٰى رَعْبِهَا .
فَقَصِدُ فِي التَّوَالِي عِبَادَةَ صَدِيْقِهِ دُوْنَ اَنْ يَفَكِّرَ فِي الْاَلَامِ الَّتِي
تَسْبِيْهَا اَصْدِيْقُهُ مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ

اِمَارُوْكَرَ وَاَنْهُ قَابِلٌ فِرْدِيَه بِمَا طَبِعَ عَلَيْهِ مِنَ اللُّطْفِ
وَدِمَائَةِ خُلُقِ . وَقَابِلٌ الدَّعْوَةَ بِهَدْوٍ لَا يَنْهَى عَنْ اَلَاَمِ فَفَسَّرَ فِرْدِيَه
عَاةً "رَرَر"

وَمُحْرَجٌ رُوْكَرَ وَهُوَ نَهْبُ الْاَلَامِ لِشَيْمِ صَدِيْقِهِ اِلَى الْبَابِ

الخارجي

وَمُحْدَمَا تَرَى طَا الدَّهْلِيْزَ الْكَبِيْرَ فَتُحِ فَتُحِ الْاَبْوَابِ
فِي حُوْنِ فِرْدِيَه رَأْسَهُ وَتُحِ بَصْرَهُ عَلٰى صَبِيْبَةٍ فِي مَقْبَلِ الْبَعْدِ .

نَحِيْحُ رَأْسَهُ اِلَى الْبَعْدِ فَتُحِ

فَاتُ مِيْنُ رَأْسِهِ اِلَى الْبَعْدِ اِلَى قَبْضِهَا بِفِيْمَا السُّهْرِ
فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي اَدْرَمَ نِيْمَ حَمَلَهُ لِرَفْعِهِ الْبَعْدَةَ . اِي الْبَيْتِ الَّتِي
عَرَفَ فِيهَا كَوَلِيَّتُ نِيْمَ مَرَّةً .

رَكَابُ اِمْتَا . رَأْفَةُ لِحَاةِ نِيْمَ مِثْلُ الْغَلَالَةِ .

كَابُ تَرَدُّدِهَا فِي لَيْلَةِ الْبَيْتِ . وَارْتِي كَابُ نَكْرُفٍ عَنْ سَاعِدِهِ .

كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)

ومما يقوى قول أهل الاكتفاء بالجل وطريق السلف قوله تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقوله تعالى (قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) وقد تقدم ذكرها وقوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فانه الظاهر من جهة البصائر الجلية الجملية والباطن من جهة الابصار والتفاصيل الخفية فلو خفي من الجهتين معاً لكان باطنا من كل وجه غير ظاهر من كل وجه ويوضحه من السنة على صحتها حديث (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) بل قد ورد القرآن بان ذلك هو الفطرة في قوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) ويؤيده ان من عاصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الكفار قد ذكروا فيه أنه ساحر وكرروا ذلك ولهجوا به فلم يحرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من أصحابه رضى الله عنهم جواب ذلك بذكر الفروق بين السحر والمعجز بل نظموا قولهم انه ساحر في نظام قولهم انه لمجنون وكذب ساحر صانه الله عن ذكر ذلك لعلمهم بتعمد الكفار للعناد والبهتان في جميع ذلك ومن ذلك اسمه تعالى الحق المبين فانه حق في نفس الامر مبین لكونه حقاً بمصنوعاته وألطافه في تعريف خلقه، كل بما يليق بحاله سبحانه وتعالى قالوا يقال للمخالف ما تقول اذا وردت شبهات الملحدين وقد ساعدك

الناس على اجمال النظر في علم الكلام وهل هذا الايكيدي في الدين

والجواب يتم بالكلام في مقامين

المقام الاول دفعنا للشكوك الواردة عن نفوسنا وهو أسهل المقامين
لانه لا مفزع حينئذ الا الى نظر العقل الخلق كاملا وامداد الرب له بالهداية
وهما حاصلان بفضل الله سبحانه من غير حاجة الى علم الكلام كما حصل للسلف
والذين ابتدعوا علم الكلام ولا يحتاج في هذا المقام الى تحسين العبارة
وقد طولت الكلام في هذا المقام في العواصم

وأربدنا وجهين: أحدهما ما ذكره السيد المؤيد بالله في الزيادات وقد تقدم
قريباً منقولاً بجر وفه وثانيهما أن المتصور ورده مجهول العين ويستحيل الجواب
التفصيلي على شبهة ترد في المستقبل مجملة لم تعين ولا يفتى علم الكلام هاهنا وإنما
ينفع علم الغيب، ومن الجائز بالاجماع أن ترد هذه الشبهة على دقائق
علم الكلام وتخير البرزفيه وتبليد المعجب به وربما تولدت من تدقيقه على
قدره وكان بالنظر فيه كالباحث على حثفه بظلفه

وبيان هذا أن مثل المستعد للشبهة المجهولة بتقديم النظر في الدلائل
مثل من يستعد للسموم القاتلة بشرب الادوية الحادة التي ربما قتلت شاربها
حين لا يجد ضدا يدفع طبيعتها ويستحيل تقديم التداوي من داء لم يتعين ولم
يعرف أهو من قبيل الحرارة أو البرودة أو غيرهما من الطبائع أو هو متركب
من الطبيعتين. وربما ورد داء يعجز عنه الطبيب الماهر باتفاق الاطباء
ولذلك تجرد أكثر الضالين في أنفسهم المضلين لغيرهم من أهل النظر
وأكثر أهل السلامة باقرار أهل النظر من أهل الجمل ولذا قال أبو القاسم البلخي
في مقالته في ذكر العامة هنيئاً لهم السلامة ومن ثم لم يرد عن الرسل عليهم السلام

الخوض الكبير في علمي الطب والكلام .

وخلاصة الكلام أنه لا بد من تجويز شبهة لم يتقدم تحرير جوابها وإن خاض في الكلام ألف عام وهذا متفق عليه فما كان أن يصنعه المتكلم والسلف صنعه كل مكلف

﴿ المقام الثاني ﴾

(في هداية الخصوم والكلام فيه من وجوه)

(الاول) أن الحجة عليهم لله سبحانه قد تمت قبل نصبنا ونصبكم للبراهين بما خلق الله لهم من العقول وأرسل إليهم من الرسل . وبين لهم ما في كتبه الكريمة من الأدلة ، فكما أنهم لو ماتوا قبل مناظرتكم لهم حسن من الله تعالى تعذيبهم لتقدم كمال الحجة عليهم . فكذلك يحسن مناقتهم وقتلهم قبل مناظرتهم . وإنما ورد في الشرع دعاؤهم الى الاسلام قبل القتال فلم يوجبها أحد بالاجماع . ومن جحد آيات الله وبراهين القرآن الجلية فهو لدقائق الكلام أم أجحد . ومن قبولها أبعد . ولكن المبطلين كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر واني لأظنك يا فرعون مشبورا) وقال تعالى (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) قالوا اذك لما قال لهم الكفار (إنا كفرنا بما أرسلتم به وإن لنفي شك مما تدعونا اليه مريب) وفي قول الرسل عليهم الصلاة والسلام (فاطر السموات والارض) تنبيهه على الدلالة على الله بذلك وأنه كاف لا يحتاج الى

زيادة عليه . فان كان مرادكم الفصل بين المختلفين وجمع ، كلمة العالم أجمعين ، فذلك غير ممكن لاحد من المخوفين . ولا يقدر عليه الا رب العالمين . كما قال سبحانه وتعالى في كتابه المبين (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد) ولهذا سمي الله تعالى يوم القيامة يوم الفصل الوجه الثانى أن فى المتكلمين من المعتزلة وغيرهم طوائف لا يوجبون النظر فى علم الكلام منهم أهل المعارف الضرورية ولا يلزمهم ترك النظر مطلقا فكذلك نقول فان قيل فيم ينظر الناظر (قلنا) فيما أمر الله بالنظر فيه وفيما نظرفيه السلف . وإن كان المنظور فيه أمرا ضروريا . فان معنى النظر فيه استحضار تصوره ودوام التذكر له وترك السهو والغفلة عنه ولذلك شرع الفكر فى الموت والمرض ونحوهما مع انها أمور معلومة بالضرورة فالغفلة عنها أقبح غفلة وأضرها قال تعالى (أولايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين وقال تعالى (قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) وقال تعالى (انظروا الى ثمره اذا أثمر ونعه) ومن ثم حسن الخبر بالموت بل دخول المؤكدات على الخبر فى قوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وقال (تعالى) ثم إنكم بعد ذلك لميتون) فان الاخبار بالمعلومات لا تصح ودخول المؤكدات على الاخبار بها لا يحسن لولا أنه نزل المخاطبين لشدة غفلتهم عن هذه المعلومات منزلة الجاحدين النكرين لها كما ذكره علماء المعاني فى قول الشاعر:

جاء شقيق عارضا رحمه ان بنى عمك فيهم رماح

وغاية ما اشتملت عليه كتب الدقائق المبكية والمواعظ المشجية هو التذكير بالضروريات فكيف يقال فيمن ترك النظر في علم الكلام والتعمق في دقائقه إنه يلزمه اهمال الفكر والنظر فيما ورد في القرآن والخبر والأثر ولقد صنف الجاحظ وهو ممن يقول إن المعارف ضرورة كتاب العبر والاعتبار فأتى فيه بما يقضى له بعلو القدر في العلم وتعمقه في التفكير في عجائب المخلوقات الضرورية وكذلك النظر في علم التشريح وعجيب خلق الانسان والتأمل لما يدرك من ذلك بالعيان ، وقد حث الله تعالى على النظر في المشاهدات قال تعالى (فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها) وقال تعالى (أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير) وقال تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) وقال تعالى (أولم يروا كم اهلكننا قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون) وقال تعالى (وأن لهم الارض الميتهة أحييناها وأخرنا منها حبا) الآيات وقال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها وأتق في الأرض رواسى أن تميد بكم) الآية

لكن المخالف يقول ان المراد بالنظر في هذه الأمور نظر مخصوص يبنى على مقدمات مرتبة مركبة تركيباً مخصوصاً على وجه ينتج العلم على سبيل الاختيار وغيره يقول إن المراد بالنظر الفكر الذي يهجم على القلوب بعد

صرف اليقين ورسوخ الايمان وتمعظيم المعبود أو اجدهما ويتفاوت
الحاصل من ذلك تفاوتاً لا يقف عند حد، وربما أبكى أو أفلق أو أصعق على
حسب حكمة الله تعالى فيما يهبه للعبد عقب النظر وعدم الاختيار فيه عقب
النظر وتفاوته معلوم - وعلى هذا ما قال الشيخ مختار بن محمود المعتزلي في كتابه
المجتبي في حد حقيقة النظر: انه تجريد العقل عن الغفلات . وحكى عن
شيخه محمود الملاحى انه لا يشترط في العلم بالله ان ينبنى على المقدمات
المنطقية والاساليب النظرية كما سيأتى ان شاء الله تعالى وكيف ينكر هذا
ويستبعد وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن الهدهد وهو من العالم البهيمى انه
وحد الله تعالى* واحتج على صحة توحيده بذلك حيث قال سبحانه كما يعنه
(ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض) يعنى المطر والنبات
فاحتج بحدوث هذين الامرين المعلوم حدوثهما مع تكررهما وحاجة جميع
الحيوانات اليهما مع أنه ما قرأ فى المنطق ولا عرف علم الكلام . وقد قرر الله
سبحانه وتعالى كلامه وحسنه ، فكيف لا يحسن مثله من انسان ناطق
عقل مكلف مخاطب . وسوف يأتي الدليل على بطلان قول من
تأول كلام الهدده وتوضيح الأمر فى ذلك قال الله تعالى « قتل
الانسان ما أكفره، من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره »
وحاصل هذا أن النظر عند أهل المعارف أو بعضهم شرط اعتبارى
ووقوع العلم واليقين بعده ، كوقوع الرقة والبكاء والخشوع ونحو ذلك مما
هو من فعل الله سبحانه وتعالى ، ونفعه معلوم وان لم يقع على ترتيب

أهل المنطق : ومستند العلم التجربة الضرورية فانه يقع للصالحين ممن لا يعرف ترتيب المقدمات بذلك النظر من اليقين والخشوع ما لا يقع للمتكلمين . بل قد قال القاسم عليه السلام ما رأيت كلاما يقطع له خشوع الجمل الجمل

وقد اشتملت خطب أمير المؤمنين ومواعظه وسائر الأئمة على أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطقيين ولا تقاسيم أساليب المتكلمين ودرج السلف على ذلك. وكان مما استجادوه وسارينهم قول زيد بن عمرو ان نفيل رحمه الله تعالى :

رضيت بك اللهم ربا فلن أرى	أدين إلهاً غيرك الله ثانيا
وأنت الذي من فضل من ورحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت لموسى اذهب وهرون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له هل أنت سويت هذه	بلا وتد حتى اطمانت كما هيا
وقولا له هل أنت رفعت هذه	بلا عمد ارفق اذا بك بانيا
وقولا له هل أنت سويت وسطها	منيرا إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له من مرسل الشمس غدوة	فيصبح مامست من الارض ضاحيا
وقولا له من نبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رايبا
ويخرج منه حبه في رهوسه	وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

فهذا أسلوب الانبياء والاولياء والأئمة والسلف في النظر. وخالفهم بعض المتكلمين وأنواع البتدعة ، فتكلفوا وتعمقوا وعبروا عن المعاني الجليلة بالعبارات الخفية، ورجعوا بعد السفر البعيد الى الشك والحيرة والتعادي

والتكاذب وقد اعترف أكثر المتكلمين بالوقوع في الحيرة والأموه
المشكلة المتعارضة فقال ابن أبي الحديد وهو من كبراء المعتزلة بعد عظيم
توغله في علم الكلام :

فاذا الذى استكبرت منه هو ا
فطلت فى تيه بلا علم
وقال الشهرستانى فى أول نهايته :

وقد طفت فى تلك المعاهد كلها
فلم أر إلا واضعا كف حائر
وقال الرازى فى مثل ذلك :

والعلم للرحمن جل جلاله
مالتراب والعلوم وانما
وسواه فى جهلاته يتغمغم
خلقت (١) لتعلم أنها لا تعلم

وله أيضا :

نهايات إقدام العقول عقال
وقال صاحب كتاب الامام :

تجاوزت حد الاكثرين الى العلا
وخضت بحارا ليس يدرك قعرها
ولججت فى الافكار ثم تراجع اخ
وللشيخ العارف القدوة عمر بن محمد السهروردى كلام جيد فى هذا

المعنى ذكره فى الباب العاشر من كتابه عوارف المعارف ومنه :

(١) الضمير فى خلقت للأجسام المخلوقة من التراب ، والمعنى ما للأجسام الترابية
المظلمة ودرك نهايات العلوم النيرة اه مصححه عيد الوصيف

ان الملك طاهر الكون، والملكوت باطنه، والعقل لا يدخل الملكوت ولا يزال مترددا في الملك، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية، والعقل لسان الروح، والبصيرة التي هي الهداية قلب الروح، واللسان ترجمان القلب. فكما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه. وليس كل ما عند الذي يترجم عنه يبرز الى الترجمان. فلهذا المعنى جزم الواقفون مع مجرد انقول العربية عن نور الهداية التي هي موهبة من الله تعالى عند الانبياء واتباعهم الصوان وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان، وحرمانهم غاية البيان اه مع اختصار بعض ما ذكره نفع الله بعلمه. وكلام هذه الطائفة في مثل هذا الكلام ذوق لاسبيل الى كشف صحته إلا بالتجربة. وهو نظير كلام الاطباء في الطب.

﴿ الثالث ﴾ أنها وردت نصوص تقتضي العلم أو الظن أن الخوض

في علم الكلام على وجه التقصي للشبهة والاصغاء اليها والتفتيش عن مباحث الفلاسفة والابتدعة المشككة في كثير من الجليات مضرة عظيمة ممرضة لكثير من القلوب الصحيحة. ودفع المضرة المظنونة واجب عقلا وقد شهدت بذلك التجارب مع النصوص وضل بسببه اثنتان وسبعون فرقة من ثلاث وسبعين فرقة وهذه الاشارة بالنصوص اشارة الى مجموع أشياء كثيرة:

(منها) النواهي عن البدع (ومنها) النواهي عن المراءمطلقا وهو

ما يظن أنه لا يفيد بخلاف المجادلة بالتي هي أحسن (ومنها) النواهي عن المرء في القرآن (ومنها) النواهي عن المرء في القدر خاصة (ومنها) النواهي عن التفكير في ذات الله تعالى (ومنها) الأوامر عند الوسوسة بما يتنافى طرائق أهل الكلام وفي ذلك خمسة عشر حديثاً في الكتب الستة ومجمع الزوائد أشرت إلى بيانها في العواصم (ومنها) أحاديث الإسلام والايمان المتواترة التي تقتضي قواعد الكلام منافاتها لإلزام التأويلات المتعسفة ويشهد لذلك من كتاب الله تعالى قوله تعالى «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله أنه هو السميع البصير» فهذا مطابق لما ورد في الحديث من الاستعاذة بالله تعالى عند السؤال عن الشبه وقال تعالى «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قدينا الآيات لقوم يوقنون» وقال تعالى «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ» وقال تعالى «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» ولم يقل بعد المتكلمين، والحمد لله رب العالمين* وكيف يطمع الجدلي في هداية المعاندين واعترافهم له، وقد حكى الله أصرارهم على المجاهدة بقوله (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين* ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) بل حكى الله سبحانه أصرارهم على الجحد والعناد يوم القيامة بما لا يمكن تأويله وذلك قولهم لجوارحهم حين جحدوا فأنتظها الله بالشهادة عليهم فقالوا لجلودهم لما شهدت علينا

قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . فمن بلغ هذا الحد في اللجاج كيف يجب في النظر الاشتغال بمناظرته بعد أن جحد الرسل وما جاءت به من آيين الآيات، ولعلم الله تعالى بذلك، قال لرسوله خاتم النبيين ومفحم المبطلين والحجة الكبرى على المعاندين صلوات الله عليه وعلى آله وعلى جميع النبيين (وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم * فان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون) وقال « فان حاجوك فقل أسأمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أتوا الكتاب والأمةين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » فهذه هي المجادلة بالتي هي أحسن الأمور بها وقد حكى الله سبحانه وتعالى مجادلة الانبياء في كتابه لأنواع الجاحدين فلم يكن فيها شيء يتوقف على معرفة دقائق الكلام والمتكلمين

وقد بسطت هذا المعنى في العواصم فمن لم تكفه هذه الاشارة فليطالعها هنالك والله الموفق وييده الحول والقوة

ولما فرغت من هذا القدر في هذا المختصر بلغنى سؤال يتعلق به من بعض المسترشدين فكملت بالجواب عليه الفائدة بمن الله تعالى ورأيت الحاقه به واتصاله لاثقا وهو هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي من علينا بالثأف بين قلوبنا بجامع الايمان ، وأمرنا بالتحاب والتعاون بقدر الامكان ، وخص من عموم ذلك ماورد من الامر بالانفراد في آخر الزمان ، رحمة للمؤمنين وتيسيرا من الرحمن، ونهانا عن التفرق في دين الاسلام والابتداع، وأنزنا الافتداء برسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأتباع ، خصوصا مذ قال

تنصيصا وتنبها (اليوم أ كملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) فكان في جوامع ما جاء به المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الزواج (لقد كان لكم في رسول أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) وأمره بالاعراض عن الجاهلين، ونزوه سبحانه للمقتدين من تكلف المتنطعين فقال حاكيا عنه (وما انامن المتكلفين) فمن لم يتكلم في الروح وقد عولت الخصوم عليه تعويلا، حتى نزل في ذلك (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) وربما ترك الجواب مع وضوح ما مثل عنه مما لا يحتاج، كراهية لما لا يفيد من الجدال واللجاج، كما فعل نبينا مع ابن الزبيرى عليه أفضل الصلاة والسلام وآله الكرام حين تعرض للقدح في كلام الملك العلام (هذا) وهو المبعوث رحمة للعالمين، والمنصوب لبيان مشكلات الدين، والموصوف بالخلق العظيم والمعالم انه على الصراط المستقيم، وتلته الصحابة رضى الله تعالى عنهم فأحسنوا في الاقتداء بخاتم الرسل وأقروا عمر بن الخطاب على مثل صيغة ابن عسل (١) انتهاء بنهيه وطاعة لأمره وخوفاً من الدخول في وعيد الذين يخالفون عن أمره، وكيف لا يحافظون على ذلك وقد قال سبحانه تبجيله وتكريما (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فلولاً ما استثناه الله سبحانه من المجادلة بالتي هي أحسن . على ما تبين من الآيات والاثار والعرف المستحسن .

لتركوا الجلي كما تركوا الخفي عملا باطلاق النهى الصادر من اللطيف الخبير . والصلاة والسلام الاتمان الا كملان على صاحب بيعة الرضوان

(١) كذا وفي أخرى بضيع بن عسل . وأخرى بن يصنع عسل اه مصححه

وعلى آله حماة الاسلام. والهداة الى الايمان، ما كرا الجديدان واعتقب الملوآن.
(وبعد) فانها لما وصلت إلى الاسئلة الخفية عن وجه تتجني لنا هج أهل
الكلام الخفية. صادفت منى قلبا قد غلق أبواب الدقائق. وترك الاستعداد
لللقاء فرسان هذه الحقائق. وصم عن الداعي إليها مسمعا. ولم يتمن ما منى
ورقة بن نوفل من كونه فيها جذعا. وكيف وقد رجحت الصوارف عنها
وجاء المثل: حسن قدح ليس منها. ومن أعظم الصوارف دنوا الاجل، والههم
بالاستعداد للقاء الله تعالى عز وجل، فان لكل مقام مقالا. ولكل حال
أعمالا. وإن كنت لم أفعل جميع ما وقع به الاهتمام. وما أملت إيثاره
بين يدي الحمام. فالهم القوى كاف في الصرف عن الاقبال. فكيف وقد
تشاغلت ببعض ما تعلقت به الآمال. وتعلت على أكرم الاكرمين وأرحم
الراحمين بالوقوف في أبوابه. ومداداة قاسي طباعي بلطيف خطابه. وإيثارى
في خاتمة عمرى لسنة رسوله وكريم كتابه، ثم لزم البيت وآثرت
الحوال. وتركت لو تركت الفضول. وتمثلت بقول الزمخشري رحمه الله
حيث يقول:

أطلب أبا القاسم الحوّل ودع	غيرك يطلب أسامياً وكنى
شبه ببعض الاموات شخصك لا	تبرز إن كنت عاقلا فطنا
علك تطفىء ما أنت موقده	إذ أنت في الجهد تخلع الرسنا
إدفنه في البيت قبل ميته	واجعل له من خموله كفنا

وعملت على كلام السيد العلامة الامام المؤيد بالله في استحباب ترك
مالا احتاجه من الخوض في علم الكلام. وترك احتجاجي بما لا ينازع فيه عاقل.

ولا يخالف فيه الا جاهل أو متجاهل ، من ايثار الضروريات اليومية على الحاجات الاملية ، فان الضرورية بلا قيد أقدم من الحاجة . كيف إذا تعيدت الضرورية وتضيقت . وتأخرت الحاجة وتوسعت . وعلى ذلك درج السلف الصالح ، ومن اقتدى بهم من المناظرين في ترجيح متعارضات المصالح * ومن الصوارف عن ذلك شدة المحبة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم . وعلى ذلك من الاثر ما لا ينكره منصف ولا يجحده الامتعسف . ولا شك أن كل مسلم يجب كلام الله تعالى ويعظم كلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن للمحبة والتعظيم مراتب متفاوتة ومعامات متباينة . ولا ريب أن بعض الفنون أحب إلى بعض الناس من بعض . بل بعض كتب الفن الواحد أحب إلى بعض أهله لما فيه من الخواص وإذا علمت بأنه متفاضل فاشغل فؤادك بالذى هو أفضل

وقد وضعت كتابا في تفضيل الاقبال على هذين العمودين والاستضاءة بأوار هذين النيرين . وذلك من دلائل شغفي بهما ، وذى لمن استقصر قدر معارفهما ، وبغى سبيلهما عوجا ينفر عنه قاصديهما ، ومن ولع بشيء ولع بتمهيد الوسائل اليه ، وقطع شبه الصادقين من التمويل عليه ، ولم يكذب ينتفع بسواه ، ولا يهتدى إلا بهداه ، وهذا معروف في طبائع المخلوقين ، كما قال بعض الحميمين :

ولو داواك كل طيب داء بغير كلام ليلي ماشفاكا
فاذا تقرر هذا في غير حب الله سبحانه فالذين آمنوا أشد حبا لله
وسياتى كلام الهادى في الحث على ذلك ، والتفضيل لهذا المسلك على

سائر المسالك ، وخشيت أن أقطع العمر في الوسائل وما وصلت الى المتوسل اليه ، وتوقفت في العوائق والعياذ بالله عما لا يعول إلا عليه ، فأكون ممن بالغ في الوضوء وابتدع ، حتى خرج وقت الصلاة وضاق عليه ما أتسع * وقد رأيت الزمخشري رحمه الله خص هذين العاملين الشريفين بالتوسل بهما الى الله سبحانه في رقائيق أشعاره ولم يذكر في توسله غير الكشف والفائق من محاسن علومه وآثاره فأحبت أن أختم عمري من طيبهما بما هو أحسن من ختام المسك . وأستحضر من مقدماتهما ما ينتج الرفق والنسك ، وقرعت في أوقات الرقة أبواب المنح ، ومن دق باب كريم عليه فتح ، ولا ينبغي أن يضرب عما عن ويختب في الحديث (يستجاب للعبد ما لم يقل قد دعوت ودعوت فلم أجب) ولا يرد على هذا مناقضته بسوء ما أنا عليه من الحالة بالنظر الى الاخبار . فذلك هو الموجب للاهتمام باقرب الطرق إلى النجاة من النار ، والتشبه بما كان عليه الابرار من العزلة والفرار . والاشتغال بالقراءن والآثار . والاذكار والاستغفار . بلسان الانكسار والاضطرار :

وهم الاساة فناد في عرصاتهم أضحى بيا بكم العليل فرضوا

ومن الصوارف عن ذلك ، الموعرة لسلك هذه المسالك ، عدم وجدان الصديق الصدوق البرى من الحفا والعقوق ، القام بما لا أخوة من اللوازم والحقوق ، ميمون الخلائق ، مأمون البوائق ، رباني المهمة رهبانيتها ، برهاني المعارف قرآنيها

صموت إذا ما الصمت زين أهله وفتاق اكمام الحديث المحكم

وعى ماوعى القرآن من كل حكمة ونيطت له الآيات باللحم والدم
وما تركت الطلب حتى طال ارتيادى له بالجد والجهد . فكنت كلما
وجهت أملى الى وجهة لم ألق إلا بنى سعد لعدم الحظ لا لعدم المطلوب . فكم فى
الباب من علم منصوب ، ووجيه محبوب . وصادق مجذوب . حتى
عاد البصر خاسئاً حسيراً . كأنما سمته أن يرينى فى خلق الرحمن تفاوتاً وافتورا .
ولا منى فى الطمع كل عارف نصيح ، وأنشدونى فى ذلك كل قول فصيح
ومعنى صحيح : فن ذلك قول الزمخشري :

تيممت أسأل من عنلى من الناس هل من صدوق صديق
فقالوا عزيزان لا يوجدان صديق صدوق ويبيض الانوق
وقول الآخر :

صباد الصديق وكاف الكيمياء معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وكم سعى لهما قوم وكم جهدوا فما أظنهما كانا ولا اجتماعا
وقول الآخر :

من لك بالمهذب التذب الذى لا يجد العيب إليه مختطى
وقول الآخر :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب
وقول الآخر وهو الذى اطرب الرشيد :

غد يرى من الانسان لا إن جفوته صفا لى ولا إن صرت طوع يديه
وانى لمحتاج إلى ظل صاحب برق ويصفو ان كدرت عليه
وأحسن منه :

ومن عدم الانصاف أنك تبتغى الـ مهذب فى الدين ولست المهذبا
ومازلت فى زمن الحدائه وايام الغزارة أسد سمي عن كل نصيحة.
وأرد بطبعى فى هذا كل حجة صحيحة، وحبك الشئ يعنى ويصم . ولا ينجو
من الهوى الامن عصم . حتى اسفر لى وجه الخبرة عن أحوال الرجال . فنادى
مؤذن التجارب الصلاة فى الرحال، وأمر الفصحاء برفع الاصوات بالندارة
من كل منارة، فتارة وعيت، فتول عنهم فأنت بملوم (واذكر فى الكتاب
مرم إذا تبتذت من أهلها مكانا شرقيا . وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا
الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمرهم مرفقا)
وتارة أسمع (يوشك أن يكون خير مال الرجل المسلم غنم يتتبع بها شعف الجبال
ومواقع القطر . يفر بدينه من الفتن ، إئتمروا بينكم بالمعروف وتناهوا عن
المنكر حتى اذا رأيت شحاطعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل
ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة واعتزل تلك
الفرق كلها . ولو أنك تعض على جذر شجرة حتى يأتيك الموت وأنت
على ذلك . والزم بيتك وخذ ما تعرف واترك ما تنكر . ليسعك بيتك
وابك على خطيئتك)

وتارة أتأمل قول على عليه السلام : ووالله لولا رجائي الشهادة عند
لقاء عدوى لو قد حم لى لقاءه لشخصت عنكم ثم لا أسأل عنكم ماختلف
جنوب وشمال، وشاع هذا المعنى وذاع . حتى نظمه البلغاء على أساليب
تهنئها الطباع . وتلتذ بها الاسماع . مثل قول بعضهم :

كيف التخلص والبسيطة لجة والجواسم بالمصائب مشجم

أسرج وألجم في الفرار فكلهم
فيما يسوءك مسرج أو ملجم
وقوله :

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر
أقاربك الأذاني واحذرني
صديقي ماهويت لك اقترابا
وصنتك عن مخالطتي فصنني
وقوله وأجاد فيه :

وماعت وردى لارتواء وجدته
بنفسي ولسكن المياه أجون
فلا تشغلني بالحديث وخلي
وأشجان قلبي فالحديث شجون
فعمدت على ذلك اعتقادي . وعزمت على لزومه بعد أن همت في
كل وادي (١) وقنعت من الغنيمة بالأياب . حتى سلمت في سفري من الذئاب
المدلسة بلبس الثياب . وانها والله بدليل العقل والحس ، أخبت نوعي هذا
الجنس . لا سيما من كان ظاهره بالزهادة متغليا . وباطنه من حلية
الإخلاص متغليا ، وقد أبدع الزمخشري وأجاد في قوله في هذا الجنس من
العلماء والزهاد :

إني على ما أراكم لا أحذرکم
معرة اللص (٢) والاکراد والفسقة
لكن أحذرکم من ينبری لکم
في هيئة الزهد لكن همه السرقة
صلاته الریح والتسبیح أسهمه
وصومه سيفه والمصحف الدرقة

فبقيت في هذه المدة المديدة سنين عديدة .

قد اعترلت الراضی جانباً
والناصبي والمجترى والمجبر
واعترضت عن خطاب كل جاهل
خطاب فكري أو خطاب دفتري
وقلت لا تقتریا في خبری
فقد نبذت كل خل مقتر

(١) أثبتت ياء المنقوص للسجع (٢) وفي القاموس أمره سلبه ماله اه مصححه

وقد قلت في ذلك محييا على من لاموعاب ، من الاهل والاحباب
 لامنى الاهل والاحبة طرا في اعتزالي مجالس التدريس
 قلت لاتعدلوا فما ذاك منى رغبة عن علوم تلك الدروس
 هي رياض الجنان من غير شك وسناها يزرى بنور الشمس
 غير أن الرياض تأوى الافاعي وجوار الحيات غير انيس
 حبذا العلم لو أمنت وصاحب مت إماما في العلم كالقاموس
 غير انى خبرت كل جليس فوجدت الكتاب خير جليس
 ورضيت المروى عن جدى القا سم من جامع علوم الرسوس
 فدعونى فقد رضيت كتابى عوضالى عن أنس كل أنيس
 ولملم أسلم من القيل والقال ، بعد الفرار والاعتزال ، أعجبنى أن أصل هذه
 الايات بقول من قال :

لو تركنا وذاك كنا ظفرنا من أمانينا بعلق نقيس
 غير أن الزمان (أعنى بنيه) . حسدونا على حياة النفوس

وهذان البيتان زادهما قائلهما على قول بعض العارفين :

ان صحبنا الملوك تاهوا علينا واستبدوا بالرأى دون الجليس
 أو صحبنا التجار عدنا إلى اللوم وصرنا إلى حساب الفلوس
 فلزمتنا البيوت نستعمل الحب رونظلى به وجوه الطروس
 ونناجى العلوم فى كل فن عوضا عن مناديات الكؤوس
 وقنعنا بما به قسم الا ولم نكثر بهم وبؤس

وفى هذا المقام بنيت دور المنى ، وثبتت بيدور الهنا ، وفطمت نفسى عن
 الطمع فى الناس ، حتى طعمت لذة الياس ، ولم أقل :

ولا بد من شكوى إلى ذى حفيظة يواسيك أو يأسوك أو يتالم
ولكن قلت إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وأقبلت على ربي وحده
بكلى وأخلصت له تفويضى وتوكلى
وكاد سرورى لا ينى بندامتى على ماضى من عمرى التقدام
ولما عز على حق الولد أيده الله لحسن أدبه فى سؤاله، وأكيد محبته
وأهله لمحمد وآله، وطول غربته فى طلب العلم بالجهد، ولطيف نظره فى
مواضع النقد، قسرت طبعى على الجواب. وإن قل فيه الصواب. فما يكاد
المكره على الأمر يوجد فيه ويحقق. ولا يعلو فيه ويحلق. ولكن الخيرة فى
المكاره. ومن ثم جرت البركة فيما عملت وأنا كاره. وقدمت من صفة
حالى فى مقام الدقائق ما لا يلىق بخوافيه، إذ كل إناء يرشح بما فيه، ولن يخلو
ذلك من شبه إن عدمت المناسبة لأعدل بذلك سواء الجدل وقساوته.
وغلظته وجفاوته، إذ كانت كراهة القسوة المحضة قد تمكنت من قلبى تأتماً
وبغضة، وكى أعذر فى التقصير. حين أمشى فى هذا الميدان بالباع القصير.
قائلًا له أيده الله تعالى حين بان عن ملائمة حالى وبعد، زادك الله حرصاً ولا تعد
كراهية منى المرأ لا تبلىدا وتعرف ما عندى بومض حرابى
وملء جفون العين للحل مقنع كملء جفان أو كملء جوابى
وما يلام الامن تترك للقصور من الخير وان قل، وعاند الحق وان جل،
وأعوذ بالله من العناد، وأسأله السداد، ولا بد قبل الجواب،
وبعد خطبة الكتاب، من الايماء إلى أمر لا يخفى على ذوى الالباب.

زائد على ما في المبتدأ من التنبيهات . الذي كان يطرد الولد أيده الله فيه أصل البحث عن هذا السؤال . مثل التحذير من إفتاء الرد والقبول وترجيح العوائد على أدلة المعقول والمنقول وذلك أن الخلاف بين الخصمين إذا كان في الأمور الخفية، لم يحسن من واحد منهما أن يتهم الآخر بالعناد والعصية ووجب اجتناب ما يدل على ذلك من التلون في العلل وإنكار المعلومات لأقامة العدل، فإن حصل الاتفاق مع لين الجانب وسهولة الاخلاق والاحتجاج إلى حاكم يقطع الشجار غير متهم بشيء من الجهل والهوى والاستكبار، والاعتذار بالطبع المحبول على الاحتقار بمن جاء بمافية أدنى استنكار . الا ترى أن داود عليه السلام لما أخطأ في التأويل وكان هو الحاكم والمرجوع اليه في التنزيل علم الرب اللطيف سبحانه وتعالى أنه قد تعذر على خصمه التوسل إلى عتابه، والتوصل إلى الاتصاف من عزيز جنابه، فأرسل الله تعالى ملائكته فتلطفوا حتى حكم بالظلم على من فعل مثل فعله وانطلق بالتصريح بذلك مسرعاً اليه بمحض عقله وعدله، ولو سئل عن ذنبه بالتصريح ولم يتوسل اليه بذلك التدريب والتلويح، عارضه بمعلق بطباعه من تمهيد له عذره بالتأويل المرجح له ما كان من أمره فلم يثو من أن يبطله بالافرار ولا يبادر بالاعتراف حق البدار وأصرح من ذلك وأولى بالاعتبار، ما قصه الله سبحانه علينا من استنكار كلمته لما فعله الخضر عليهما السلام بعد الاخبار والاعذار على أن المخبر له بتفضيل الخضر عليه السلام هو الصادق الذي لا يجوز عليه الخلف في الاخبار ما ذلك إلا لغلبة الطبع البشري لما يطرأ عليه من المعارف المخالفة لحيلته البعيدة عن مألفه وعادته فكيف لا يتهم المصنف

نفسه ، ويوقظ للاحتراز من هذا الطبع القوي حسه ، ولا يأنف ان طلبت منه البينة على أقواله والمحكمة إلى خير أجناسه وأمثاله *

ولما طلب الامام المهدي علي بن محمد للمناظرة والاختبار ، طلب البداية بنصب حاكم يقطع الشجار عند اختلاف الانظار ، وقد تنازع على عليه السلام وأخوه جعفر بن أبي طالب الطيار مع الملائكة الكرام وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما اعترف أحد منهم لخصمه بعد أن أدلى كل واحد منهم بحجته ، بل بقى كل على استرجاح حجته حتى حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحكمه وأثنى على كل واحد منهم بفضله فقال لعلي عليه السلام (أنت منى وأنا منك) وقال لجعفر عليه السلام (أشبهت خلقى وخلقى) وقال لزيد رضى الله عنه (أنت أخونا ومولانا) وهذا مما اتفق على صحته من الاحاديث فلم يكن فى بقاء كل على حجته بعد سماع حجة خصمه ما يدل على عناد ، ولا أطالوا الخوض فى المراءى على جهة اللجاج ولا على جهة الاسترشاد * أما المراءى فانه لا خير فيه لانه اسم لما نطن أنه يفيد ، وأما الاسترشاد فانه عبارة عن طلب الرشاد ، وهو يحصل فى الظنيات باول اماراة ، والاشارة تعنى فيه عن تطويل العبارة ، والمراد من كل واحد ما قوى فى ظنه . ورجح فى فهمه والتكثير عليه بعد ابدائه لمستنده وابقائه عليه خروج عن منهاج السلف الصالح ومخالفة لاجماعهم العقلى فى هذه المسالك ، وقد يقوم الود والعدل والتناصف والعقل إذا صفت مواردها عن أكدار المعارضات . وأشرب الخصمان حب النظافة من ردائل القرائن المنفرات . مقام الحاكم العادل الجامع

الكامل فلا ينبغي حينئذ أن يكون أحدهما صاحب قطيعة ولا ريبة؛ فضلا عن أن يكون صاحب بغض وغيبة، ولا يكون أحدهما صديقا لعدو ولا عدوا لصديق ولا مجهول الخبرة محتاجا إلى تعديل وتوثيق، ولا منقطعاً إلى خصوم صاحبه في ليله ونهاره ومحله وقراره وتدريبه في العلم وانظاره.

ثم لا يجوز أن يحكم وهو غضبان لأن الحكم في الأديان أكد من الحكم في الأموال والأبدان وقد علم جرح الثقات بالتهم والإحسان هنالك وإن خفيت في الدلالة عليها المدارك وعلى طالب العلم الصادق حين يخلو من الخصومة ويريد أن يحكم بين المتخاصمين كالناظر بالانصاف في مقالة أبي هاشم والامام يحيى وأبي الحسين وابن تيمية وأتباعهم من الطوائف في الأكوان أن ينزل نفسه منزلة الحاكم بينهما بالعدل فلا يحكم لأبي هاشم حتى يطب مذهب الامام وأبي الحسين كطلبه (١) ويعمن النظر في مصنفات كتبه ويتعلم ذلك بالقراءة على أئمة مذهبه ويعتبر ذلك بحاله في مذهب أبي هاشم فإنه أول ما خلق كان خاليا من معرفة صحته واعتقاد قوته حتى قرأ في كتبه على رجاله، وقطع عمرا في تعرف قواعد أقواله. فصادف قلبا خاليا فتمكنا، فلا بد أن يكون في قلبه بطبع البشر ميل إليه، وتعويل عليه كما تقدمت الإشارة إليه في قصة الكليم مع الخضر عليهما السلام وقرينة هذا أنك ترى الطائفة العظيمة في الأزمان الطويلة على مذهب بعض التكمليين في المشكلات الدقيقة والمعضلات العويصة لا يخالفه منهم

(١) أي لمذهب أبي هاشم يريد أنه لا يحكم بالترجيح بين الثلاثة إلا بعد اطلاعه وفهمه لمذاهبهم ضرورة أن الحكم على الشيء مطلقا فرغ تصويره اهدم صححه عيد الوصيف

ناظر مدقق، ولا يميل عنه في جميع خفيات مداركه محقق، مع مخالفة من هو أعلم منهم له وأخص منهم به كوالده الشيخ أبي علي فإنه كثير الخلاف لوالده الشيخ أبي هاشم، ماذا ك الاخروج شائبة التقليد من بينهما. ودخولها من غير شعور على من دونهما. ولذلك ترى أكبر العلماء الشيخوخة مختلفون كثيراً. وألوف الألوف من الأتباع على منهاج رجل واحد لا يخالفونه يسيراً بل يجتمعون على لوم من خالفه . ودم من نازعه *

واعلم يا ولدي أنني كنت مثلك طالب علم صغير السن ، كثير الجدل . قليل التجارب ، وما كنت مثلي طالب سلامة كبير السن قليل الجدل طويل التجارب . وأعني بقولي طالب سلامة . أنني غير ملتفت إلى غيرها من الفوائد على حد قول القائل « رضيت من الغنيمة بالاياب » ولذلك قيل « طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم » والمجرب لا يعدل بالسلامة ولا يرتاع من عدوان الظلامة والملامة ،

ومن كملت فيه النهي لا يسره نعيم ولا يرتاع للحدثان فأنت في مناظرتك تطلب مني تجريب المجرب . ومالي داع بعد تقديم تجربتي إلى تجريب لولا محبة الاسعاف لك على سبيل التقرب إلى الله تعالى والتقريب . وربما انتفع غيري وغيرك بما داريني وبينك وقد أحسن من قال في طلب المآرب

* أرى غفلات العيش قبل التجارب *

وسوف إن طال بك الزمان ، وجمعت بين البرهان والقرآن ، والاختبات إلى الرحمن والزيادة في الايمان ، تذكر ما قلته ذلك من الفرق بين الحاليين ، والتمييز

بين المقامين ، وهذا مقام لادليل فيه التجربة المنزهة معارفها عن طرو
الشبه ، وهو مقام الرياضات والتجربيات ، وهى أحد أقسام العلوم الضروريات
والمدارك العقلية ، يختص بعضها عن اختصاص به من العقلاء كـ بعض التواترات
والكلام فى هذه الامور وإن طال ، فهو مناسب لمتقضى الحال ، فانه أيدته الله
طول وكثر فى السؤال ، مع أنه من فرسان هذا المجال ، والعارفين بما يحل
به الاشكال ، وحينئذ عرفت أنه أراد بسؤاله (١) ما أرادته من قال :

نحن أدرى وقد سألنا بنجد أقصير طريقنا أم طويل

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تليل

﴿السؤال الاول عن مرادى بقولى﴾ * :

أصول دينى كتاب الله لا العرض وليس لى فى أصول بعده غرض
وقد طول أيدته الله فى التفاسيم وابراد الادلة على كل ما يمكن ذكره وكان
يكفيه فى ذلك سؤال الاستفسار ، وهو أول ما براد عند النظر ، وتطويله أيدته
الله فى ذلك مما أفاد فيه وأجاد ، ودل على ماله من الانتقاء والانتقاد . لكنه
فى غير محل النزاع ، وفيه تعريض بانكار منكر لجميع تلك الأنواع ، كما ذكره
أهل علم المعانى فى دلالة دخول المؤكدات فى الاخبار ، على أن المخبر بذلك من
أهل الجحد والانكار

ومع تطويله أيدته الله فى السبر والتقسيم ، وتوكد كانه فى ملاحظة كل
صحيح وسقيم ، فانى أعاتبه فى ترك جليات المحامل الجميلة ، التى بها تنقطع
الخصومة بيننا فى هذه المسئلة الجميلة مع انها أجلى من أن تخفى على من

(١) أى السؤال الاول عن المراد بقوله عليه السلام أصول دينى كتاب الله الخ .

عرف بعض ماعلمه الله سبحانه وسلك سبيله التي طلب فيها أن
يرضى الله تعالى *

وبيان ذلك أن الاشكال انما نشأ من اعتقاده أن اللام في العرض
لا تقيد شيئاً غير العموم ، من جميع فوائد المنطوق والمفهوم ، وهو أجل
من أن يجهل احتمال خلاف ذلك عند جميع أهل العلوم * فان للام أربعة معان
مشهورة عند أهل العربية والمعاني والبيان وأوضحها وأشهرها وأثبتها
وأكثرها (افادة العهد) التي قصدته في أبياني ، ودلت عليه القرائن من
كلامي وغير كلامي ، وقد تكون (للماهية) كقولنا الرجل خير من المرأة

وقد تكون (بمعنى النكرة) حيث يكون لمعهود في الذهن وليس بمعهود
في الخارج ولا هو للماهية كقول القائل أدخل السوق فانه لم يرد للماهية
لانها لا تدخل ؛ ولا أراد كل سوق ولا سوقاً معيناً فهو في معنى النكرة

وقد تكون (للعوم) على اختلاف كثير في ذلك وهو رابع معانيها
وأخفاها حيث اختلف فيه أهل العلم عامتهم وخاصتهم من جهتين
أما العامة فانهم اختلفوا هل للعموم صبغة تخصه أم لا ؟

وأما الخاصة فان المثبتين لصيغ العموم اختلفوا هل تقيده مع دخولها
على الجمع ذكر ذلك الجويني في كتابه البرهان ، وتقصى الخلاف في ذلك
السبكي في جمع الجوامع ولفظه : أوجز ماعلمت في هذا فلنكتف به

قال فيه . واجمع المعرف باللام للعموم ما لم يتحقق عهد خلافاً لابن هاشم
مطلقاً ولا امام الحرمين اذا احتتم معهوداً . والفرد المحلى مثله ، خلافاً

للإمام مطلقاً ولإمام الحرمين إذا لم يكن واحده بالثناء اه ويعنى بالمحلى :
المحلى باللام أى المعرف به وبالامام : الفخر الرازى
ولنجم الدين فى كلامه على مقدمة ابن الحاجب اضطراب فيما تفيد
اللام الجنسية وكلام مختلف ومناقشة لابن الحاجب ، وهذا أجل ما يحتمله
كلامى ، وهو المحمل الاول فان قلت هذا صحيح إلا أنها لم تدل عليه قرينة
فالجواب من وجوه : أحدها أن القرينة على ذلك ظاهرة من كلامى وكلام غيرى - أما
من كلام غيرى فان العرض الذى جرت عادة المتكلمين باختصاصه واختياره
للاستدلال هو العرض السكونى دون السمعى والذوقى والوئى *

والسكونى هو المنتقسم إلى الحركة والسكون والاجتماع والافتراق
والسكون المطلق ، وزاد أصحاب أبي الحسن فيه البعد والقرب ، فهذا الجنس
من الاعراض هو المذكور فى صدر كل كتاب من كتب الكلام حتى
فى المختصرات كالمسائل الثلاثين ، وحتى ذكره أيدى الله فى أسنائه هذه
المختصرة وبخصه بالاحتجاج به دون غيره كما اختصه بذلك سائر المتكلمين
حتى ذكر ابن متويه فى المحيط سؤالاً فى ذلك ، فمن لفظه فيه . قوله
فهل سلكتم فى ذلك غير الدلالة التى تذكرها مشايخكم من البناء على
الدعاوى الأربع ، وإذا أيتم إلا أن تصدروا الكتب بذكرها فما فيها من
زيادة الفائدة على غيرها إلى آخر ما ذكره ، وإنما قصدت الاستشهاد بكلامه
على ما ادعيت من أن دليل الاكوان هو المهود فى الاستدلال بالاعراض
على حدوث الحوادث ، وأما ما يدل على ذلك من كلامى فهو انى عطف

الكلام على هذا البيت بالاسئلة القادحة في دليل الاكوان بخصوصه .
ولو أردت ابطال جميع الاعراض وهي عامة لم يكف بطلان بعض خاص
منها، ولا يخفى مثل ذلك على أحد، ويسمى هذا الجنس من الأعراض
بالاكوان لانه مأخوذ من كون الجسم في المكان *

﴿ المحمل الثاني ﴾ ان أكون ما أردت العهد بادخال اللام على اسم
الجنس فانه لا يتعين التعميم بذلك ولا يتبين لان شرط التعميم في ذلك عند من
ذهب اليه أن يكون في الاثبات دون النفي ، لان قولنا ماجاء الرجال
لا يفيد أنه ماجاء رجل واحد وإنما يفيد نفي المجيء عن جماعة الرجال
بخلاف قولنا جاء الرجال بالاثبات، وهذا واضح، وقد نص عليه البيضاوى
في كتابه المنهاج في أصول الفقه * وذكره أهل المعاني والبيان الا في
صورة واحدة وهي اذا تقدم لفظ كل مضافا الى مفرد مثل كل رجل لم
يقم، فانه يتوجه الى الافراد دون الشمول ، بخلاف ما لو قدم النفي فقلنا لم
يقم كل رجل فانه ينصرف الى الشمول ولا يدل على انتفاء المجيء عن
كل فرد، وقد اضطرب صاحب التلخيص في الفرق بينهما، وتوهم بعضهم ان العلة
مجرد تقديم المسند اليه وتأخير النفي وليس كذلك فانك لو قدمته وجعلته جمعا
لا تنصرف الى الشمول كقولنا كل الرجال لم يقوموا، وانما هو عرف لغوى
مقيد بقيدين أحدهما تقديم المسند اليه ، وثانيهما افراده مؤكدا بكل
وأحسن ماوجه به أنه حينئذ نفي لفعل الكل أى لفعل كل واحد
وقولنا لم يقم كل أحد نفي الكل عن الفعل . وهذا الثانى، هو الذى دل
عليه الباب لم يخرج منه الا تلك الصورة الواحدة وجميع الامثلة وان

كررت من هذه الصورة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم (كل ذلك لم يكن)

وقول أبي النجم

قد اصبحت أم الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

يرفع كل ولو نصب انصرف الى الشمول كانه يخص المبتدأ والخبر

وكذلك يجب افراد الخبر من قولنا كل رجل قائم ويمتنع قائمون

وهو يحتمل زيادة في النظر والله الفتاح ومنه :

ما كل ما يمتنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن

ومنه ماجاء القوم كلهم ولم آخذ كل الدراهم وكل الدراهم لم آخذ ، النفي فيه

متوجه الى الشمول خاصة كما قاله عبد القاهر ، وقولنا ماجاء القوم كلهم ممانص

عليه عبد القاهر وهو نظير قولي لا العرض متى كان بمعنى الاعراض

كلها الا انى لم أو كده بكل ، وكل في هذا الموضع للتوكيد لا للتأسيس قطعاً

وفاقاً لانها متأخرة فلا يحل سقوطها بمعنى ما قبلها ولا بغيره بدخولها

قال صاحب التلخيص ويفيد (يعنى نفي الشمول) ثبوت الفعل أو الوصف

لبعض أو تعلقه به ، وقد نقل الجويني في باب العموم من البرهان عن سيديويه

أنه يجوز ان يقول مارأيت رجلاً قائماً وإعمارأيت رجلاً ، وهذه الصورة التي

جوز سيديويه فيها ما يجوز هي أصرح عموم النفي فكيف ما نحن فيه

ويوضح ما ذكرت انك إذا قلت في النفي ماجاء رجل أفاد العموم

فاذا جعلت الرجال موضع رجل تغير المعنى فيتغير العموم وقد ذكره

مختار في المجتبى وقال هو مثل ماجاء عشرة رجال لا يفيد نفى مجيء التسعة
فما دونها وأجاب عن قوله تعالى (لا تدركه الابصار) بان العموم مستفاد من
معنى المدح كقولنا فلان لا يفعل القبائح فانه يعلم من معنى المدح انه
لا يراد أن يفعل بعضها

﴿ المحمل الثالث ﴾ لو قدرنا انه لم ترد اللام الا للعموم وانه في كلامي
يفيد العموم بالاجماع فلا شك ان العموم يختص بالقرينة ولا سيما الجلية
المتصلة به ، وفي كلامي قرينتان لذلك ، احدهما ما قدمته من عطفي على
ذلك بالاحتجاج على بعض أنواع الاعراض ، ولا سيما أن تلك الاعراض
التي ذكرتها هي المهودة المشهورة *

فالتخصيص بها كثير قريب حتى منعت الحنفية من ارادة
غير المهود كما هو مذكور في موضعه من كتب الاصول ، وثانيتها
تقدمي الاحتجاج بكلام الله وهو من الاعراض فانه ظاهر
في ان قدحى في بعضها وإن اثبت بلفظ عام كما يعرف ذلك في قول من
قال: ربي الله لا إله إلا هو أو قال الله ربي لا الارباب ، أو قال أهلي بنو هاشم
لا الناس وامثال ذلك فهاتان قرينتان قد حققنا هذه اللفظة الضعيفة
الدالة على العموم أولاً وآخراً كيف مع ما حفاها من القرائن من بين يديها
ومن خلفها ومتصلابها ومنفصلابها

ولقد وجدت أيدك محملاً سائغاً للامام يحيى بن حمزة المؤيد بالله في قوله ان

اجماع التأخرين لا يصح مع أنه قال لا يصح قطعاً بالضرورة على جهة التحقيق هذه ألفاظه عليه السلام في كتابه المعيار، فأمكنك تأويل القطع والضرورة والتحقيق بالتجاوز بها عن الاستبعاد الذي ليس بحجة عند أحد من المحصلين كما سيأتي، وما أمكنك أن تصرف كلامي عن جهة العموم والشمول والاستغراق المحقق بوجه من وجوه الاشتراك الذي في اللام ولا وجه من وجوه المجاز الذي يدخل العموم المجمع عليه وأنا أخرج الى الحمل على السلامة من الامام عليه السلام وان كان أحق به مني، وذلك لنقصاني وكاله وكون الكل حامله على السلامة مسلماً له منصبه من كمال مناصب العلم والامامة، وقليل من يحملني على السلامة فحملني على ذلك كالصدقة على الفقير البائس، بل قدر أيت المسئلة لا تزال دائرية بين علماء الاسلام لانكارها فيها ولا متعرضاً لافرادها بالبحث والتأليف حتى اذهب اليها ولحظتها احداق النظار وتواترت فيها التأليف بالانكار ما ذلك الاما وعد به الصادق الامين صلى الله عليه وآله وسلم من عود الدين غربياً كما بدأ، وحسبي الله وكفى لا اشرك به أحداً.

﴿ المحمل الرابع ﴾ لو قدرنا النزاع في جميع ما تقدم مادل كلامي

على نفى ذوات الاعراض على جهة التصوصية وان في كلامي ما يستلزم التوقف في ماهية بعضها، وإنما منصوص عبارتي هذه في هذا البيت ان الاعراض ليست أصول ديني، ويجوز فيما ليس أصلاً لديني أن يكون ثابتاً في نفسه لكنني مع ثبوته لم أبن نظري عليه لاستغنائي عنه بما هو أجلى منه وأولى كما أشرت اليه في آياتي حيث قلت :

ومالهم عن دليل المعجزات أما

في طلعة الشمس عن نور السهي عوض

فجعلت دليل المعجزات أقرب وأقوى وأجلى، وأقطع للحجاج وأولى
 كما أتمدها إن شاء الله تعالى عند القصد إلى افحام الخصوم وقطع اللجاج وكذلك
 الاستدلال بما في هذا العالم من عجائب المصنوعات، وغرائب المخلوقات
 وما في جميعها من الأحكام والاتقان المعلوم بالفطر حاجته إلى صنائع أحكامه
 وعليم قدره وهذان الطريقتان صحيحان؛ أما الاستدلال بالمعجز فلا أعلم
 فيه خلافاً، وأما الاستدلال بالأجسام من جهة الأحكام فكذلك لا أعلم وجها
 للخلاف فيه، إلا أن في عبارة ابن متويه اشعاراً بخلاف أبي هاشم وحده
 في ذلك وما هو عندي بصحيح عنه إن شاء الله تعالى كما دل عليه ابن متويه
 في أوائل المحيط وذلك يأتي قريباً إن شاء الله تعالى *

وهذان الأمران هما مرادى بقولي *أصول ديني كتاب الله لا العرض*
 أعني الاستدلال على أصول ديني بأعجاز القرآن وأحكام خلق المخلوقات
 لجلالتهما لا العرض الكوني لاستغنائهما عنه مع كثرة الشبه فيه كما نص
 عليه ابن متويه في أوائل المحيط، وقد قال الإمام يحيى بن حمزة من أئمة
 العترة وكثير منهم عليهم السلام، والشيخ أبو الحسين وكثير من أئمة
 الكلام، والشيخ ابن تيمية وكثير من أصحابه من جميع طوائف الإسلام
 بأن الأكواف غير ذوات حقيقة، قال الشيخ العلامة مختار بن محمود المعتزلي
 في كتابه المجتبى في خاتمة أبواب العدل أن ذلك مذهب أكثر شيوخ المعتزلة

من البصرية والبغدادية، وأنهم يقولون بانتفاء الاكوان، ولم يحك القول بثبوتها إلا عن أبي هاشم وأصحابه، وذكر أن لهم في ذلك خبطا كثيراً ومغالطات وترددات لاتدفع الا بتحقيق ما ذكره، ثم ذكر الادلة في ابطال قولهم وطول وجود، فنأجب الانصاف حقق أدلة الجميع. وكان أبو هاشم رحمه الله يقول: إن الاكوان ثابتة بالضرورة ثم رجع عن ذلك، وكان والده أبو علي يقول: انها محسوسة بالعين وبغيرها من الحواس ذكر ذلك عنهما بن متويه في المحيط. وهذا غاية الاضطراب في دليل الاكوان وإذا حملنا على السلامة والجلالة مع هذا الاضطراب العظيم فيما هو عند أحدهما من المحسوسات المشاهدات وفيما قطع أحدهما على أنه كان مخطئاً قطعاً في دعوى أنه من الضرورات وأن والده مصر على الخطأ المقطوع به في أنه من المحسوسات الجليات، فحمل ان شاء الله على السلامة أيسر من ذلك وأسهل على من سلك هذه المسالك *

وكيف يستنكر الشك مني فيما اضطرب فيه الشيخان هذا الاضطراب حتى تردد أبو هاشم فيما كان قاطعاً أنه من الضروريات واعترف آخراً أنه كان أخطأ خطأ قاطعاً في قوله إنه من الجليات وحتى استمر على التنازع فيما هو عند أكثرهما من المشاهدات مع خلاف عيون النظر لهما فيما اتفقا عليه، وأعجب من هذا وأغرب حصر السائل أيده الله جميع طرق معرفة الرب الجليل المسمى بالحق المبين، في هذا الامر المشكل عندهم من الاقليات، الباطل عند من ينكره من الاكثرين والمحققين

وإذا جاز الخطأ على أبي علي فيما يقطع فيه أنه من المشاهدات وعلى أبي هاشم فيما كان يقطع على أنه من الضروريات فالخطأ عليهما في الاستدلاليات الخفيات أقرب، وحصص الطرق إلى الله تعالى في هذا الأمر الخفي أغرب وأعجب، وليس القصد بهذا إخفائي رفيع منزلتها ولا القدح في عظيم علمها، وإنما القصد أمران: أحدهما تهوين أمر المخالفة في هذه الدقائق على السائل، وأن المخالف فيها جدير أن يسلك به مسالك من تقدمه من المختلفين في هذه المسائل في تطلب وجوه المحامل، وأن لا يخص بذلك الاوائل، وثانيهما ان لا يرجع على جميع من خالفهما من الأئمة وعلماء الأمة، ولا تغتر بكثرة مقلديهما في هذه البلاد، ممن ادعى أنه لا يقلد في الاعتقاد، وهو لهما وألاحدهما أو لمن لا يساوي آثارهما أتبع من الظل، وأطوع من النعل، بل كيف لنا أن لا نعارض بهما رحمهما الله الرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام والبراهين العظام، وما أشد كراهتهما لذلك، وللسالكين هذه المسالك، فلو اقتدى بهما مقلدوهما ما قلدهما ولولم يقلدوهما لاختلفوا كما اختلفوا، وتحيروا وترددوا كما تحيروا وترددوا، على ما جرت به العوائد في احوال الخائضين في هذه الدقائق والله أعلم

﴿ فصل وفي كلام السائل أيده الله ﴾ تنبيه لي على أن اعتمادي على النظر فيما نبه عليه القرآن من الأدلة الجسمية لا يصح الا مع اثبات العرض الكوني بخصوصه وقد كبر على ان يكون مثله من طلبه العلم المنقطعين اليه مع فرط ذكائه وشدة رغبته وطول غربته بظن مثل هذا الظن، خصوصاً من المدققين المحققين في هذا الفن؛ ولقد خشيت أن يكون هذا الذي ذكره أيده الله قد شاع في أهل العصر فأحببت أن أذكر من نصوص مشايخ المعتزلة وأئمة الاسلام وأدلتهم ما يعلم به بطلان ذلك

وأورد بعض الفاضل وأنسبها إلى مواضعها المعروفة ليعلم باختباري بالبحث عنها صدق كلامي . فاني الآن مخاصم ولا يصح أن أحكم لنفسي ولا أزيكها بل أحيل النظر في الرواية الى مواضع النقل ، وفي الدلالة إلى محض العقل ، وجزى الله السائل عن المسلمين خيراً لقد نبهه على أمر ما حسبت أن أحداً يشك فيه ، والله يأجرني على يئاني له ان شاء الله تعالى ، ويسان ذلك يظهر في مقامين :

﴿المقام الاول﴾ في بيان الحججة على الله تعالى من غير طريق الاكوان ومن قال بذلك قال الشيخ المحقق أبو محمد الحسن بن أحمد بن متويه في باب اثبات المحدثات الدالة على الله في كتابه المحيط مالفظة : والمعتبر فيما يجعله دليلاً على الله تعالى هو ماله صفة مخصوصة (الى قوله) في بيان ذلك إنه ما يتعذر على القادرين بقدره ، فكما اتصف بهذه الصفة : فهو دليل على الله سبحانه وتعالى . فاذا أردت كشف هذه الجملة قلت : إن الذي يدل عليه إنما هي أفعال الحوادث ، وكلها لا تخرج عن أن تكون جوهرًا أو عرضًا ، فما كان من باب الجواهر فهو دليل على الله تعالى لا محالة ، لتعذره على القادرين بقدره وما كان من باب الاعراض فإنه يتقسم ، إلى قوله بعد أن ذكر ثلاثة أسئلة وجوابها : فالذي ذكره أبو هاشم في الجامع الصغير وغيره أن لا طريق يستدل به على حدوث الجسم إلا بالبناء على الاصول الاربعة ، وذكر أن باقى العرض لا يمكن به الاستدلال على حدوث الجسم ، قال ابن متويه : ولكن الذى عليه شيوخنا وأشار اليه في الكتاب أن الاستدلال بغيره صحيح ، وهو أن في القول بعدم الجسم إثباتاً له فيما لم يزل على صفة واجبة

من هذه الصفات من نحو كونه في جهة مخصوصة، إذ لا يجوز أن يقال: إنه فيما لم يزل يحصل في جهة، وقد كان يجوز أن يكون في أخرى بدلا منها، لان قدمه يوجب أن يكون في جهة معينة لا يصح انتقاله عنها، وقد عرفنا أن من حكم تميزه صحة تنقله في الجهات، وإنما يجب كونه في جهة ما لا بعينها فلا يصح إذاً أن تكون قديما ويجب أن تكون هذه الصفة متجددة له، وهذا يوجب تجدد الوجوده أيضاً، بين هذا أن كونه كائناً اذا كان متجدداً، وتميزه لا يظهر إلا بذلك وجب تجدد التحيز له، ووجوده لا ينفك عن تميزه، فيجب تجدد وجوده أيضاً، فهذه طريقة يمكن سلوكها اه كلام ابن متويه بحروفه، وفيه ما ترى من نسبة أبي هاشم في هذا إلى الشذوذ، وهذا كلام أحرص أصحابه على نصرته، وهذا شذوذه بالنظر الى أهل مذهبه المشغولين بأقواله وكتبه فكيف شذوذه بالنظر الى سائر أهل الكلام، بل بالنظر الى السلف الكرام وسائر علماء الاسلام، وقد اختار ابن أبي الحديد في شرح أول خطبة في نهج البلاغة الاستدلال على حدوث الاجسام بتركيبها لاستلزامه أنها ممكنة غير واجبة وان واجب الوجود غير ممكن، والاستدلال على حدوث الاعراض بافتقارها الى الاجسام، وواجب الوجود غير مفقور، وذا كر غير هذا من الأدلة دون دليل الاكوان، فلم يذكره ولم يعرض به ولم يلتفت اليه، وهو علامة المعتزلة وخاتمة محققينهم ومن العظمين لأبي هاشم، ثم نتقل من أخص خواصه من الجبائية والبهاشمة الى سائر شيوخ الاعتزال مثل أبي الحسين وأصحابه، وقد ذكروا في حصر الأدلة على

الله على جهة الاجمال أنها ستة أجناس كل جنس يشتمل من الأنواع على ما لا يحصر له ولا حد، ولا حساب له ولا عد، وهذه الستة الاجناس (الاول) امكان الذوات (الثاني) حدوث الذوات (الثالث) مجموعهما (الرابع) إمكان الصفات (الخامس) حدوث الصفات (السادس) مجموعهما، فمن ذكر هذه الاقسام وأجاد الكلام في كل واحد منها الشيخ العلامة الزاهد المحقق مختار بن محمود في كتابه المجتبي (قلت) وقد ذكر العلماء تقسيم بعض هذه الاجناس على جهة الاجمال أيضاً لكنه أبسط قليلاً من هذا ذكره لتنبية الناظر على عظيم ملك مال كها ولطيف حكمة خالقها وعظيم إحكام صناعتها، وأخصر ما قيل في ذلك أن تقول: الممكن إما أن يكون متحيزاً، أو صفة للمتحيز، أو لا متحيزاً ولا صفة للمتحيز، هذه ثلاثة أقسام:

(الاول) المتحيز وهو إما أن يكون قابلاً للقسمه أو لا (الثاني) الجوهر الفرد عند من يقول به (والاول) الجسم عند من لا يشترط تركيبه من ثمانية جواهر، والمشرطون لذلك هم المعتزلة أو جمهورهم، وذكر مختار أنه بحث لغوى وهو: إما أن يكون من الاجسام العلوية وهي الافلاك والسكرالكب والعرش والكرسى واللوح والقلم وسدره المنتهى والجنان وإما أن يكون من الاجسام السفلية، وهي إما بسيطة وإما مركبة: فالبسيطة العناصر الاربعة: الارض والماء والنار والهواء، وقد قيل إنها كلها كرية ولم يصح هذا في السمع ولا طريق له سواه، وأما المركبة فهي المعادن ثم النبات ثم الحيوان على كثرة أقسامها (والثاني) وهو الذى يكون صفة

جردت كل مايح من ملاحظته لم تنق الله في ظي ولا غصن
 فاستبق للبدر بين الشهب رتبه تملكه في أوجه عبدا بلا ثمن

* * *

وفال رحمه الله حين بعث شوق بك الى الكاتب الكبير
 الاستاذ داود بركات رئيس تحرير الاهرام بيتين وطلب اليه
 عرضهما على الفقيه ليبدى رأيه فيهما . فلما عرضهما عليه جادت
 قريحته بثلاثة أبيات في معنى بيتي شوق بك ثم بتحية منه .

بيتا شوقي بك

ياساري البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويرى عن ما قينا
 تفرق الماء في دمع السماء دما
 غاض الأسي نخضبنا الارض با كينا

* * *

جواب صبري باشا

يا و امض البرق كم نيهت من شجن في اضلع ذهات عن دأها حين
 فلما في مقل والنار في مهج قد حار بينهما امر المحبين
 لولا قد كر ايام لنا سلفت ما بات يبكي دما في الحي ما كينا
 يا آل ودى عودوا لاعدمتكم وشاهدوا و يحكم فعل النوي فينا
 يا نسمة ضمخت اذ يالها سحرا ازهار اندس هي بوادينا

﴿ الآية الثانية ﴾ « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الثالثة) وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون ﴿ الرابعة ﴾ « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعامون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » ﴿ الخامسة ﴾ « أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إلا مع الله بل هم قوم يعدلون » ﴿ السادسة ﴾ « أم من جعل الارض قراراً وجعل خالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعامون » ﴿ السابعة ﴾ « أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون » ﴿ الثامنة ﴾ « أم يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرأيين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون » ﴿ التاسعة ﴾ « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ﴿ العاشرة ﴾ « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون » ﴿ الحادية عشرة ﴾ « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ﴿ الثانية عشرة ﴾ « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » (الثالثة عشرة) « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون » (الرابعة عشرة) « ومن آياته يريمكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان

في ذلك لايات لقوم يعقلون. (الخامسة عشرة) «ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الارض إذا أتتم أنتم مخرجون. (السادسة عشرة) «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» (السابعة عشرة) «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (الثامنة عشرة) «والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» (التاسعة عشرة) «وانزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد» (العشرون) «والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج» (الحادية والعشرون) «قتل الانسان ما أ كفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم ماته فأقبره» (الثانية والعشرون) «فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شققا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلًا ولوحداً ثق غلبا وفاكهة وابامتنا لكم ولا نعامكم» (الثالثة والعشرون) قول نوح لقومه «ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا» الآيات (الرابعة والعشرون) «الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعلم القادرون ويل ويؤمن ذلك الكذابين»
ومما هو أوضح في هذا قوله تعالى في هذه السورة «ويل يومئذ للمكذبين. فبأي حديث بعده يؤمنون» (الحجة الخامسة والعشرون) ما ذكره الله

تعالى في أول سورة النبأ . وما أعظم الحجة بقوله سبحانه فيها «وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا» لأنها شهادة كإثباته عليه في قوله تعالى «الذي رفع السموات بغير عمد ترونها» ولا شك أنها وسائر العالم العلوى والسفلى (١) في الهواء باجماع العقلاء وإقرار الجاحدين. وفيه غاية الثقل. وطبع الثقل الهوى إلى الأسفل لولا أمسكه الله عز وجل إلى أمثال ذلك مما يطول ذكره . والقصد التبرك والتشفي بذكر الله تعالى وذكر آياته، وليس من الواجب أن لا تخاطب به الامن هو أهله . فان الخطيب يوم الجمعة المشروعة باجماع المسلمين يخاطب كبراء المسلمين بذلك على جهة التذكير . وكم من مذكر لا ذكر منه ، وحامل فقهه الى أفقه منه . والاعمال بالنيات * وليس في شيء من هذه الآيات وأمثالها ما تنبئ صحة الدلالة فيه على ثبوت العرض الكونى . والذي يدل على ذلك وجوه (أحدها) خلو تفاسير القرآن من التنبيه على ذلك في تفسير هذه الآيات وأمثالها بخصوصها من لدن الصحابة الى يوم الناس (٢) هذا (ثانيها) أنه لا خلاف بين المسلمين والكافرين في كمال عقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان فهمه أما المسلمون فظاهر، وأما الكافرون فعندهم أنه بكامل عقله وحلمه استمال الخلائق. واستعمل بهذه المربية الكبرى، فكيف يشتمل الكتاب الذى جاء به على أدلة قاصرة ما فيها دليل واحد يشفى ولا يكفى !! وكيف لم يقدر بذلك أحد من اهل عصره لا من اعدائه ولا من أصدقائه مع ما في الفريقين من الاذكياء

(١) كلمة السفلى ثابتة في ثلاث نسخ خطية ولعلها زائدة او العالم السفلى وهو الارض وما عليها في الهواء كالعلى ولولا امسك الله لها هوت اه مصححه عيد

(٢) يريد يوم القيامة اى ويستتم ذلك الى يوم يقوم الناس لرب العالمين اه مصححه

النبلاء حتى يأتي بعض الشيوخ المتأخرين بعد ثلثمائة سنة من الهجرة فيستدرك على الله ورسله صلوات الله عليهم أجمعين* وجميع العقلاء ما كانوا عنه غافلين . (وثالثها) ما ياتي من تحرير الدليل العقلي في كلام السيد المؤيد بالله عليه السلام* ثم اننا نظرنا الى هذه الطريقة المسماة بطريقة الاحوال فوجدنا الاحتجاج بها هو سنة الانبياء والاولياء والاسلاف الصالحين . وكم احتج الله به على عباد الاصنام من الاجسام، وكم احتجت عليهم الرسل الكرام صلوات الله عليهم فماذا كروا في شيء من ذلك دليل الاكوان* إما خلفائه أو لبطلانه ، الأتري أن الله تعالى احتج على بطلان ربوبية العجل بانه لا يرجع اليهم قولا، وإبراهيم احتج على قومه بقوله أتعبدون ما تعبدون والله خلقكم وما تعملون . وبقوله بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون . وقال تعالى في الاحتجاج على ذلك «والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون» وكذلك احتج موسى صلوات الله عليه على فرعون وهو مدع للربوبية بالآيات دون الاكوان فقال تعالى «ولقد آتينا موسى آيات بينات فاسأل نبى اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مشبورا» وكذلك الأئمة عليهم السلام أما على عليه السلام فكلامه في النهج معروف وله في ذلك خطبة الاشباح التي لم يعلم لاحد ما يقاربها فكيف ما يماثلها، ومن كلامه عليه السلام في أول خطبة من النهج: فبعث فيهم رسله ليستادوهم ميثاق فطرته إلى قوله ويروم آيات المقدره من سقف

فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع . ومعايش تحييمهم . وأجال تقييمهم .
وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولما كان كلامه عليه السلام معروف
الموضع في النهج لم أستكثر منه خوفا من الاملال، والارشاد الى
موضعه كاف لاسيما مع مطالعة شروحه كشرح الامام يحيى عليه السلام وشرح
ابن أبي الحديد رحمه الله وجزاه عن آل علي خيرا، فلقد أفادوا أجاد وبندي
أن ينظر في كلامه في هاتين الخطبتين خصوصا* وقد احتج ابن أبي الحديد في
شرح الخطبة الاولى بدلالة التركيب . كما احتج بها على عليه السلام ولم
يتعرض للاكوان بتصريح ولا تلويح ولكل من الأئمة عليهم السلام في
هذا المعنى كلام تركت سياقه كذلك خوف الاملال . ولكني أذكر
اليسير من كلام عيونهم* قال القاسم بن ابراهيم عليه السلام ما رأيت كلاميا
قطله خشوع الجمل الجمل رواه عنه محمد بن منصور، قال الهادي عليه السلام في
كتابه المسمى بكتاب البالغ المدرك بحج علي البالغ المدرك: ان تنظر الى هذه
الاعاجيب المختلفة المدركات بالحواس من السماء والارض وما بث فيها من
الحيوانات تعلم انها محدثة لظهور الاحداث فيها معترفة بالعجز على نفسها انها
لم تصنع شيئا ولم تشاهد صنعتها وتعجز أن تصنع مثلها. وتعجز أن تصنع ضدها
فلما شهدت العقول أن هذا هكذا ثبت أن لها مديرا حكما . ومعتمدا
اعتمدها وقاصدا قصدها ليس له شبيه ولا مثيل اذا مثل جأز عليه ما يجوز
على مثله من الانتقال والزلزل والعجز والزيادة والتقصان إلى قوله عليه السلام
واجب على كل عاقل ان ينظر في نباته ولن ينتفع ناظر بنظره الا بسلامة قلبه من
الزيف وطهارته من الهوى وبرائه من الف العادة التي عليها جرى، والقصد
بارادته ونيته الى العدل والنصفة وإصابة الصواب وترك التقليد ويكون

طالباً لقيام الحجّة لازماً لمنازل القرآن متمسكاً به مؤثراً له على ماسواه ملتصقاً للهدى فيه فلن يعدم الهدى من قصده لان الله جل جلاله ضمن لمن اتبع هداه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة فبمثل هذه الشروط يستبان البرهان ويستشف الغامض من الصواب وتستبان دقائق العلوم وتهجم به على مباشرة اليقين برهه فتهتك الشكوك عن قلبه *وقد شرحه السيد الامام أبو طالب عليه السلام فجود شرحه وقال عليه السلام : وتبرأ الهادي عليه السلام في خطبة كتاب الاحكام من كل معترى غال وفي كتاب الجامع الكافي من هذا ما ليس في غيره فليطالع فيه أوفى الكراريس التي نقلتها منه وأشهدت على ذلك خوفاً من تهمة المتعصبين *وقال الامام الناصر للحق الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر الأشرف بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام في كتاب البساط: وشهادة كل مصنوع بان له صانعا مؤلفا، وشهادة كل مؤلف بأن مؤلفه لا يشبهه، وشهادة كل مؤلف بالاقتران والحدوث؛ وشهادة الحدوث بالامتناع من الازل فلم يعرف الله تعالى من وصف ذاته بغير ما وصف به نفسه، وحكى عنه مصنف المسفر أنه قال: المفروض معرفة الاسم والمسمى وأن الاسم غير المسمى لان المسمى يعرف بالصنع والدليل، والاسم يعرف من طريق السمع، وقال في كتاب الكنز والايمان. ثم انصدعت من هذه الامة طائفة تحلت باسم الاعتزال الى قواه بعد ذكره لكثير من تعمقهم حتى خاضوا في صفات ذاته وضربوا له الامثال وقد نهى الله سبحانه عن ذلك بقوله تعالى «فلا تضربوا الله الامثال» وقوله «إنما حرم ربي الفواحش» الآية إلى قوله «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» وبالغوا في خلاف ذلك ولم يرضوا حتى تعدوا إلى الكلام

في كل ما لا يعلمون ولا يدركون رمية بعقولهم وحواسهم من وراء
غاياتها إلى قوله وتكلموا من دقائق الكلام بما لم يكلفوا وبما
لعل حواسهم خلقت مقصرة عن درك حقيقتها وعاجزة عن قصد
السبيل بها ومن شعره عليه السلام في هذا المعنى قوله فيها:

قد اعتدى الناس حتى أحدثوا بدءاً

في الدين بالرأى لم تبعث بها الرسل

حتى استخف بحق الله أكثرهم وفي الذي حملوا من حقه سعل
وقوله :

فجاهد وقلد كتاب الآله لتلقى الآله اذا امت به
فقد قلد الناس رهبانهم وكل يجادل عن راهبه
ولالحق مستنبط واحد وكل يرى الحق في مذهبه

وللقاسم بن علي عليه السلام كتاب الأدلة من القرآن على توحيد الله وصفته
قال فيه ولا بد من معارض لنا في علم القرآن ممن اكتفى بأفانين الكلام
إلى ما ذكره من كون القرآن معجزة وصنعاً لله تعالى يدل عليه كسائر
مصنوعاته ، ذكر هذه الأشياء وأضعافها السيد العلامة الامام المقتصد
والعالم المجتهد ، نور الدين أبو عبد الله حميدان بن يحيى بن حميدان بن القاسم
ابن الحسن بن ابراهيم بن سليمان بن القاسم بن علي بن محمد بن القاسم
بن ابراهيم من مجموعته المعروف من المنتزع الثاني في ذكر
بعض ما اختلف فيه أهل علم الكلام من الاقوال في الذوات والصفات
والأحكام وهو المجموع الذي كتب عليه جماعة من أئمة العترة عليهم السلام انه
معتقد منهم الامام أحمد بن الحسين والمنصور بالله الحسن بن محمد أخو الأمير

الحسين مصنف شفاء الأوام والامام المطهر بن يحيى والامام محمد بن المطهر
 إلا أن الامام محمد بن المطهر استثنى الجوهر قال فان لى فيه نظراً ، والحسن
 ابن محمد استثنى الارادة فانه كان يتوقف فى كيفيتها والمراد ان هؤلاء كلهم
 سلكوا طريق الاستدلال بالاجسام المحكمة المعبر عنها بالصنع وحكموا بما
 تحكم به العقول من دلالة المصنوع المحكم على صانعه الحكيم وأن هذه الطريقة
 هى التى كان عليها الصدرالاول الذين شهدتهم الرسول الصادق الامين بانهم
 خير القرون بل شهدتهم بذلك كتاب الله تعالى حيث يقول « كنتم خير أمة
 أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقد اجتمع المختلفون
 على انهم كانوا على الصواب ، ولكن ادعى التعمقون من أهل كل بدعة
 انهم كانوا لهم سلفا وأبى الله الا أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو
 زاهق وعندى أن البدع كلها معلوم ابتداءها بالضرورة التى لا يستطيع
 أخذ النزاع فيها ولكن كل مبتدع يعتذر لبدعته فنترك الاعذار سالك
 الجادة الاترى أن الصوفية لا يستطيعون يدعون أن رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم ولا أصحابه ولا التابعين كانوا يصنعون صنعمهم فى السماع لكنهم
 يعتذرون بانه يصلح قلوبهم ويقويها ولا يقوم غيره مقامه مع وجود
 الاختلاف فى جوازه بين أهل العلم وتعارض الاخبار فيه ونحو ذلك
 والملوك لا يقدرون على دعوى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء
 بعده كانوا على مثل أحوالهم فى الرسوم الملكية والامور المصاحبة لكنهم
 يعتذرون بفساد أهل الزمان وقصد التهييب والتوصل إلى المصالح على

حسب الرأي تارة وعلى حسب الضرورة أخرى، وكذلك أهل الوسوسة في الوضوء من المتعبدين والعارفين وأهل التدقيق فيما لا يقع غالباً بين الفرضيين والمتفهمين * وكذلك علماء الكلام والجدليون والمنطقيون لا يستطيعون أن يدعوا على السلف أنهم خاضوا في علمهم ولا مهدوا القاعدة ولو كان شيء من ذلك لتقلوا انصوصهم في ذلك ولو وافق الجبائين الصحابة والتابعون في إثبات الاكوان ومن قال بقول الامام يحيى وأبي الحسين نقلت أقوالهم في ذلك كما تقامت في الفقه والتفسير ولما أطبقوا على تغليق هذه الابواب كما أطبقت الرسل صلوات الله عليهم وخلت عنه كتب الله المنزلة أولها وآخرها ولم يحسن من المسلم المظلم لكتب الله ورسله صلوات الله عليهم والسلف الصالح أن يقطع على قببح حال من تشبه بهم في هذه الخصلة وإن كان مقصراً في غيرها فالسيئة لا تقبح الحسنة لصدورهما عن فاعل واحد، والعافل يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال * وانما ذكرت الحجة بالكتب والرسل والسلف لان المخاطب بحمد الله يعرف أنهم على الحق وانا كذلك وليس يحسن منا أن نفرض أنفسنا من جملة أهل الجاهلية بعد أن من الله علينا بالاسلام ولو فرض ذلك جاهل لدلته البراهين الصحيحة على ملازمة من ذكرته للحق، وعلى كل حال فالقصد أن ياحقني السائل أيده الله وغيره بحكم من قلت بقوله فيما يستحقه: من قال بذلك القول فالنظر إلى ذلك القول

خصوصاً والذي اخترته من هذه الطريقة هو بعينه الذي اختاره المؤيد بالله في كتاب الزيادات في فصل عقده عليه السلام في سكون النفس ومعرفة الله واختار فيه الاحتجاج بما في العالم من الاحكام فان معرفة احتياج الاحكام الى محكم من العلوم الضرورية الاولية قال لأنه يجوز من طريق الاتفاق أن يسقط كوز من علو فينكسر ولا يصح من طريق الاتفاق أن يصير الخشب دواة* والفرق بينهما أن في الدواة آثار الحكمة ولا يوجد ذلك في انكسار الكوز، فاذا ثبت ذلك فأثار الحكمة في خلق بني آدم وغيرهم من الاشياء أكثر. واحوج الاشياء اليه لهواء، لانه لو اتقطع مات الانسان سريعاً فجعله الله مباحاً واسعاً، وبعد ذلك الماء فالحاجة اليه وإن اشتدت فهو دون الهواء. وكذلك الطعام بعدهما فان الرجل لا يموت باتقطاعه يوماً ويومين فلم يوسع الله سعة الماء والهواء، وكلا المنخرين والقم فان فيهما مجرى الانفاس ولو أصاب بعضهما شيء تنفس بالآخر ولو علا حتى جنى عليه الربو تنفس بهما* والفروخ لما لم يجعل الله للدجاجة الشفقة المفرطة عليها جعلها قوية ناهضة بأمرها تلتقط الحب حين مفارقتها لليضة، وعكس ذلك بنوا آدم جعل للوالدين من الشفقة والعطف عليهم ما ترى لانهم لا ينهضون بامورهم. ولو قال قائل إن هذه التراكيب حادثة فمن اين أن تلك الاجزاء المركبة حادثة مثلها؟ قلنا اذا علمنا أن للعالم صناعاً يصنعون على هذه الاحوال صح أن نقول بعد ذلك أن محدث هذه الاشياء المدبر لها والمركب

لها على هذه الاحوال يعرف بطريقة السمع اهلامه وقد صنف الجاحظ في هذا كتاب العبر والاعتبار وأجادوا بدع رحمه الله تعالى * وقال المؤيد بالله فان قيل من أين انهما من صنع القادر المختار وما أنكرت انهما من طبع (١) قلنا لان الطبع ان سلمنا وجوده فانه لا يحصل به الشيء على قدر الحاجة وانما يكون بمقدار قوته وضعفه * الا ترى أن النار تحرق لاعلى قدر الحاجة بل على قدر قوتها وتقصر عن الحاجة ان ضعفت وكذلك الماء الجارى ، والحكيم يجريه ويقطعه على قدر الحاجة ، وكذلك البناء وغيره يعلم ضرورة وجوده بمتصرف وحصوله به انتهى كلامه * ومن جوز في بدع خلق الانسان أنه من طبع كمن جوز في كتابة المصحف الحكيم أنه بمنزلة جمود المداد في الاستناد الى الطبع فهو معاند موسوس لا يداوى بالنظر * وكما قدر رأينا موسوسين في الوضوء ينكرون الضرورة ولا ينفعهم علم العلماء وقد قال تعالى «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا» (فقف على كلام المؤيد بالله) في كتاب الزيادات موقفا وانظر كيف عدل عن الاستدلال بطريقة الاكوان الى طريقة الاحكام الذى فى العالم ، ثم استدلل بالسمع على حدوث كل شيء ووجد سبيلا الى الله تعالى غير الاكوان، وكذلك فعلت حين استدلت بالاحكام الذى فى القرآن واخترته لانه معجزة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم والاعجاز صفة لا عرض * ومعرفته حاصلة بمعرفة العجز عنه لا بمعرفة حقيقة ذات الكلام لأننا لو عرفنا ذات الكلام ولم نعجز عن مثل القرآن لم يكن معجزاً ، ولو عجزنا ولم نعرفها كان معجزاً فإدراك الكلام على العجز لاعلى

(١) ما: اسم موصول والمعنى من أين أنها بصنع المختار والذى تنكر أنها بالطبع اه مصححه

معرفة ماهية المعجوز عنه ونحن نعلم بالضرورة عجزنا عن بعض صفات الاصوات
 وأحوالها فنعلم عجزنا عن مثل صوت الرعد القاصف ونعلم أن علمنا بعجزنا عن ذلك
 لا يتوقف على معرفة ماهية الصوت وحده الاصطلاحى بعدم معرفة الصوت
 على سبيل الجملة كما أمكننا معرفة صفات الله تعالى بعدم معرفة ذاته على سبيل الجملة
 فان أهل عصر النبوة عرفوا الاعجاز وما خاضوا في ذلك وهو أمر
 لا يدرك بالفطرة ولا آيين من أمر يعلمه الخصمان جميعاً ، وأنت أيدك
 الله تعلم وأنا أعلم أنا كنا قبل أن نتلقى كلام المتكلمين في الكلام والا كوان
 لا نعرفها بالفطرة ولا يخطر لنا ببال على ذلك الترتيب الذى يفيد معرفة
 الاداة والحدود، ومن أنكر ذلك الحال الذى كنا عليه لم يستحق المراجعة
 فحمل الصحابة على معرفته رجالهم ونسائهم وفطنائهم وبلدانهم من غير
 تعلم مما يبان طرائق الانصاف فان اختصاص جميع العقلاء في ذلك
 الزمان بأمر لا يوجد في واحد من العقلاء في هذا الزمان من خوارق
 العادة المتمتعة عقلا ولم تختلف إلا في اللغة العربية وقد كانوا في
 البلاده بحيث عبدوا الجهاد الذين هم أشرف منه بالضرورة وكذلك غير
 المؤيد بالله من القدماء والمتأخرين يسلك المسالك السهلة في النظر* وكذلك
 اعتمد هذه الطريقة محمد بن منصور الكوفي المرادى محب أهل بيت رسول
 الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى سأله الناصر الكبير أن يجمع له اختلاف
 آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكره المؤيد بالله في زيادات* قال محمد
 ابن منصور في كتاب التوحيد والجملة بعد المبالغة في الاكتفاء بما في كتاب

الله تعالى من الأدلة ما لفظه: وقد أوضح الله حجته على خلقه بما جعل فيهم من تركيب الخلق وآثار الصنعة والتحرير والتأليف واختلاف الحواس وقوام بعضها ببعض وإدراك بعضها ما لم يدركه بعض إذ خلقها سبحانه لذلك وجعلها تقوم بجزأين مختلفين نفس وجسد، ثم الف بينهما بلطف تدييره؛ وأحكم تركيبهما بحسن تصويره؛ فجعلها شخصا واحدا مكتملا للزيادة والنقصان عالما بنفسه عاجزا عن اجتلاب محابه ودفع مكروهه فمن كان بهذه الصفة علم عالما يقينيا واجبا اضطراريا انه مبتدع مصنوع مملوكة عليه أموره وأن صانعه غيره، وأن صانعه بأئن من جميع صفته انتهى بحروفه* وقد جمعت كتابا في طريقة أهل البيت والسلف في الاستدلال، ووقوف الولد عليه أسهل من نقله الى هنا، وأشارت فيه الى احتجاج الهادى في هذه المسئلة في كتاب البائع المدرك وتقرير السيد ابى طالب له في شرحه وذكر ما يجرى الكلف في أول المنتخب كما ذكر ذلك المؤيد بالله في آخر الافادة وآخر الزيادات، وغيرهما من الأئمة السابقين والسادات، فقف عليه أو على ماشرت اليه في هذه المصنفات (واعلم) ان معرفة الله تعالى اجلى وأظهر من دليل الاكوان والقطع بتوقفها عليه يستلزم القطع بانها أخفى منه لان الدليل اجلى من المدلول عليه ولذلك كان له معرفا وقد حكى الله في كتابه العزيز عن رسله الكرام الذين هم خيرته من الانام ما يدل على ذلك حيث قال الله تعالى (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والارض) * وقد أجمع أهل الملل الدينية وأهل الفرق الاسلامية على وضوح الطريق الى معرفة الله سبحانه وتعالى واشتد اختلافهم في الاكوان وعلمت دقته بالضرورة عند من حققه فكيف يكون

ما اشدت اختلافهم فيه وعلمت دقته ونموضه كاشفا وموضعا ومجليا لما
أجمعوا على وضوحه وسهولته * وقد نص ابن متويه على كثرة الشبه في دليل
الأكوان * وقد استحسن علماء النظر قول بعض الاعراب وقد سئل
بم عرفت ربك؟ فقال البعرة تدل على البعير، وأثار الخطى تدل على المسير
فهيكلك علوى، وجوهر سفلى، لم لا يدلان على العليم الخبير!! وإلى هذا
أشارت الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما حكى الله تعالى عنهم في قوله (قالت
رسلم افى الله شك فاطر السموات والارض، فقولهم فاطر السموات
والارض اشارة الى استنكار الشك فيمن هذا صنعه وأثره، والاثار الخبير
يدل على صاحبه. فكيف لا يدل هذا الامر العظيم بما شتمل عليه من
الآيات والاعاجيب على صانعه، وبأى شىء أعظم منه يناظر من أنكره
ولقد قالت طائفة منهم جليلة من شيوخ النظر والاعتزال بأن العارف
ضرورية غنية عن القيل والقال. ولو ذهب اليه ذاهب كان قويا مع
طرح النظر لكن مع القول بأن النظر شرط اعتبارى كما هو قول محققهم
فحقيقة النظر على هذا القول تجريد القلب عن الغفلات كما قال مختار وقد
أشار اليه الجوينى فى برهانه، والمقويات لهذا القول كثيرة من الآيات
والآثار، وأحوال السلف الابرار، فلقد كانوا أشد الناس يقينا مع عدم
خوضهم فى ترتيب الادلة وشروط الانتاج وتقسيم الاشكال وتحرير
الجواب والاشكال. ولو لم يرد فى ذلك الا قوله تعالى (فاقم وجهك للدين
حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)
وقوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) الحديث متفق

على صحته ، واليه أشار على عليه السلام بقوله: (فبعث فيهم رسله ليستادوهم
 ميثاق فطرته كما شرحه ابن أبي الحديد في أول خطبة في النهج في قوله الذي
 شهدت له اعلام الوجود على اقرار قلب ذى الجحود ، ومن ذلك قول
 الرسل عليهم الصلاة والسلام في الله شك وقوله تعالى (الم ذلك الكتاب
 لا ريب فيه هدى للمتقين) وفي الحرز لا ريب فيه من رب العالمين . فان قيل
 إذا تم قليل النظر فكثيره أولى قلنا هذا صحيح اذا كان المنظور فيه هو ما نظر
 فيه السلف من عجائب الخلوقات ، اما إذا نظر فيما نظر فيه غيرهم مما لا طريق
 إلى معرفة كينيته ، وهو النظر في الله وخفيات صفاته ودقق ذلك خيف
 عليه ، وقد قيل من نظر في الخالق الحد ، ومن نظر في المخلوق وحد ، وروى
 النهي عن هذا واشتهر التحذير عنه . واما نظر الخليل عليه السلام في
 كيفية فعل واحد من أفعال الله وهو كيف يحيى الموتى ولم يهتد اليه بعقله
 وهو من أفضل العقول وأكملها حتى سأل الله أن يريه ذلك ليطمئن
 قلبه ، فكيف من نظر في كيفية القديم وإحكامه ، وهو لا يالف الا الحدوث
 وبهذا تعرف أن الخليل عليه السلام يطلب طمانينة قلبه بوجوه بل معرفة
 كيفية خفية من كفيات أفعاله الأوامر جمع إلى ربه وسأله تعريف تلك الكيفية
 لكمال يقينه بوجوه ذاتها ومعرفة أنه الذى يهب المعارف وكله ربه وراجعه وأجابه
 وربما كان ذلك في أول أحوال تكليفه كقوله لئن لم يهدني ربي لا كونن من القوم
 الضالين . وما أشبه قول لخليل عليه السلام كيف يحيى الموتى بقول زكريا عليه
 السلام انى يكون لى غلام وقد بلغت من الكبر عتيا ، وقول مريم انى يكون لى ولد
 ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا ، فان كلهم سأل من الله زيادة من العلم وهى موهبة
 من مواهبه وكذلك سألت الملائكة ذلك فى قولهم أنجعل فيهما من يفسد فيها

(ومن أصعب) ما يرد على المتكلمين من أدلة القائلين بأن المعارف ضرورية أو ظنية وأنها حاصلة عقب النظر لأنه شرط اعتباري أمران (أحدهما) أن الفرق عند المتكلمين بين الضروري والاستدلالي حصول التجويز منا أن ترد شبهة تقدر في الاستدلال وهذا التجويز وإن كانت صورته في الظاهر خاصة بالاستقبال إلا أنه يلزم من كل نوع خاص حصول جنسه العام ويستحيل وجود النوع الخاص مع امتناع جنسه العام اذ لو استحال وجود جنس الحيوان لاستحال وجود نوع الانسان وكذلك لو استحال في مسئلتنا وجود جنس الشك في الاستدلالي لاستحال وجود نوع الشك المستقبل وهذه طريقة للمتكلمين في الاستدلال: وفيها عندي نظر ليس هذا موضع تحقيقه، وأوضح من ذلك أن تجويز ورود الشبهة لا يختص بوقت معين في البعد والقرب فذلك يجوز في كل وقت مستقبل وحاضر، ودخل في ذلك حال العلم وما بعده وذلك مستلزم تجويزه في الحال وإنما اختص الاستقبال بمعرفة الوارد من الشبه بعينه وتأثيره ومعرفة أثره لأن كل واحد منهما ينقسم أما الوارد فقد يكون من البراهين وهي اقترانية واستثنائية وكل منهما ينقسم، وقد يكون من الاعتراضات فهي نوعان: معارضة وقدح وينقسمان إلى نيف وعشرين. وأما أثره فقد يكون شكاً وقطعاً والقطع إما بالطلان فقط وإما بصحة تقيض أو مخالف معه وبالجملة فتجويز بطلان العلم وانعكاس الاعتقاد شك باخرينا في اليقين الجازم وينافي البيان بكل حال عند التشكيك. والعلم الحق ما جمع ثلاثة أشياء (النجزم) و (المطابقة) و (الثبات عند التشكيك) وبطلان واحد منها يبطل العلم فتأمل ذلك وجود فيه النظر، فإن قيل إنما أرادوا (م - ٧ - ترجيح)

أنه يجوز نسيان بعض مقدمات الدليل اذا كثرت، وأما مع استحضارها فلا يجوز (قلنا) هذا غير صحيح لعدم النقل ولاختلال المعنى. أما عدم النقل فواضح وعلى الناقل البيان. وأما اختلال المعنى فن وجهين: «أحدهما» أن النسيان ضروري وهذا القدر يجوز في العلوم كلها ضروريا ونظريها، وتجوز نسيان كتجوز زوال العقل أو استغراق الفكر بحادث ضروري كالشغول بمفاجأة سبع قتال أو عدو صوال فان اشتغاله بالنظر في نجاة نفسه في الحال يمنعه بالضرورة من تذكر العلوم الضرورية بل قد يشغله ذلك عن إدراك كثير من المدركات الحاضرة اليبنة «وثانيهما» أن المتكلمين انما ذكروا ذلك لانه موجود مع أهل العلوم النظرية بالضرورة فان هذا التجوز ضروري ومستنده التجربة المستمرة في ذلك. ومعنى هذا الشك أن الناظر يجوز ورود شبهة قاذحة في أحد أركان دليله المستحضرة، ولولم يجوز ذلك لعلم الانتفاء، ولو علم الانتفاء لكان علمه ضروريا أو نظريا وكلاهما ممنوع، أما الضروري فبالاتفاق وأما النظري فلعدم وجود دليل على ذلك الا عدم الوجدان، وهو لا يفيد القطع بالوفاق والتجربة وكمن طالب أمر لا يجده في وقته ثم يجده بعد مدة خصوصا في الانظار والمعارضات ولذلك كثر رجوع العلماء وتعارضهم في ذلك. فدل هذا على أن أدلة المتكلمين المتنازع فيها بين عقلاء علماء الاسلام بعد تكرار النظر وقصد الانصاف لا تقيد العلم اليقيني الا ما انتهى منها الى الضرورة بحيث يقطع العالم به على استعالة شكه فيه مادام حاضر الذهن صحيح العقل وهذا يرفع كثيراً من علم الكلام (وثانيهما) أنا وجدناهم لا يزالون يخوضون في النظر في الدليل

على الامر الجلى حتى ينتهوا إلى دعاوى محضة في أمور دقيقة خفية هي أخفى مما جعلوا الخوض فيها وسيلة الى معرفته، وانما جعل الدليل معرفا للمدلول فلا يصح أن يكون أخفى منه . ألا ترى أن البهاشمة تقول انا بعد العلم بمحدث العالم نحتاج الى البحث عن دليل يدل على أن له محدثا، مع أن العلم بحاجة الحادث إلى المحدث ضرورى عند أبي الحسين وكثير من الشيوخ وهو الامر المتعارف بين العقلاء حتى أن الصبيان والبهائم تدرك ذلك، ومتى طلبت دليلا على ذلك لم تجده قط الا تكثيرا أو تطويلا في العبارة . وحاصله يرجع الى دعوى الضرورة في مثل هذا بل لا يجب عندهم الوصول الى سكون النفس فقط، ثم اذا ثبت أن لهذا العالم صانعا احتجنا عندهم الى دليل آخر يستدل به على أنه موجود ليس بمعدوم وهذا أعجب من الاول فالاعتقاد الجازم باستحالة عدم الصانع المحكم ووجوب وجوده ضرورى وهو أجلى من الدليل المستنبط عليه واذا أمكنت المنازعة في هذا أمكن النزاع في دليله . وأنا أورد لك كلام علماء الكلام في هذه المسئلة لتعرف صحة كلامى وتعتبر ولا أنقل الا ألفاظ المعتزلة من كتبهم المشهورة فأقول :

قال الشيخ العلامة مختار بن محمود في المجتبى في المسئلة الثالثة من خاتمة أبواب العدل ما لفظه :

﴿ المسئلة الثالثة في اثبات أن صانع العالم موجود ﴾

الكلام في هذه المسئلة مختلف باختلاف الناس في الوجود . فمن قال وجود الشيء ذاته وحقيقته . قال إذا دلنا على أنه لا بد للعالم من صانع علمنا أنه موجود لان الشك في عدمه بعد العلم بشيوته شك في انتفائه بعد ثبوته وانه خاف وانما

قلنا انه شك في انتفائه لان أهل اللغة يستعملون في لفظ العدم لفظ النفي بالترادف، والنفي والثبوت يتقابلان فكذلك العدم والثبوت، فكل ما كان ثابتا لا يكون معدوما. وإذا لم يكن الباري معدوما كان موجودا، فصح ما ادعينا أنه اذا ثبت أنه لا بد من صانع للعالم ظهر وجوده. وإليه ذهب كثير من المشايخ كأبي الهذيل وهشام الفوطي وهشام البرذعي وأبي الحسين البصري وشيخنا ذكي الدين محمود الخوارزمي رحمهم الله تعالى ومن السنية أبو بكر الباقلاني وأتباعه ومن قال وجود الذات زائد على حقيقتها غير منفك عنها. وهذا قول أكثر الفلاسفة والاشعرية ومن تابعهم فيه قالوا أيضا الدليل على ثبوت حقيقته دليل على وجوده لان وجوده عندهم لا ينفك عن حقيقته. وأما من قال وجود الذات زائد عليها ومنفك عنها زعم أن الحقائق متقررة مع انتفاء الوجود عنها وهم جمع من المشايخ كأبي يعقوب الشحام وأبي علي الجبائي وأبي هاشم وأبي حسين الخياط وأبي القاسم البلخي وأبي عبد الله البصري وقاضي القضاة وأبي رشيد وابن متويه وأتباعهم، وزعموا أن المعدومات قبل وجودها ذوات وأعيان وحقائق وأن تأثير الفاعل في جعل تلك الذوات على صفة الوجود لا على الذوات. ثم اتفق هؤلاء على أن الذوات لا تختلف الا بالصفات واختلفوا في أنها هل هي موصوفة حال عدمها قال ابن عياش والكعبي انها غير موصوفة بشيء من الصفات قال خاتمة أهل الاصول تقي الأئمة العجالي وما نقل عن الكعبي أن المعدوم شيء، يريد به أنه معلوم قال علي ما ذهب إليه أبو الحسين البصري وهو غير كونه دائما ذاتا. وقال غيرهما من هؤلاء المشايخ انها في حال عدمها موصوفة فقال أبو علي وأبو هاشم بالصفات وقامني

القضاة . وتلامذتهم إن للجوهر أربع صفات الجوهرية وهي :
 صفة ذات ، والتحيز ، وهي صفة مقتضاة عن الجوهرية ، والوجود ، وهي
 الصفة التي بالفاعل ، والكائنية ، وهي الثابتة بالمعنى عندهم وكذا سائر الذوات
 موصوفة بامثال هذه الصفات إلا الكائنية فانها لا تصح في الاعراض والسواد
 له صفة السوادية وهي تقتضى هيئة السوادية عند الوجود ، وبعضهم جعل
 صفة التحيز والجوهرية واحدة . وقال أبو الحسين الخياط إنه متحيز ومحل
 للمعاني وجسم حال العدم وجوز أبو يعقوب رجلا راكباً على فرس في العدم
 ثم انهم بعد اختلافهم اتفقوا بان للعالم صناعاً محدثاً قادراً عالماً حياً
 سميعاً بصيراً حكيماً محسناً باعثاً للرسول مقيماً للقيامه مثيباً معاقباً نشك
 أنه موجود أو معدوم وإنما يتبين وجوده بدلالة مستأنفة وكذلك
 اتفقوا على أن في العدم أنواعاً وأجناساً مختلفة بالصفات ويكون من كل جنس
 أعداد غير متناهية تركز الاشارة العقلية الى كل واحد منها والى مآثلها ونخالها
 قال تقي الأئمة العجالي إن كل من سمع ذلك من العقلاء قبل أن
 يتلوث خاطره بالاعتقادات التقليدية فانه يقطع ببطان هذه المذاهب
 ويتعجب أن يكون في الوجود عاقل تسمح نفسه بمثل هذه الاعتقادات
 ويلزمهم أن يجوزوا فيما شاهدوه من الاجسام والاعراض أن تكون
 كلها معدومة لان الوجود غير مدرك عندهم والالزم أن يرى الله لوجوده
 بل انما يتناوله الادراك للصفة المقتضاة عندهم وهي صفة التحيز وهيئة
 السواد واليباض فيهما ، غاية الامر أن الجوهرية عند بعضهم تقتضى التحيز
 بشرط الوجود ولكن الترتيب في الوجود لا يقتضى الترتيب في العلم كما

في صفة الحياة والعلم فيلزمهم أن يشكوا بعد هذه المشاهدة في وجودها وكل مذهب يؤدي الى هذه التمحلات ، والخصم مع هذا يريد سفاهة ولجاجا فالواجب على العاقل الفطن الاعراض عنه والتمسك بقوله تعالى «واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» ومن ذم من السلف الصالح الكلام والمتكلمين إنما عنوا أمثال هؤلاء ظاهرا والله الموفق انتهى بحروفه . وهذا كلام أئمة الاعتزال بعضهم في بعض وفيه اعتراف بذم السلف الصالح للكلام والمتكلمين . وتأويل ذلك بالغلو في الكلام ومن ذلك ما قدمنا من القاسم والمهادي والناصر من ذم الكلام وما ذكره صاحب الجامع الكافي عن متقدمي العترة من ذلك كزين العابدين وزيد بن علي والصادق والباقر وعبدالله بن موسى وأحمد بن عيسى والحسن بن يحيى وصنف محمد بن منصور في ذلك كتاب الجملة والألفة ونقل عن هؤلاء وغيرهم النهي ، الكراهية للكلام والخوض فيه وكذا فقهاء الاسلام وأئمة الحديث وجميع السلف المتقدمين كانوا على ترك هذا وبعضهم ينهى وبعضهم يقرر الناهي وهو من أصح الاجماع السكوتية والله أعلم

فمن عرف أن الموجب لهذه الامور هو عدم القنوع بما في الفطر من اليقين بأوائل الأدلة الجلية ، مثل كون الحوادث اليومية ، وخصوصا المعجزات فانه لا بد لها من محدث موجود قادر عالم وان المصنوعات المحكمة تحتاج الى أمثال ذلك وان الخائضين في هذه المجازات أرادوا تصحيح هذه الجليات فوقعوا في أخفى منها لم يستنكر كلام أهل المعارف * وقد قال مختار في الفصل الثامن من مقدمات المجتبي مالفظة: وقال شيخنا خاتمة أهل

الأصول ركن الدين الخوارزمي رحمه الله في الفائق في الجواب عن شبهة المعجزاتهم كلفوا أن يسمعوا أوائل الدلائل التي تتسارع إلى فهم كل عاقل فان فهموا ذلك كفناهم علما، ولسنا نكلفهم تلخيص العبارة كما يقول العلماء وذلك ممكن لكل عاقل فان لم يمكنهم الوقوف عليها فاتهم غير مكلفين أصلا * قال مختار وثبت بما أشار إليه أن الوقوف بأوائل الدلائل كاف لاهل الجمل ولا تلزمهم الابحاث العميقة في غوامضها وأن تركيب الأدلة على ترتيبها المنطقي أو النظري ليس بشرط لا علم بالله تعالى وبصفاته ، وأن من يعجز عن النظر في أوائلها والوقوف عليها غير مكلف مثل كثير من العوام والعبيد والنسوان انتهى بحروفه وهو شبيه بكلام أهل المعارف ، ولقائل أن يقول : الوقوف على أوائل الدلائل هو الذي كان عليه السلف بل الأنبياء صلوات الله عليهم والاولياء وسائر العقلاء ومن شك فيها فهو أولى بالشك في المباحث العميقة التي هي عند المتكلمين معرفات، لثبوت أوائل المباحث الجليات ، وكيف يعرف الجلي بالخفي والبحث لا يزيد الامر الادقة كما قال ابن أبي الحديد

فاذا الذي استكثرت منه هو الـ جاني على عظام المحن

وما صارت السوفسطائية الى إنكار العلوم الا من شدة البحث بدليل أنه ليس في أهل الجمل من ينكر الضرورة ولا من ألزم انكارها، ولعل كل طائفة من المعتزلة وغيرهم تنكر شيئا من الضروريات أو تلزم ذلك، الا ترى إلى ما تقدم من إلزام أصحاب أبي الحسين للبهاشمة الشك في المشاهدات كلها، وكذا أبو علي يلزم هؤلاء مثل ذلك لانه يقول الاكوان مشاهدة وهم ينكرونها

بل يلزم أن يلزم ولده أباهتم وأصحابه وأكثر المعتزلة إنكار المشاهدة
الضرورية لانهم ينكرون مشاهدة الاكوان وينكرون ثبوتها إلا
أباهتم وأصحابه * وقول الخوارزمي بالتزام عدم تكليف من لا يفهم أوائل
الأدلة مستلزم تجويزه وجود من لا يفهم وذلك ممنوع ، لانا نعلم عموم
التكليف لمن ليس بمجنون وذلك يستلزم انهم يفهمون ذلك القدر
ومن قال انه لا يفهمه . علمنا أنه معاند وان صدق فلانه لم يلتفت الى
ذلك فعدم فهمه لعدم التفاته واصراره على تعمد الاضراب عن الشرائع
وأهلها ومما يوضح ما ذكرته من أن التعمق هو سبب الشكوك والحيرة أنا
جربنا ذلك في أجلى من العلوم الدقيقة وهي الطهارة والنية وهما من الامور
الضرورية والوجدانية وما شك فيهما إلا من تعمق ولم يسلك مسلك
السلف فيخرج بذلك من صفات العقلاء ويشك فيما يرى وهو مشاهد
وفما يرى وهو وجداني وهذا في العقول كأمراض الاجسام فنسأل الله العافية
من كل مرض ، ومن كل غلو في جسم أو عرض ، ومن لم ينفعه الدواء
الرباني والنبوي لم ينفعه الدواء الجبائي والمتوى * لا يقال أبطلتم النظر
كله ببعضه لانا لم ننف النظر كله بل أثبتنا النظر في أوائل الأدلة على
طريقة الساف كما نبه عليه القرآن ، وإنما منعنا التعمق في اثبات الأمور الجلية
في النظر بطرائق أخفى منها وبيننا بالتجارب وغيرها أن شدة التعمق
لا تنفع في الوسوس ولا تداويها بل تزيدها ولو في حق كثير فيترك
التعرض لما لم يجب من ذلك ويتعین ويتضيق حتى يكون ذلك فيداوى
بأسهل الادوية وأقربها كما قال المؤيد بالله في الزيادات وقد تقدم

نصه في ذلك

«وحدثني حى الفقيه العلامة امام علوم المعقولات (١) انه وقع منه في بعض أوقاته وساوس وشبهه في كل دليل من أدلة علم الكلام فسأل الله أن يلهمه إلى دليل لا يكون للفلاسفة فيه تشكيك فرأى في منامه قائلاً يقول له «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان» قال فانتبه مسروراً وعرف ان الله تعالى قد استجاب دعوته لان أحدهذين البحرين عذب فرات وأحدهما ملح أجاج والعذب يمضى في وسط المالح ولا يخالطه منه شيء من غير حاجز بينهما إلا حاجز القدرة الربانية التي عبر عنها بقوله «بينهما برزخ لا يبغيان» قال وهذا مما لا تدخله شبه الفلاسفة لان مبنى شبههم على الطبع وطبع الماء الاختلاط، وهذان البحران معلومان بالتواتر لمن بحث الاخبار، يشاهدهما التجار وأهل الاسفار، كما تعلم قاصيات المدائن والامصار* وكان رحمه الله تعالى يحكى هذا كثيرا ويراها خيرا من سائر أدلة علم الكلام مع أنه الذى قطع عمره في دقائق هذا العلم فلم يقل ان هذا دليل ضعيف لانه لم يبين على الاكوان ويستغل بتصحيح كلام الشيوخ وتأويل نصوص القرآن* وعندى أن الاستدلال بكل معجز معلوم بالتواتر كذلك لان شبه المعاندين منحصرة في القدم والطبع، والمعجز حادث بالضرورة ومخالف للطبع والعوائد بالضرورة، ولو كان قديما أو موافقا للعوائد كطلوع الشمس من المشرق في وقت طلوعها استحال أن يكون معجزا فلذلك احتجت الرسل بالمعجزات على أشد الخلق عنادا وكان هذا هو الذى أفهم به ابراهيم عليه السلام خصمه الكافر الذى زعم أنه يمحي ويميت فقال له ابراهيم عليه السلام «إن الله يأتى

(١) هو الفقيه علي بن عبدالله بن أبي الخير اه من هامش الاصل

بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر « وهذا الذي احتج به موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون وسماه موسى شيئاً مبيناً كما حكاه الله تعالى في سورة الشعراء حيث قال فرعون له «لئن اتخذت آلها غيرى لأجعلنك من المسجونين» قال موسى عليه الصلاة والسلام «أولو جنتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين الى قوله فالتقى السحرة ساجدين» ولم يقل أحد من جميع فرق المسلمين من المتكلمين وغير المتكلمين إن النظر في فعل الله تعالى المعجز ليس بطريق الى معرفة الله تعالى ولا قال أحد إن الاعجاز عرض ولا إن معرفة الاعجاز مستحيلة ممن لم يعرف ماهية العرض الاصطلاحي، وما يشغب به المبطلون من التباس المعجزات بالسحر مدفوع بمثل ما تدفع به شبه منكري العلوم الضرورية سواء، فكما أن نظر الكل الظل ساكنا وطعم المريض العذب مرّاً لا يقدح في الضروريات المكتسبة من الحواس كذلك هذا وهذه معارضة والتحقيق أن الفرق ضروري الاترى أن المشركين قد لهجوا بهذه الشبهة وقالوا إنه صلى الله عليه وآله وسلم ساحر فلم يلتفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأحد من الصحابة الى الجواب عليهم ولا ذكر الفرق بين السحر والمعجز على طريقة المتكلمين لوضوح الامر بل نزلوا قولهم إنه ساحر منزلة قولهم إنه كذاب وقولهم انه مجنون علما منهم انهم قد عرفوا الآيات فجحدوها واستيقنتها أنفسهم، وظهر أن الفرق بين النبي والساحر ضروري لكنه (تارة) يرجع الى العلم ببراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علم السحر كما

يعلم الانسان براءة كثير من أهله وصحبه من ذلك وهذا يحصل لمعاصريه بالخبرة ولنا بالتواتر واليه الاشارة بقوله تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وقوله (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا لارتاب المبطلون). وذلك لان السحر ليس من علوم العقل ولا بد من تعلمه من شيوخه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يلق أحدا من علمائه ويتعلم منهم ولم يكن يقرأ فيتعلمه من كتبهم ، وهذا مع قرآن صدقه وأحواله وإرادة الله تعالى لاقامة الحجة يفيد العلم بل نحن نجد العلم بذلك في بعض الاشخاص ممن لم يرد الله به اقامة حجة . وقد الفت في هذا المعنى مصنفامفردا سميته البرهان القاطع في معرفة الصانع وجميع ماجاءت به الشرائع . وذكرت فيه كلام الرازي في كتاب الاربعين له ورأيت الشيخ مختارا قد نقله في المجتبى * ومن كلام مختار في الفروق بين السحر والمعجز ما لفظه: على أن صاحب المعجز والسحر يفارق صاحب الحيل في الزى والرواء والهيئة والكلام والافعال في كافة الاحوال، وأنوار العبادة تتلأل في وجه صاحب المعجزات وآثار الصلاح تلوح في جباه أهل الخيرات سميتهم التحلم والاصطبار ودينتهم الصفح والعفو والاستغفار والجود والسخاء والايثار، والمصافاة مع المساكين والفقراء والحنو والحدب على الضعفاء ، والاعراض عن زخارف الدنيا واتباع الشهوات والاهواء * وأما أصحاب السحر والحيل فردائل التزوير لأثمة في وجوههم ، ومخايل الحيل والتخل واضحة في جباههم، قصارى همهم استمالة الاغنياء وايشار مواطن الملوك والامراء ، وغاية أمنيتهم نيل العز والجاه في الدنيا والظفر بما يوافق النفوس والهوى

انتهى* وممن جود ال كلام في النبوات الجاحظ فيبحث عن كتابه في ذلك وكذلك السيد الامام المؤيد بالله عليه السلام جود ال كلام فيها في بعض كتبه ومن الاحاديث الماثورة في هذا المعنى حديث هرقل مع أبي سفيان الذي أخرجه البخارى فينظر فيه - وتارة - يرجع الى الفرق بين المعجز والسحر بان يكون المعجز محكما باقيا كالقرآن فلا يجوز فيه السحر والا لجوزنا في جميع ما يحكى في الكتب من الاشعار أنها سحر بل في جميع الضروريات - وتارة - يرجع إلى مجموعهما فيكون أقوى كما في القرآن العظيم ، وبقية الفروق بين السحر والمعجز ليس مما يختص باهل التدقيق في العقليات بل هو من أوضح المعارف مثل كون اسحر في من تعلمه علمه وكونه لاحقيقة له ولا آثاره في فيل ولا سبع وانه لا يكون بحسب الاقتراح ولا يكون إلا بشروط مخصوصة في بعض الاوقات ومن الفروق الواضحة بين الانبياء وسائر أهل الخوارق : اتفاق الانبياء فالاول يبشر بالآخر والآخر يصدق الاول ، ودعائهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، ووعدهم بدار الآخرة ، وتخويفهم من عذاب الله تعالى ، واطمأنهم في رحمة الله ، وأماسائر أهل الخوارق فيختلفون في العقائد قطعا فمنهم الجهمي والجبري والاشعري والحنبلي والمعتزلي والمرجئي والرافضي والناصبي بل منهم النصراني واليهودي والمجوسى والفلسفى والدهرى والبرهمى وقد ذكر صاحب العوارف طرفا من ذلك صالحا في الباب السابع والاربعين من العوارف وصنف شيخ الاسلام ابن تيمية مصنفا في ذلك سماه الفرق بين الاحوال الربانية والاحوال الشيطانية وهو كتاب نفيس في هذا المعنى والله الحمد وانظر بانصاف هل جاء أحد من أهل هذا الحيل

والخوارق والطلاسم والاسحار بمثل هذا القرآن العظيم في جزالته
وبلاغته وجلالته وكثرة علومه وإخباره بالغيوب وصدقه فيما قد وقع
منها وإخباره عن أحوال المتقدمين وعدم تمكن أعدائه من تكذيبه في
شئ من ذلك مع عدم علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ضرورة
وهو معنى تصديق القرآن لما مضى بين يديه من كتب الله تعالى ثم انظر
الى عجز جميع الخلائق في جميع هذه الاعصار المتطاولة عن الاتيان
بمثله أو بسورة منه والى بقاء رونقه وجدته على مرور الازمان فالحمد
لله الذى من علينا به وجعلنا من أهله * وقد ذكر الشيخ العلامة مختار
ابن محمود المعزلى المتكلم أحد أئمة أصحاب الشيخ أبى الحسين
البصرى من الادلة القاطعة على حدوث العالم ستة براهين غير
دليل الاكوان كما مضى ثم ذكر فى الاستدلال على أن الله تعالى محدث العالم
أربع طرائق بعد أن اختار أن العلم بان المحدث لا بدله من محدث ضرورى
كما هو مذهب أبى الحسين وجود الكلام فى ذلك، ثم قال الطريق الرابع
فى إثبات الصانع فهو الاستدلال بحدوث الصفات وسمى هذه طريقة
الاحوال قال وهى الاوفق والاجدى لاكثر العوام والنسوان والجهلة الفارغة
من أهل الوبر والعبدان لسرعة وصولهم إلى معرفة المعبود وهذه
الاحوال والصفات منحصرة فى دلائل الأنافس والآفاق أما دلائل
الأنافس فكما يعرفه كل عاقل من أحوال نفسه أنه كان نظفة فتغيرت
به الاحوال فعاد عاقبة ثم مضى ثم لحما وعصبا وعظاما وآلات وحواس حية
موافقة لمصالحه، ثم بعد الانفصال من قرار مكين تعاقب عليه الكبر

والصغر والضعف والقوة والجهل والعقل والمرض والصحة والشهوة والنفار (١) إلى أن صار ذاقمة حسني مشتبهة مشتبهة قادرة عالمة فلا بد لهذه التغيرات من مغير قادر عالم مخالف لها * وأما دلائل الآفاق فما يحدث ويتجدد في العالم من طلوع القمرين والسكر والكب وغروبها ومن دوران الافلاك الدورات، والسفن الجارية، والرياح الداربات، والشهب والصواعق في الهوى وتغير أحوال الماء وإنشاء الغيوم الثقيل؛ وانزال الامطار على الوهاد ورءوس الجبال، لتسقى الزرع والاشجار، وتزينها بالازهار والثمار واختلاف الليل والنهار، والفصول والاحوال وقد جمعها الله تعالى في قوله: (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) الى أن قال (لايات لقوم يعقلون) وإذا عرف كل عاقل تجدد هذه الامور وتغير هذه الاحوال وعجز الاجسام عنها عرف معرفة ظاهرة أن لها محدثا مخالفا للاجسام والاعراض هذا كلام الشيخ مختار بحرفه ولو لاختشية الاطالة والاملال لذكرت جل البراهين الستة وبقية الطرق الاربعة فليطالعها الولد في كتاب المجتبي موفعا إن شاء الله تعالى وينبغي أن يذكر هنا آيات زيد بن عمر وابن نفيل رحمه الله تعالى في هذا المعنى، وللجاحظ في هذا المعنى كتاب العبر والاعتبار مختصر نفيس وللرازي في هذا المعنى المجلد الاول من أسرار التنزيل فانه يشتمل على الاستدلال على الله تعالى بانواع الادلة الجملة غير المعتادة وكذلك أجاب عن سؤال الطبيعيين بأن الطبيعة لو كانت مؤثرة لكان أثرها واحداً، ولما كان بعضها عسبا وبعضها لحمادما وبعضها عظما فعلمنا أنه مختار وقد رأيتكم

(١) في المختار النفار الزعر والتجافي وانظر ما مراد هنا اه مصححه

جمع في الأئمة الواحدة من الأصبع من الأشياء المختلفة فوضع فيها
جلدا ولحما وعصبا وعروقا وشحما ودماء وعظما ونخا وظفرا وشعرا ونبلة وواحد عشر
لونا لكل واحد منها لون يخالف لون الآخر قدرة وحياة وعضبا واستواء
وارتقاعا وانحداراً وخشونة ولينا وحرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة
وصلابة ورخاوة ، ثم خلق في بعضها الحياة دون البعض كالشعر والظفر
والعظم وجعلها مدركة لأمور شتى كالحرارة والبرودة واللين والخشونة
والقلة والكثرة والرطوبة واليبوسة فتبارك الله أحسن الخالقين انتهى
ما ذكره رحمه الله تعالى وقد أشار الله إلى بطلان مذاهب الطبيعيين
بهذا المعنى ونبه عليه سبحانه وجعل العقل قابلاً لذلك مقرابه فقال تعالى
(وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في
ذلك لآيات لقوم يعقلون) ولا شك أن الفلاسفة وأهل الشكوك الذين
تشككوا في الضروريات لا يكتفون بهذا * وقد ذكر الغزالي شبه
السوفسطائية وذكر أنه لم يتمكن من دفعها من نفسه إلا بنور قذفة الله تعالى
في قلبه وقد شاهدنا من شك في الضروريات من الموسوسين: فإن أصغينا
أسماعنا إلى دقيق الشبه ووقفنا جلي معرفة الله على ذلك حصل منه أمور
(أحدها) مرض القلوب حيث توقفت معرفة الله على القطع في مواضع
مشكلة لا يخلو القلب من شك فيها لدقتها فترتبط معرفة الله بها ويستلزم
الشك في بعض تلك المشكلات المشتبهات الشك في معرفة الرب الجلية بنص
كتاب الله وإجماع السلف فإن الله تعالى قال « قالت رسلهم في الله شك فاطر

السموات والارض* (وثانيها) مساواة الفلاسفة والكفرة لنا أو مقارنتهم في تلك الأدلة على الحق في تلك الدقائق وعدم وضوح عنادهم فيها وقلمنا تسلّم تلك الدقائق من اختلاف علماء الإسلام فيها فتقول الفلاسفة لأبي هاشم وأصحابه مذهبنا يبطلان طريقتم في الاستدلال كمذهب مخالفكم من المسلمين وأنتم لا تكفرونهم ولا تنسبونهم إلى العناد فسوا بيننا إن كنتم عدلية كما زعمتم وكذلك تقولون للفريق الثاني* (وثالثها) ما قدمنا من لزوم الشك المطلق لأن كل ناظر يجوز أن يعرض له الشك في تلك الدقائق في المستقبل لسبب، وهذا يستلزم الشك الخاص بالمستقبل وهو بالضرورة يستلزم الشك المطلق، وقد تقدم ما في هذا من النظر والتحقيق، وتوقف معرفة الله تعالى على ذلك يستلزم أنه أجلى منها فيكون الشك فيها أجدر ونحن نحمد الله لأنجد شكاً في الله لا محققاً ولا مجوزاً ولا مقدراً وذلك دليل على أن المعارف ضرورية عادية بعد النظر السهل وأنه لا يجب سواه وإن اختلفت المذاهب عقبيه لحكمة الله والله أعلم* (ورابعها) الأزراء بالسلف الصالح ومن اقتدى بهم واعتقاد قصورهم* (وخامسها) التسبب إلى الاختلاف والتفرق المحرم بنص كتاب الله تعالى* (وسادسها) تكفير من لم يعرف تلك الطرق الدقيقة معرفة محققة مع ما جاء في التكفير من التشديدوا أنه من كفر من ليس بكافر كفر ويشهد لذلك أخبار الخوارج الموارق فإن الذي اختصت به الخوارج دون سائر الداخلين في الفتن هو تكفير المسلمين وقد عظم القول فيهم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) وقال علي عليه السلام: لولا أن تتكلموا على العمل لا خبرتكم بما لكم من الاجر في قتلهم، وتواتر الحكم عليهم بالمروق من الإسلام في الاخبار

كما يعرف ذلك من طالع كتب السير والتواريخ والجوامع والمسانيد وكان أصل قولهم تكفير المسامين بالذنوب فكيف تكفير المسامين بالايان بكتاب الله والبقاء على ما عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدم الدخول في غرائب البدع المبتدعات والعجب الكبير بذلك ، والزراية بالمؤمنين وان لم يكفروهم بعد سلوك تلك المسالك ، والى هذه الطريقة التي اخترناها أشار التنزيل في قوله تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) وبذلك استدل الخليل عليه السلام وقد غلط عليه من قال إنه أراد بالافول دليل الاكوان لان دليل الاكوان شيء واحد ونسبته إلى القمر والشمس مثل نسبهته الى النجم فلو استدل به لنفسه أو على غيره حين رأى النجم لما انتقض برؤية القمر ثم برؤية الشمس ولا كان لقوله (هذا أكبر) في حق الشمس معنى بالنظر الى دليل الاكوان فتأمل ذلك بانصاف وانظر معنى الافول هل يطابق معنى الكون في الجهة وما الفرق بين الافول والبروز في لزوم الكون للمتجيز ثم ما الفرق بين الافول الاول الذي كان قبل طلوع هذه النيرات وبعده بالنظر الى دليل الاكوان ، والله يحب الحق وهو المستعان ، وإنما الدليل الواضح هو قوله (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) فجعل علة علمه ويقينه نظر المالكوت والعرض الكونى لا يسمى ملكا . فكيف ملكوتنا والمالكوت اسم مبالغة في الملك ، ولا فرق بين النظر في أحقر مخلوق وبين رؤية العرش والكرسى وجميع المحجوب من المالكوت والملائكة عند الخضم فلم يختص القرآن

بالامر بالنظر في ملكوت السموات والارض وتكرر هذا وترك ذلك الذي عندكم انه لا يعرف الله بسواه ، وكيف يجوز في العادات أن تنصرم الدهور وكتب الله خالية عن التصريح بأمر لا يعرف الله بسواه وورسله المبعوثه بالهدى لا تذكره لاحد ممن اتبعها وتعلم الهدى منها وكذلك من عاصمهم وكلام الله أبلغ الكلام ، والبلاغة مشتقة من بلوغ المتكلم بكلامه الى بيان مراده ووضوح مقصده وتخليصه من نقص الخطأ والتقصير عن اصابة الشوا كل (١) ولصق الفاصل ، فما للجيء الى ترك التصريح بل ترك التلويح الى ما لا يعرف الرب جل جلاله بغيره ، أما ترك التصريح فبين وأما ترك التلويح فلانه ليس بعد النص إلا الفهوم وله أقسام وشروط لم يأت ذكر الاستدلال بالاكوان على قوى منها ولا ضعيف ، ومن العجائب أنهم يحتجون بما ليس لهم فيه حجة ولا شبهة كما تقدم في قصة ابرهيم عليه السلام وكما يذكر في قوله تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت) الا تراه انما ذكر ما ليس يكون عند الخصوم وإنما ذكر الاجسام والاحوال* أما الاجسام فالابل والسماء ، والجبال والارض* وأما الاحوال فالخلق والنصب والرفع والسطح فهذه أحوال مختلفة وهي مع اختلافها محكمة واختلافها وإحكامها مناسب للمصالح وذلك دليل على حكيمة صنعها لان العقول تقضى بذلك في أدنى من هذه الامور وأدنى ما فيها من الاحكام العظيم فلو أراد ما ادعوا من الاشارة الى الحركة والسكون ماخالف بين العبارات في الجبال والارض والسموات لانها كلها ساكنة فيما يرى فلم سمي سكون السماء رفعا وسكون الجبال نصبا وسكون الارض سطحا وما الحامل على هذه واين هذا من علوم

المعاني والبيان ولذلك قال الزمخشري رحمه الله في كشفه في رد بعض تأويلاتهم مما لا يطابق البلاغة وما هذا الا من ضيق الفطر والمسافرة عن علم البيان مسافة أعوام، وبالجملة فالقوم من علماء الاسلام ولكل خطأ وصواب، وفي كل كلام قشر، ولباب وكل أحديث أخذ من قوله ويترك الا من عصم الله تعالى، ولنا من الخطأ أكثر مما هو لهم وليس القصد تزكية النفس والازراء بمن لانساوى ولانقارب أدنى مراتبه، وانما القصد ترك الغلو منهم المخرج لهم في المعنى عن حد البشر وان كان المعظم لا يصرح بذلك في لفظه فقد كاد يعاملهم تلك المعاملة أو يخاف من وقوع ذلك من غيره ولو في المستقبل فان المحقرات وسائل الى العظام * وقد روى أن أصل عباد الاصنام في قريش أو في العرب كانوا يحملون في أسفارهم من حجارة الحرم يتبركون بها، وقد فسر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لا تتخذوا قبوري عيدا) بنحو ذلك وقيل انما لم يبرز قبره حيث قبر في بيته خوفا من ذلك، ولذلك قال عدى بن حاتم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لم يحرموا ما حرموا ويحلوا ما أحلوا قال بلى قال هو ذاك) وانما استكثرت من نسبة الادلة الى العلماء وإن كانت الادلة كافية بانفسها لما رأيت في طباع الناس من الاستثناس بالقائلين بالادلة وجربت ذلك والله تعالى يسامح الجميع ويهدينا ويلهمنا الى الصواب، والذي أظنه في الشيخ أبي هاشم رحمه الله تعالى انه لا ينكر أن الحوادث المعلوم حدوثها لبنى آدم والسحاب والمطر والنبات تدل على

الله تعالى من غير حاجة الى الاكوان وان كانت الطبائع يوشع في ذلك فالجواب عليهم الحق لا يقدر في الاستدلال كما أن التشعيع في دليل الاكوان من أئمة الاسلام والفلاسفة كثير لم يقدر حوافيه عند الشيخ وأبعد من ذلك من القدر والريب دليل المعجزات ، وكيف يقدر الشيخ في هذه الاشياء مع تنبيه القرآن الذي لا يمكن تأويله على أنها أدلة ، وكيف يمكن الجمع بين الايمان بالقرآن وبأن هذه الامور لا تدل على الله وانما أراد الشيخ نفي الأدلة العامة لكل متحيز من جسم وجوهر محكم وغير محكم على نظره وطريقته ، فهذا يتمشى فيه اختلاف الانظار دون ما ذكرناه والله سبحانه أعلم بل نص ان متويبه في أول المحيط على أن ابا هاشم رحمه الله انما قال إنه لا طريق عند أبي هاشم يستدل بها على حدوث الجسم غير الاكوان ولم يقل على وجود الرب فوضح ما ذكرته نصا وكان ظنا والله الحمد والمنة وأستغفر الله العظيم من كل خطأ في عمل أو نظر قصر في فيه وهذا تمام المقام الاول في ذكر الحجة على الله تعالى من غير طريق الاكوان ومن قال بذلك (المقام الثاني) في ذكر الوجه في عدول عن دليل الاكوان وما عرض لي فيه من المباحث والكلام في ذلك يطول وقد كنت ناظرت في ذلك مناظرات طويلة وكتبتها وذهبت عنى وبقي منها شيء وقد رأيت أن أقصر على ما ذكره من هو أعض منى بالنواجد على هذا العلم وأغوص منى على اللطائف في هذا البحر معترفا بالتقصير في معرفة بعض عباراتهم في مقاصدهم الدقيقة ، واقفا على سواحل هذه البحار العميقة ، مكتفيا منها بما عرفته مستعينا بالتمسك بالعرفوة الوثيق عما لم أعرفه معرضا للسائل أيده الله تعالى الى النظر بالعدل

والحكم بالانصاف بين هؤلاء المختلفين وإن كان لسان حالهم ينشد للمتعرضين

أقول لمحرز لما التقينا تنكب لا يقطرك الزحام

قال الشيخ العلامة مختار بن محمود في خاتمة أبواب العدل والتوحيد المشتملة على أربعين مسألة مما اختلف فيه المعتزلة وألها مسألة الاكوان قال فيهارحة الله تعالى (المسئلة الاولى في الاكوان) قال أكثر شيوخ المعتزلة من البصرية والبغدادية بانتفائها وهو اختيار ناصر الاسلام ابى الحسين وقال أبو هاشم وأصحابه بثبوتها ولا بد من بيان المراد بالكون في المقام أولاً وتلخيص محل النزاع فنقول: كل من أراد تحريك الجسم أو تسكينه يفعل اعتمادات من الجذب أو الدفع أو الامساك فيحصل التحرك وهل يفعل شيء آخر حتى يحصل التحرك والسكون أم يحصل بتلك الاعتمادات؟ فذهب أبو هاشم وأصحابه إلى أنه يحصل معنى آخر غيرهما يحصل التحرك والسكون به وسموه الحركة والسكون، وذهب سائر الشيوخ إلى نفيه - والحاصل - أنه ليس بين اعتماد القادر في محل قدرته والتحرك والسكون واسطة ومعنى زائد به يحصل التحرك والسكون، عندنا خلافهم وكذلك من رمى حجراً أو سهماً تولد هذه الاعتمادات الحاصلة في الجهة الاولى اعتمادات أخرى في الجهة التي تليها إلى أن يصل المرمى. وعند البهشية الاعتمادات الاول تولد اعتمادات ومعنى حتى يتحرك من الجهة الاولى إلى الثانية ثم تلك الاعتمادات لتولد اعتمادات وحركة وهكذا إلى أن يصل إلى المرمى أو نفي الاعتمادات فيسقط ولا بد للخائض في هذه المسئلة من تحقق ما ذكرناه فان للبهشية فيها خبطاً كثيراً ومغالطات وترددات لا تندفع إلا به فالحجة لاصحابنا في ذلك من وجوه (الحجة الاولى) أنه لو ثبت هذا الزائد وهو فعل القادر وجب أن يعلمه فاعله جملة أو تفصيلاً

واللازم منتفٍ فينتفي الملزوم، وإنما قلنا بأنه لو فعله لعلمه جملةً أو تفصيلاً لأن القادر هو المؤثر بحسب الداعي، والداعي إلى المدعو إليه لا يتصور بدون علمه جملةً أو تفصيلاً فثبت أنه لو كان فعل القادر لعلمه جملةً أو تفصيلاً، وإنما قلنا ان اللازم منتفٍ لان هذا المعنى الزائد لا يخطر ببالنا عند تحريك الاشياء وتسكينها وجذبها ودفعها أصلاً فضلاً من أن يعلمها خصوصاً في حق العوام فانهم لا يفهمونه بالتفهم البليغ فضلاً من أن يعلموه بالمشاهدة (الحجة الثانية) أنه لو ثبت هذا الامر الزائد لزم أحد أمور ممتنعة وهو اما تخلف اللازم عن الملزوم أو مخالفة الاجماع أو التناقض لانه لو ثبت هذا الامر الزائد ففعله لا يخلو اما أن يتوقف على الداعي أو لم يتوقف فان لم يتوقف يلزم تخلف اللازم عن الملزوم، لان الداعي يلازم فعل القادر المختار وإن توقف فلا يخلو اما ان يكون شاملاً للفعل المباشر والمتولداً ولا يكون فان لم يكن يلزم مخالفة الاجماع لان ثبوت هذا المعنى الزائد غير شامل منتفٍ بالاجماع، أما عندنا فلا تنفائه أصلاً وأما عندنا البهيمية فثبوتها شاملاً وان كان شاملاً يلزم مباشرة هذا المعنى الزائد بالداعي فيكون معلوماً للمباشر إجمالاً وتفصيلاً مع أنه غير معلوم له فيلزم التناقض وما يؤدي الى المنتفٍ فهو ممتنع (الحجة الثالثة) أنه لو ثبت ذلك المعنى الزائد فاما أن لا يحصل في الجسم المتحرك ولا سبيل اليه بالاجماع أو يحصل فيه ولا سبيل اليه لانه حينئذ لا يخلو إما أن يحصل فيه في الحيز الاول ويوجب كونه كائناً في الحيز الثاني أو يتوقف حصوله فيه على حصوله في الجهة التي توجب كونه كائناً فيها لا سبيل الى الاول بالاجماع ولا سبيل الى الثاني لانه إذا توقف حصوله فيها على حصوله في الجهة التي توجب كونه كائناً فيها التوقف حصول ذلك المعنى على الكائنة فيها توقف

المشروط على الشرط وتوقفت كائنته فيها على ذلك المعنى الموجب للكائنة فيها توقف المعلول على العلة فيلزم توقف وجود كل واحد منهما على وجود الآخر فيلزم الدور وأنه باطل على ما مر تقريره ، فان قيل لانسلم بان القادر هو المؤثر بحسب الداعي وهو مختلف فيه ولئن سلمناه ولكن لانسلم بان الداعي يستدعي العلم بل الظن ، والتجوز يكفي داعيا كنصب الشبكة للصيد أو التجارة للربح ولئن سلمناه ولكن لانسلم انتفاء العلم الاجمالي بل هو ثابت للعلماء والعوام لانهم يعلمون عند التحريك والتسكين أنهم يفعلون أمراً من الامور وانه علم إجمالي كمن علم أن زيدا في العشرة وان لم يعلمه على التفصيل ، ولئن سلمناه ولكن الكون الذي يثبته مسبب الاعتماد ، والداعي إنما يحتاج اليه في المباشرة دون المسبب كمن رمى أذية من داره أو حجراً من طريقه لا يتوقف على الداعي إلى المرعى هذا على الحجة الاولى ، وأما على الحجة الثانية لانسلم بان الداعي لازم في فعل القادر المختار وليس كذلك الا ترى أن اختيار المضطر أحد الطرفين المتساويين أو أحد البابين أو العطشان أحد القدرين المتساويين فعل القادر المختار وإن لم يوجد منه داعي الترجيح وكذلك فعل النائم والساهي فعل القادر المختار وإن تجرد عن الداعي ولئن سلمناه ولكن لانسلم بانه يلزم مخالفة الاجماع بتقدير عدم الشمول ولا نسلم بان هذا الاجماع حجة هذا على الحجة الثانية ، وأما على الحجة الثالثة فلا نسلم بان احتياج كل واحد منهما إلى الآخر منتف وجاز أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر في وجوده ثم يوجدان معاً كالعلة والمعلول فانه لا توجد العلة بدون المعلول ولا المعلول بدون العلة لوجود التقارب كذلك هنا ، على أن عين ما ذكرتم لازم في القادر لانه

لا يجعله في الجهة الثانية الا بعد إخراجه من الجهة الاولى ولا يخرج من
الجهة الاولى إلا بتحصيله في الجهة الثانية فلو لم يهتد بهذا التوقف انتفاء
الموجب وهو الكون يلزم انتفاء القادر أيضاً وكذلك ينتقض هذا بطريقتين
أحد الضدين على محل الآخر فان السواد انما يحل محل البياض
لوزال البياض وانما يزول البياض إذا حل السواد محله وانه لا يمنع طرياقه
كذا هذا ، ولئن سلمنا بأن ما ذكرتم من الحجج يدل على انتفاء الكون
المختلف فيه ، فعندنا ما يدل على ثبوته ، وقد ذكر أبو هاشم وأصحابه
لإثباتها حججاً كثيرة ولكن أقواها وأشهرها وأمتنها وأبهرها في زعمهم
واعتمادهم أربعة (أحدها) أن القادر لو قدر على أن يجعل الجسم
كائناً متحركاً أو ساكناً من غير واسطة الكون لقدر على ذات الجسم (وثانيها)
أنه لو قدر على بعض صفاته من كونه متحركاً أو ساكناً لقدر على سائر صفاته بأن
يجعله حياً قادراً عالمياً مدركاً سمياً بصيراً ، واللازم منتفٍ فينتفى للزوم
وذكروا لهذه الملازمة وجهين (أحدهما) أنه لو قدر على جعله كائناً لكان
الجسم متصرفاً ومقدوره فيقدر حينئذ على ذاته وسائر صفاته (والثاني) القياس
على الكلام فإنه لما قدر على جعل الكلام خبيراً أو أمراً كقوله: تيامنوا وأمروا
وتهديداً كقوله تعالى «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» قدر على ذات
الكلام وسائر صفاته كذا هذا (وثالثها) أنه لو كان التحريك بالقادر لما
تعذر عليه تحريك الثقل دون الخفيف لانه المصحح لتحريكهما تحيزهما
وحال القادر معهما على السواء فلا بد من معان وأكوان تفل وتكثر

فالتقلييل الذي يكفى لتحريك الخفيف لا يفي بتحريك الثقيل ، فلهذا يتعذر عليه (ورابعها) من يكون بالفاعل زائد على الوجود لا يتجدد في حال البقاء . والكائنية تتجدد في حال البقاء فلا يكون بالفاعل ، بيان الاول من وجوه : أحدها ، أن القبح والحسن لما كان بالفاعل لم يتجدد في حال البقاء فكذا في غيرهما من الصفات . الثاني ، أن كون الكلام أمراً أو خبراً عن زيد أو خبراً عن عمرو لا يتجدد بعد الحدوث لكونه بالفاعل فكذا صفات الاجسام . الثالث ، أنه لا يصح من زيد أن يجعل كلام عمرو خبراً أو أمراً لما أنه لم يحدث به فكذا الجسم لما لم يحدث بالفاعل منا لم يصح منه أن يجعله كائناً ﴿ قلت ﴾ ويمكن أن يقال (وخامسها) لو كان التحرك والسكون بالفاعل لصح منه تركه بعد الاعتماد لان القادر هو الذي يصح منه الترك والفعل ، ولما لم يصح منه الترك دل على أنه بالوجب وهو الكون الذي يصح منه الترك ﴿ الجواب ﴾ (١) قوله : لا نسلم بأن القادر هو المؤثر بحسب الداعي ﴿ قلنا ﴾ لما بيناه في أول الكتاب في أبواب التوحيد ، والثاني ؛ أنا نعى بالقادر هو المؤثر بحسب الداعي إذا لم يمنعه مانع وبالوجب خلافه فنقول بتحريك الجسم وسكونه بالقادر على هذا التفسير من غير واسطة الكون والخصم ينكره فصار ملزماً بهذه الحجة وقوله لا نسلم بأن الداعي يستدعي سابقة العلم بل الظن والتجوز يكفى ﴿ قلنا ﴾ الجواب عنه من وجهين

(١) هكذا في نسختين خطيتين وفي الثالثة بعد قوله وهو الذي يصح منه الترك فكيف الجواب قوله الخ ولعلها الصواب اه مصححه

أحدهما أن الظن والتجويز للمصلحة في الفعل يستدعي تصور ذلك الفعل والمصلحة، والظن لا يصور الحقائق (والثاني) أنا نحرك الأشياء ولا يكون لنا ظن ولا وهم ولا مجوز لشيء غير الاعتماد والتحرك بل نعتقد انتفاءه، قوله العلم الاجمالي بالكون ثابت لكل أحد لأنه يعلم أنه يفعل أمراً من الأمور قلنا نعم وهو الاعتماد والتحرك ولا كلام فيهما ولكن لانسلم أنه يفعل أمراً سواهما وهو بين الانتفاء، قوله والكون المختلف فيه مسبب الاعتماد والتحرك ولا كلام فيهما ولكن لانسلم أنه يفعل أمراً سواهما والداعي إنما يدعو إلى المباشر دون المسبب، قلنا لانسلم أنه ليس يدعو إلى تحركه وسكونه وأنه مسبب لا مباشر وأن الجواب الثاني أن جميع الاكوان لا تكون مسببة عند البهشية وإنما المسبب منها ما يوجد في غير محل القدرة أما الموجودة في محل القدرة فهي مباشرة عندهم فنحن نذكر النكتة فيها* قوله الحجة الثانية لانسلم بأن الداعي لازم للقادر، قلنا الجواب عنه من الوجهين اللذين مر تقريرهما آنفاً. وأما اختيار المضطر أحد الطريقتين أو أحد البابين أو أحد القدرين وفعل النائم والساهي فالجواب عنه من وجهين :

(أحدهما) أنا نذكر النكتة في غير المضطر والمتحيز من القادر (والثاني)

أنا لانسلم انتفاء الداعي عند الاختيار ثمة بل لا يحتاج إلا مرجح لطيف حقيق أو خيالي يثبت عنده ولكن لا يذكر لظفه وضعف قوته قوله لانسلم مخالفة الاجماع: قلنا لان ثبوت الكون في بعض الحركات

والسكنات دون البعض منتفب بالاجماع، أما عندنا فاعدم ثبوته شاملا وأما عند
 الخضم فثبوته شاملا فالاجماع منعقد على أحد الشمولين والشمول ينفي
 الاختصاص ، قوله لم أقلم كان هذا الاجماع حجة (قلنا) لأن المتكلمين
 المعتزلة والسنية والفقهاء يستدلون به وهذا آية كونه حجة (والثاني) أن
 انتفاء الاختصاص قضية ساعد الخضم عليها ، وكل قضية ساعد الخضم
 عليها تغني عن إقامة الدليل عليها . قوله : لم أقلم إن احتياج كل واحد
 من الكون فيها والكائنية في الجهة الثانية منتف (قلنا) لانسلم بأن
 هذا الاحتياج ليس الا التقارن بينهما في الوجود كزوال البياض عند
 حلول السواد، بل هو أمر زائد عليه لانه لما استحال عندهم أن يكون هذا الكون
 بغير محل وفي الجهة الاولى فالشروط في وجوده الى كون محله كائناً في الجهة الثانية
 ويستحيل أن يكون كائناً في الجهة الثانية بدون الموجب لكونه كائناً وهو الكون
 ويلزم احتياج الاول الى الثاني احتياج المشروط الى الشرط، واحتياج الثاني
 الى الاول احتياج المعلول الى العلة ، وأنه أمر زائد على نفس التقارن في
 الوجود زماناً؛ وأنه ممنوع لما يينا وقررنا في بطلان الدور أنه يلزم تقدم الشيء على
 نفسه وأنه محال ، وبهذا تدفع صور النقوض « أما القادر فهو غير محتاج الى
 إزالته عن الجهة الاولى بل احتياجه الى تكوينه في الجهة الثانية ، فأذن
 كونه فيها يزول عن الاولى تبعاً وضرورة لأن محتاج اليه، وكذا زوال أحد
 الضدين لا يتوقف على طريان الضد الثاني عليه بل قد يزول بالقادر
 أو بما لا يكون ضداً له ، قوله لو قدر على التحرك لقدر على ذات الجسم
 وسائر صفاته (قلنا) لانسلم ، قوله الجسم حينئذ يكون مقدوره ومحل

تصرفه (قلنا) من جميع الوجوه أو من هذا الوجه فحسب (الاول) ممنوع ولا يمكن دعواه . ألا ترى أن الجسم مقدوره بواسطة الكون وليس بمقدور له من جميع الوجوه حتى لا يقدر على ذات الجسم وسائر الصفات بواسطة الاكوان ، ولان إلحاقه بالكلام من غير قياس ، فلا يلزم من ثبوت حكم ما في ألف ألف صورة ثبوته في غيرها فكيف يلزم من ثبوته في صورة واحدة ثبوته في غيرها ألا ترى أن الحيوانات العنصرية تحرك فكفها الاسفل في مضغها . والتمساح وحده يحرك فكفه الاعلى في مضغه ، ولئن تمسك بالقياس على الكلام وقال انما قدر على ذات الكلام وسائر صفاته لكونه قادرا على بعض صفاته وهو جملة خبراً أو أمراً أو خبراً عن زيد أو عمرو وهذا معنى موجود في الكائنية لو كان بالفاعل فيلزم قدرته على ذات الجسم وسائر صفاته لما ذكرنا من العلة الجامعة بينهما (قلنا) الجواب عنه من وجوه

﴿ أحدها ﴾ من حيث القدر في صورة هذا القياس على أصولكم أو على العموم ، ذكرتم أنه قدر على ذات الكلام لما قدر على بعض صفاته فلا نسلم أولاً أن الكلام ذات وهذا لان الذوات ثابتة عندهم في الازل دون المركبات والكلام من المركبات

﴿ الثاني ﴾ أن القياس تعدينية الحكم من أصل معلوم إلى فرع معلوم ، والصفات بأسرها غير معلومة عندهم ولا يقال الدال على الصفة معلوم لانا نقول الدال على

الحكم اما الذات وحدها ولا سبيل اليه لانها وحدها ليست بدليل بالقطع والإجماع، أو الصفة وحدها ولا سبيل اليه لكونها غير معلومة عندكم، أو المجموع ولا سبيل اليه لكون بعضها غير معلوم أو لاشيء منها، وحينئذ ينتفى منها الدليل أصلاً ﴿والثالث﴾ لانسلم بأنه يقدر على جعل الكلام خبراً بغير واسطة بل انما يصير خبراً بارادته الخبر وأمره بارادته الامر وخبراً عن زيد بن عمر دون زيد بن خالد بواسطة الارادة فلختلف حكم الاصل والفرع وانه يمنع المقايسة ﴿والرابع﴾ إن سلمنا أنه يقدر على جعل الكلام خبراً لكن قلتم بأن القدرة على بعض الصفات علة للقدرة على الذات بل الامر على القلب والعكس لان الذات أصل والصفة تبع . فيجوز أن تكون القدرة على الاصل علة للقدرة على التبع لانه موافق للعقل والشرع ، أما جعل القدرة على التبع علة للقدرة على الاصل فما تستبعده العقول السليمة والطباع المستقيمة عند تظاهر لامارات عليه فكيف اذا لم يكن شبه أمارة ، وكان من وساوس النفس الامارة او على هذا تقول على الوجه الثاني لم قلتم بأن القدرة على بعض الصفات كالتجربة علة للقدرة على غيرها ولم لا يجوز الامر على العكس، ولا يقال بأن القدرة على الذات والقدرة على سائر الصفات تدور مع القدرة على البعض وجوداً وهدماً لأننا نقول الجواب عنه من وجوه .

أحدها أن القدرة على سائر الصفات كما دارت مع القدرة على البعض دارت مع القدرة على الذات في الكلام فما كان جعل القدرة على الصفة علة أولى من جعل القدرة على الذات علة وقد أشرنا إلى أولوية الثاني، أو نقول يكون المجموع علة وهو القدرة على الذات وعلى هذه الصفة والثاني لأن سلم بان الدوران دليل على المدار للآثر الدائر وليس كذلك، الا ترى أن الحكم يدور مع الشرط والعلة المساوية تدور مع المعلول وجوداً وعدمًا وأحد الحكيمين المتلازمين يدور مع الآخر وجوداً وعدمًا وإن لم يكن شيء من ذلك علة وكذلك التحرك يدور مع الاعتماد وإن لم يكن له عندكم (والثالث) إن سلمنا دلالة الدوران لكن في حيز التعارض لأن القدرة على هذه الصفة تدور مع القدرة على سائر الصفات وجوداً وعدمًا فتكون القدرة عليها علة فلا تكون معلولة، ولا يقال المدعى أن القدرة على بعض الصفات علة للقدرة على الباقي وحينئذ يثبت المدعى لانا نقول لأن سلم بأن ذلك البعض من حيث إنه بعض علة بل كون ذلك البعض علة لكونه قدرة على أعلى الصفات وأعسرها كالقدرة على الأحياء والافتقار والعقل والشهوة والنفار علة للقدرة على التحرك أما على العكس فلا، والدليل الجازم على بطلان هذه القاعدة وما ذكره من القياس أن القادر منيا يقدر على تحريك الجسم وتسكينه بواسطة الكون أو بغير واسطة ولا يقدر على ذات الجسم وسائر صفاته كالحياة والقدرة والعلم لا بواسطة ولا بغير واسطة، وفيه مظان جملة ومباحث كثيرة أعرضت عن ذكرها لوقوع الكفاية التامة بشيء مما ذكرته قوله لو كان التحريك بالقادر لما تعذر عليه تحريك الثقيل دون الخفيف

قلنا الجواب عنه من وجوه أحدها لانسلم بأن نسبة القادر إليهما على السواء وإنما يكون أن لو كانت اعتماداته أو أكوانه كافية لتحريك الثقل كما تكفي لتحريك الخفيف والاستوى على أن نسبة القادر إليهما بواسطة أو بغير واسطة ليست على السواء بالاجماع (الثانى) أننا لانسلم بان ذلك الامر المحتاج اليه القابل للقلّة والسكثرة هي الاكوان بل ذلك عندنا هي الاعتمادات التي يوجد بها القادر في محل القدرة بدليل تفاوت التحريك بتفاوت الاعتمادات (والثالث) أن القول بثبوت ما ذكرتم من الاكوان الموجبة للزيادة في الكائنات يؤدى إلى المحال لانه يؤدى إلى التزايد في الكائنات والتزايد فيها محال وما يؤدى إلى المحال فهو محال ، وإنما قلنا إن التزايد في الكائنية محال لامهاعبارة عن شغل الحيز المحال ولا يقال التزايد في الكائنية صحيح وما يكون بالفاعل لا يصح فيه التزايد كالوجود وإنما قلنا إن التزايد فيه صحيح بدليل أن القوى إذا اعتمد على الجسم يعجز عن جذبه الضعيف ولولم يصح التزايد فيها لما عجز وهذا من شبه البهشية أيضا لانا نقول استحالة التزايد فيها بدهى ضرورى لما بينا أنه عبارة عن الشغل والمحاذاة بجسم آخر ويستحيل التزايد فيها وإنما يعجز الضعيف عن جذبه لزيادة اعتمادات القوى لالصحة لتزايد فيها قوله ما يكون بالفاعل زائد عن الوجود لا يتجدد في حال البقاء والكائنية تتجدد في حال البقاء قلنا لانسلم بأن ما يكون بالفاعل لا يتجدد في حال البقاء وأما ما ذكر من الوجوه الثلاثة فالها يرجع إلى القياس واثبات العلة الجامعة بالدوران وقد أجبنا عنه ، على أن الحسن والقبح معلل بكيفية تقترن بأول الحدوث وهو أن ينوى إحداثه

لمصاحبة الاحسان أو الطاعة أو دفع المضرة في الحسن وعكسها في القبيح وذلك متعذر حال البقاء بخلاف الكائنية وأما وقوعه خبراً عن زيد ابن عمر فلان الكلام والخبر وقت الحدوث لا يخلو عن طلب أو خبر عن شخص معين دون غيره فيتجدد غيره بعد تناقض فلا يصح ولان التجدد في حال البقاء في الكلام مستحيل ، لان الصوت لا يبقاء له ولا كذلك الجسم وبما ذكرنا خرج الجواب عن الثالث قوله لو كان التحرك بالفاعل لصح منه الترك بعد الاعتمادات قلنا هذا ينتقض بجميع المتولدات من الافعال قال خاتمة أهل الاصول علامة الدنيا أفضل التكلمين من الآخرين والاولين، تقي الملة والدين ناصر الاسلام والمسلمين العجالي قدس الله روحه في الجنة ونور بقناديل العفو والغفران ضرمحه الامام الذي بلغ في تقرير قواعد العدل والتوحيد مبلغاً لم يبلغ اليه الاوائل والاواخر وقد سمح خاطره بدقائق لم تسمع بمثلهما الخواطر، وأكثر ما أذكره في مسائل الثلث الاول من خاتمة أبواب العدل من ملتقطات تصنيفه الكامل في الاستقصاء قال في آخر هذه المسئلة. ولقد صدق الشيخ أبو الحسين رحمه الله تعالى في مقاله : انى لو اقتصرت على ذكر أدلتهم وعللهم لكفى الناظر فيها في العلم بأنها لا تثمر لنا فضلاً عن علم ، اترى قلوبهم تسكن ونفوسهم تطمئن عندها ثم قال تقي الأئمة العجالي رحمه الله فان هذه الحجج التي قنعوا بها في إثبات هذا الاصل العظيم ليس يصلح إيرادها عند ملاعب الصبيان في ترويح الخيال فكيف بمثل أصل هو أساس الاسلام وأكثر مسائل مذهبهم تنبني على هذا الاصل فانهم جعلوا المعاني المقدورة إلى طريق

إثباتها أربعة وعشرين جنساً ، عشرة منها مشتركة في القدرة عليها بين قادر الذات وقادر القدرة ، الخمسة منها أفعال الجوارح وهي الاكوان والاعتمادات والتأليفات والآلام والاصوات ، وخمسة منها أفعال القلوب وهي الاعتقادات والظنون والانظار والارادات والكراهات ، واما بقيتها فيختص بالقدرة عليها الله تعالى وهي الجواهر والالوان والظموم والروائح والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والقدرة والشهوة والنفرة والبقاء والموت عند أبي علي ، فانظر إلى هذا الاصل الذي لو أحيل فانه يحيل أصلهم للاسلام ويحيل من مذهبهم هذه الاقسام الكثيرة ثم صححوها هذا الاصل بهذه الامارات الضعيفة التي لا تثمر ظنا ولا خيالا ، ولا تزيد الهداية الاعنادا وخبالا ، عصمنا الله عن الضلال بحق محمد وآله خير آل ، والله الموفق انتهى بحروفه وتمامه يتم المقام الثاني والحمد لله رب العالمين

ثم نرجع إلى تمام الكلام في القرآن الكريم بعد هذه الزيادة فنقول (الفصل الثاني) في الرد على الخصم في دعواه علمه بالذات وهو ماسمته منه ، وعلمه بتأويل التشابهات وهو مما بلغني عنه فهاتان دعوتان : الدعوى الاولى علمه بالذات والصفات وأن الله لا يعلم من ذلك غير ما يعلمه ، وهذه مسألة عظيمة قديمة قد طال الخوض فيها وكفيها مؤنة التطويل في تحرير الادلة في مبانيها ولكننا نشير الى نكنتين جليلتين إحداهما : أن قولنا فيها هو قول أمير المؤمنين وامام الراسخين علي بن أبي طالب عليه السلام كما قرره شراح كلامه في قوله (بها امتنع منها واليه احاكمها) أي امتنع من العقول بمعرفة العقول لعجزها عن إدراكه والاحاطة به ، واليه احاكمها أي اجعلها محكمة في ذلك لانه نزلها

منزلة الخصم المدعى وانلصم لا يحكم الا حيث تتضح الحججة ويفتضح جاحدها
 فلا يرضى لنفسه بدعوى ما يعلم كل عاقل كذبه فيها (فلت) ولم يعلم اعلى عليه
 السلام مخالف في الصدر الأول ولا انكر عليه كلامه هذا احد بل احتج به
 الامام المؤيد بالله عليه السلام بحجة حمزة عليه السلام على ضعف كلام ابي هاشم
 ذكره في شرحه للنهج في شرح قول علي عليه السلام وذكر ابن أبي الحديد اعتراله
 أنه قول لم تنزل فضلاء العقلاء عليه واحال بالادلة الى مواضعها ثم انشد لنفسه في
 نصرته هذا القول ما يكفي ويشفي مثل قوله :

تاه	الانام	باسرهم	فاليوم	صاح القوم	عربد
تالله	ماموسى	ولا	عيسى	المسيح	ولا محمد
عرفوا	ولا جبريل	وه	وإلى	محل القدس	يصعد
من كنه	ذاتك	غير از	ك واحد	في الذات	سرمد
عرفوا	إضافات	ونف	يا والحقيقة	ليس توجد	
ورأوا	وجودا	دائما	يفنى الزمان	وليس ينفد	

الى قوله :

فلتخسأ	الحكماء	عن	حرم له	الاملاك	تشهد
من انت	يارسطو	ومن	افلاط	قبلك	يامبد
ومن ابن	سينا	حين قر	ر ما	هذيت	به وشيد
هل انتم	إلا	الفرا	ش رأى	السراج	وقد توقد
فدنا	فحرق	نفسه	ولو اهتدى	رشدا	لأبعد

ومما قال في ذلك :

فيك يا أغلوطة الفكر تاه عقلي وانقضى عمري
 فلحنى الله الألى زعموا انك المعلوم بالنظر
 كذبوا ان الذى زعموا خارج عن قوة البشر
 سافرت فيك العقول فما ربحت الاعنا السفر
 رجعت حسرى وماوقفت لا على عين ولا اثر

وله في هذا المعنى كل مقال فصيح، ومعنى صحيح، وذلك مبسوط في موضعه من شرح كلام علي عليه السلام وينبغي ان ينقل كلامه كله بحروفه لجودة عبارته وغزارة علمه ولا نبيض هذه المسودة حتى نستوفي نقله إن شاء الله تعالى ونذكر ما نقله الرازى عن الفلاسفة في الكلام في الالهيات وقد نظمت ذلك في نظمي في سر قل هو الله أحد والحمد لله* وكفى بقول الخصم: ان الله (تعالى عن ذلك علوا كبيرا) لا يعلم في نفسه الا ما يعلمون، شناعة فاحشة يكفى في بطلانها سماعها ويفضى الى التعطيل وينبني عليه امتناعها، وكفى بامير المؤمنين سلفا وقدوة وإماما وحجة في هذه إشكالة كيف وقد نظرت العقول حتى وقفت خاسئة ورجعت الابصار كرتين فانقلبت حاسرة ويطابق السمع على ذلك قرآنا واخبارا و آثارا، وكفى قوله تعالى في ذاك (ولا يحيطون به علما) والتطويل في الجليات يوم انهاخفية، وججدة لمعاندين وبله بعض المتكلمين تشكك في انها جلية وقد رأيت الاقتداء بالعلامة عبد الحميد بن ابي الحديد في هذا المقام لا ثقافاقتصرت فيه على رسم آيات كنت قلتها في ذلك وهي هذه

لى في القديم مقال غير منتكر سيمحانه عن خيال الوهم والفكر
 اجله ان تحيط الناظرون به ذاتا وابن قوى النظار والنظر
 فالعلم قسمان تصديق ومعرفة تختص بالذات والتصديق بالخبر

القسم الاول بالعرفان متسم

مفعوله واحدفى النحو والنظر

وهنا افترق العلمان ماوقف الـ نظار فى ذا على عين ولا أثر
 وإنما علموا أوصافه جملا

من غير كيف ونفى النقص والصور

فان معرفة الموصوف جل عن الـ * إدراك بالفكر والتخييل بالبصر
 والله يعرف قطعاً ذاته وسوا * ه ليس يعرف إلا الوصف بالنظر
 فان يقرأوا بهذا فللراد وإن * حادوا فقد وقعوا فى أخفش النكر
 هل جهلوه لتجيب العبيد أواد * دعوا لعرفانه فى مقطع الفكر
 الله أكبر هذا قاطع ولنا * عليه أكبر برهان من الزبر
 تنزه الرب فى الذكر المنزل أن * يحيط علما به خالق من البشر
 تمدحاً لم يكن فى الذكر مختلفا * قطعوا ولا غلطاً من وهم ذى نظر
 فان يقولوا كلام الله مشتبهه * فأين قولهم فى محكم السور
 وكل مشتبه فالحكمات له * أم كما جاءنا فى أصدق الخبر
 وفى الحديث دلالات لنا ولنا * حديث موسى كلم الله والخضر
 وفى كلام أمير المؤمنين لنا * هذا وحسبك برهاناً منتصر
 وفى وصيته ابن المصطفى حسناً * دلائل لفقير القلب معتبر
 فلا تؤوله المعقول يمنع أن * يوصى بمشبهه خوفاً من الغرر
 وعن وجوه الكراسى قدر واه لنا * عبد الحميد لشرح النهج ذى العبر
 وجنح القول فيه بالقصائد أم * ثلاثا تسير مسير الشمس والقمر

في شرح قول أمير المؤمنين بها ام * تناعها واليها الحكم في النظر
تلك الالى حكمت بالمنع قد حكمت * بها الملائك أهل القرب والنذر
والراسخون وأدنى من له أدب * وكل متضع لله منكسر
فلا ترجع عليهم غير محتفل * شيوخ جبة إن جاروا فلا تجر
والفرق كالصبح لا يخفى على أحد * واخبر تميز فليس الخبر كالخبر
ولبعض الاصحاب في هذا المعنى آيات أجود من هذه ينبغي اثباتها هنا
إن شاء الله تعالى وهذه الايات التي تقدمت الاشارة اليها في فضل قل هو
الله أحد أوردتها لما فيها من نفي التشبه وهي هذه :

في الواحد التوحيد في ذاته * والوصف والفعل لمن يفهم
والصمد الغاية في مجده * وقصده في الامر إذ يعظم
والملك في الاول والحمد في الا * ثاني تعالى الملك الاكرم
والملك أصل والثنا غاية * ومنهما أسماءه تقسيم
والسبع فافهم قسمت فيهما * وفي الذي هو منهما يازم
يعنى بالسبع السبع الثاني وهي الفاتحة لان ابتداءها بالحمد الذي هو الغاية
المقصودة بخلق العالمين ولذلك ختم به الفصل يوم القيامة وبين الحمد (١) بكونه
رب العالمين وهذه صفة العظيم وهي تقتضى التوحيد بظاها ثم يليها
الرحمن الرحيم وهي أعظم صفات الحمد ولو ازمه ولذلك كررها هنا مرتين
وفي التسمية مرتين وجاء في كل مرة باسم المبالغة والالف واللام ثم ذكر
وابع صفة الملك باسمه الخاص به لاعظم الامور وهو يوم الدين وجاء فيه

(١) أي بين منشأ الحمد أنه مربى العالمين وخالقهم اه مصححه

بقرائتين ليكون بمنزلة اثنين ولما كان يوماً عظيماً لم يذكره حين قدم ما يؤنس أهل الخوف من سعة رحمة الله تعالى بتكرار هذين الاسمين الشريفين وقد دل القرآن على أنه من مقتضى رحمته حيث قال تعالى (كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة) واتفقوا على صحة حديث المائة الرحمة المؤخرة له وهو كالتفسير لهذه الآية ثم قال (اياك نعبد) من لوازم الملك (واياك نستعين) وذلك من لوازم الحمد ، وفيهما توحيد صريح وكذلك سائر السور من لوازم الحمد الى قوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وهو من لوازم الملك الحق والعدل بين الخلق كما أوضحته في العواصم ونهاية الامر: أن يكون ذلك من المتشابه الذي تفرد بعلم الحكمة فيه ونعرفها نحن جملة وفيها الجمع بالافرق والتوحيد الاعظم (١) أراد بالجمع عرف الصوفية في استغراق القلب بذكر الله تعالى ونسيان ما سواه حتى العمل والجزاء وحتى نفس الذاكر وذكره والفرق ذكر شيء من ذلك وأدنى والتوحيد هو توحيد العامة وهو التوحيد في الربوبية وهو لا اله الا الله ونعني به الاحد وأعظم التوحيد وتوحيد الخاصة وهو التوحيد في النفع والضرر والاستعانة مع التوحيد في الربوبية فلا يرجى ولا يخاف. إلا الله تعالى ولا يستعان إلا به وقد جمعها قوله تعالى (اياك نعبد واياك نستعين) لكن في اياك نعبد شيء من الفرق في ذكر العبادة والالتفات اليها وليس في الاحد شيء من ذلك ، وأما اياك نستعين فإنه جمع مثل الصمد لان الصمد هو السيد المقصود في المهمات المتناهي المجد المعول عليه في كل أمر ، وأما التوحيد في الوجود فهو

(١) نظرت هذه العبارات الآتية بتمعن حيث وجدت هكذا في نسختين اه مصححه

عجاز وتحقيقه بدعة قد ضلت بسببها الاتحادية فالله المستعان

وفيهما الجمع بلا فرق والتوحيد أدناه والاعظم
وفيهما أسماؤه كلها الـ حسنى وفيها اسمه الاعظم
وبعد ذا النفي اسيرائه لأنه الآخر والأقدم

وهو من الملك ومنه اتفالا

أمثال في الكل لمن يعلم

وآخر السورة نفي لما يظن في التشبيهه أو يوم

وفيه نفي النوع نصاً ونفياً المثل تعميماً لمن يلهم

أى في نفي الوالد والولد نفي المثل النوعى أى نفي أن يكون له أمثال منه
أو هو منها بالنص لأنه هو الذى ربما توهمه من له بعض تمييز ثم نفي المثل
المطلق للعموم لأنه اذا اتفى المثل من النوع الاول لم يتوهم أن له مثلاً من
عبيده ومخلوقاته الا لمن لا تمييز له فلم يحتاج الى أكثر من نفيه بالعمول
لأنه ضرورى في العقول والله أعلم اهـ، ثم إن في هذا النفي للمثل النوعى
والمثل العام تأكيداً لما تقدم في توحيدته في ذاته المستلزم توحيدته في عبادته
وتوحيدته في صمديته المستلزم توحيدته في الاستعانة به وكان في ذلك كمال
الاتصال الموجب لحذف حرف العطف عند أهل المعانى وقاية التناسب
والبلاغة والحمد لله الذى هدانا لهذا

لم يستو الخلق في ذله (١)

كيف الاعز الاكبر الاعظم

مأتمة الا اللطف يحكيه والايماان والصلمت لنا أسلم
اعترف اليونان في كفرهم أن النهى في ذلك لاتعلم
أفاده الرازى قالوا سوى رجم ظنون لهم تهجم
هذا وهم في العجب والنيه في ليل دعاو كله مظلم
فكيف بالمسلم في هديه نور وهو بتقوى ربه ملجم
وعن على قال يابردها قولك في المجهول لا أعلم
لذلك كانت ثلثا كاملا للذكر هذا فاغتم المغنم (١)

ولبعض الاصحاب في هذا المعنى أبيات وهي هذه :

يا ضلة الغالين حين توهموا ما لا يفوه به التقي المسلم
قالوا إله العرش ليس بعالم من ذاته والوصف مالم يعلموا
هذى مقالة من هوى في متلف وعليه ديجور الغواية مظلم
قالوا تقرر أن كل مكلف فعليه علم الذات فرض ملزم
وكذا الصفات فان يكونوا حصلوا ما كلفوه فما ذكرنا يلزم
إذلا يكون العلم غير مطابق لحقيقة الامر الذي هو يعلم
هذا وان لم يستطيعوا مابه قد كلفوا فالامر فيه أعظم
لرؤم تكليف المحال وباتفا تكليفه نطق الكتاب المحكم
قلنا لقد شدتم بناء عاليا واهى الاصول فأسه متهدم
الفرض علم الله موجودا إلا هما واحداً ماغيره متقدم
حياً قديراً عالماً متنزهاً عما يقول مجوز ومجسم

(١) هكذا وجدت هذه الايات في ثلاث نسخ خفية فلتنظر اه مصححه

لا علم كيف صفاته أو ذاته سبحانه أن يعتريه توهم
 واقراً إذا ما شئت في طه نجد ما يقطع الشبهات عنك ويحسم
 نفي الاحاطة عن جميع الخلق بالر رحمن علما شأن ربي أعظم
 فاعرض كلامهم على القرآن فالأ قرآن في ذاتنا فاض ما أبرموا
 لكنهم تركوا الكتاب لو همهم فمشوا لتركهم التدبر أو عموا
 أنى يكون كماله سبحانه تخييطهم وله الشكوك تهدم
 شتان علم لا يحول وعلمهم علم يفارقهم اذا هم نوم
 أو غافلون وشبهة تغتاله والشك يفسده اذا يتوهم
 وانظر الى نهج البلاغة تلق ما يشفى الغليل والمخالف تفهم

(وثانيهما) أذكر أوجز كلام عرفته في ذلك لفظاً وأبلغه على إيجازه

معنى لتقر عين المتطلع الى ما حمل المخالفين على هذه الدعوى العظيمة فأقول:

ان من أحسن من عبر عن هذه المسألة الكبرى شارح جمع الجوامع

لكن النسخا غيروا بعض ألفاظه فشككت في بعض ألفاظه مع معرفة

مراده فجعلت العبارة لي وزدت اليسير حيث تصحح الزيادة وتجاوز

وتحسن ولم أظن في موضع لا يحل فيه الظن ويتوقف فيه على النقل فأقول:

لا شك ان الله عز وجل حقيقة مخالفة لسائر الحقائق مخالفة مطلقة لا يشار كها

شيء في ذاتيتها وخصوصيتها قال الله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع

البصير) وقال تعالى (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد) وقال تعالى

(فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) وقال تعالى حاكيا عن شبهه بغيره

سبحانه (تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما ضلنا

(الاجرمون) وفي قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) جمع بين
 الرد على طوائف المبطلين فاولها رد على المشبهة وآخرها رد على المعطلة وفي
 ترتيبها سر لطيف لانه لو قدم الرد على المعطلة لخيف سبق وهم أو خيال من
 شبه أهل التشبيه فلذا بدأ بما يعصم عن ذلك من غاية التقديس والتنزيه * وقالت
 المعتزلة ان الخلق والرب مشتركون في جنس الذاتية وان التفرق انما
 حصل بالوصف الاخص لله تعالى لتشريع أولغيره مما يوجب التمييز بعد الاشتراك
 وهذا باطل قطعاً للقطع بأن جنس الذاتية الاعم المسمى عند أهل المعقولات
 بالماهية وبالوجود المرسل والوجود المطلق مستحيل الثبوت في الخارج
 بالضرورة العقلية وبمعرفة هذا يزول كثير من خيالات أنواع المبتدعة وعلى
 الغلط فيه يترتب ضلال كثير نسأل الله العافية فاذن المشترك انما هو
 لفظ عام لاسوى وربما عبر عنه بعض أهل العقليات بالعرض العام والاشتراك
 فيه من جنس الاشتراك في اسم الشيء بل من جنس اشتراك المدومات
 في اسم العدم، وزعم بعض المتكلمين ان الذوات كلها متساوية وأن امتياز
 بعضها عن بعض بصفات مخصوصة وامتياز ذات الله تعالى عن غيرها
 بصفات الالهية كوجوب الوجود قدما ودواما وتمام القدرة واحاطة العلم
 ونفوذ المشيئة والكمال المطلق الموجب لاستحقاق كل مدح وثناء والتنزيه
 من كل نقص وعيب وأشار صاحب الصحائف الى ان الخلاف بين المساميين
 في هذه الاشياء لفظي وما هو ببعيد وذكر ابو علي التيمي تلميذ الغزالي في التذكرة
 انه لم يمنع من اثبات ماهية الرب الحقيقية الا بعض الفلاسفة ومنهم من أثبتها
 لانها من لوازم الوجود العيني ويستحيل دخول الوجود المرسل في قضية العقل

في الاعيان إذا تقرر هذا فاعلم أن المثبتين للماهية اتفقوا على أنه لا حد لها ثم اختلفوا في مسألتين المسئلة الاولى هل يصح العلم بها للبشر في الدنيا بالنظر والاستدلال؟ فذهب فضلاء العقلاء منهم امامهم وإمام المسلمين أمير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه في الجنة ومن لا يأتي عليه العد من الآك والاولياء والعارفين إلى امتناع ذلك وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني والغزالي والسيكيا الهراسي في مشيخة جلة وحكاها الرازي عن جمهور المحققين قال وكلام الصوفية يشعر به وبهذا قال الجنيد والله ما عرف الله إلا الله * وذكر الطرطوسي في الرد على إرسطاطاليس أن الحارث المحاسني قال لا يمكن أن تكون معلومة للخلق وحكوا عن الشافعي أنه قال من انتفض لطلب مدبره فانتهى إلى موجود ينتهى اليه فكره فهو مشبه ، وإن اطمأن إلى العدم الصرف فهو معطل وان اطمأن الى موجدته واعترف بالعجز عن إدراكه فهو مصدق وهذا معنى قول الصديق الاكبر العجز عن درك الادراك إدراكه وقد قيل: حقيقة المرء قطعاً ليس بدركها * فكيف ماهية الجبار في القدم وذهبت المعتزلة أو كثير منهم إلى أنها معلومة واحتجوا بوجهين (أحدهما) أنا مكلفون بمعرفة واحدانيته وذلك يتوقف على معرفة حقيقته فلولا تكن واجبة شرعاً ممكنة عقلاً لكان ذلك تكليفاً بما لا يطاق وهذا لا يجوز على الله تعالى، والجواب أن الملازمة ممنوعة وإنما كلفنا بمعرفة الربوبية ولا سيما الحسنی ونفى الثاني ونفى التشبيه والظلم وكل نقص وهذه كلها نعوت عربية عن معرفة الماهية (وثانيهما) قالوا إنا نحكم على ذات الله تعالى بهذه

الاحكام الثبوتية والسلبية والحكم على الشيء مسبوق بمعرفة المحكوم عليه والجواب أن هذا ضعيف لانهم إن عنوانا أنه مسبوق بمعرفة من بعض الوجوه إجمالاً فسلم ولا يضر تسليمه وإن عنوانا بمعرفة على التفصيل من جميع الوجوه فممنوع وكلامهم مجرد دعوى، والدليل عليهم في هذا المقام، فإن أبدوه وجب علينا تقضه وإن لم يبدوه لم يلزمنا شيء من مجرد الدعوى بغير حجة ولا هدى ولا كتاب منير وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (ولا يحيطون به علماً) ولذا لما قال فرعون وما رب العالمين أجابه الكليم عليه السلام بالنعمة حيث قال رب السموات والارض لتعذر الجواب بالماهية فعجب فرعون وقومه من عدوله عن الجواب المطابق لسؤاله ولم يعلم لغباوته أنه المخطئ في السؤال عن الماهية وأن ما أتى به الكليم في الجواب اقصى ما يمكن والله سبحانه الاسماء الحسنى وحظنا من المعرفة الايمان بها على ما يريد الله سبحانه وتعالى ولولا رأفته ولطفه ومعرفة ورحمته وبره وعظم فضله وواسع احسانه ما كنا اهلاً لمعرفة شيء مما عرفنا به وكرمنا وشرفنا بسببه وكيف واحاطة البشر بمن تجلى للجبل فجعله دكاوخر موسى صمقا وقد تقدم كلام على عليه السلام في جوابه على الذي قال له صف لنا ربنا وغضبه من ذلك ونهيه للرجل ان يسأل عن ذلك احد اسواه (المسئلة الثانية) اختلف المانعون من ذلك في الدنيا هل يطرد المنع في الدنيا والآخرة أو يختص ذلك بدار الدنيا فمنهم من طرد المنع ومنهم من خصه بدار الدنيا ومنهم من توقف ولا حاجة بنا الآن الى التطويل بالخوض في أحكام الآخرة انتهى (الدعوى الثانية) دعوى العلم بتأويل التشابهات وهو مبني على ذكر

الآية الشريفة الواردة في ذلك والكلام عليها فلنبداً بذلك فنقول قال تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنابه كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الاباب) فمن شرط الايمان وعزائم الايمان بمتشابه القرآن فمن علم معناه آمن به على اليقين ومن لم يعلمه آمن به على الجملة ، وقد اختلف الناس اختلافا كثيراً في الراسخين هل يعلمون التأويل مع الله أم لا وينبغي من تالى كتاب الله الشريف أن يؤثر هذه الآية الشريفة بزيادة في التدبر فانها قاعدة عظيمة للكلام في تفسير كتاب الله تعالى وقد ثبت في امالى السيد الامام أبى طالب وفي نهج البلاغة عن على عليه السلام ان الراسخين لا يعلمون ذلك كما سيأتى بحروفه في الأدلة على ذلك وثبت ذلك أيضاً عن زيد بن على وعن القاسم والهادى إلى الحق يحيى ابن الحسين وعن ولده المرتضى محمد بن يحيى عليهم السلام وسيأتى كلام واحد منهم بحروفه وثبت ذلك أيضاً عن الامام المؤيد بالله يحيى بن حمزة رحمه الله ذكره في كتاب الحاوى في اصول الفقه في الكلام على المؤول في اوائل المجلد الثانى واحتج عليه كما سيأتى بيانه فهو لاء أعلام أئمة العترة الاكابر من الاول والواخر ولندكر بعد قولهما من وافقهم على ذلك فنقول قال البغوى في تفسيره وذهب الاكثرون الى ان الواو للاستئناف وتم الكلام عند قوله الا الله وهو قول أبى بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير ورواية عن طاووس عن ابن عباس وبه قال الحسن واكثر التابعين واختاره الكسائى والفراء والاقفش

ويصدق ذلك قراءة عبد الله (وإن تأويله إلا عند الله) وفي حرف أبي بن كعب ويقول الراسخون قال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية انتهى علم الراسخين الى أن قالوا آمننا به كل من عند ربنا وهذا القول أقيس في العربية وأشبهه بظاهر الآية انتهى مختصراً وقال ابن تيمية في القاعدة الخامسة من جواب المسألة التدمرية انا نعلم ما أخبرنا الله به من وجه دون وجه لقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) وهذا يهم المحكم والمتشابه وجمهور الائمة على أن الوقف عند قوله الا الله وهو المأثور عن أبي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم ، وعن مجاهد وطائفة أن الراسخين يعلمون تأويله ولا منافاة بين القولين عند أهل التحقيق فالتأويل على (ثلاثة وجوه) الاول كلام الاصوليين وهو ترجيح المرجوح للدليل (الثاني) التفسير وهو اصطلاح المفسرين كما ان الاول اصطلاح الاصوليين ومجاهد إمام التفسير عند الثوري والشافعي والبخاري وغيرهم (الثالث) الحقيقة التي يؤول اليها الكلام لقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق) فتأويل اخبار المعاد وقوعها يوم القيمة كما قال في قصة يوسف لما سجد له ابواه واخوته (قال هذا تأويل رؤياي من قبل) ومنه قول عائشة كان يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن (تعنى قوله) فسبح بحمد ربك واستغفره وقول سفيان ابن عيينة السنة هي تأويل الامر والنهي فان نفس الفعل للمأمور به هو تأويل الامر به ونفس الموجود المخبر عنه هو تأويل الخبر وهذا يقول أبو عبيد وغيره والفقهاء أعلم بالتأويل من اهل اللغة كما

ذكر واذلك في تفسير اشتمال الصمائيين (١): الفقهاء يعلمون نفس ما امر به ونهى عنه لعلمهم بمقاصد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يعلم أتباع بقراط وسيبويه ونحوهما من مقاصدهما ما لا يعلم بمجرد اللغة ولكن تأويل الامر والنهي لا بد من معرفته بخلاف الخبر اذا عرف ذلك فتأويل ما أخبر الله به عن نفسه المقدسة بمآلها من الاسماء والصفات هو حقيقة نفسه المقدسة وتأويل ما أخبر به من الوعد والوعيد هو نفس الثواب والعقاب وليس شئ منه مثل المسميات باسمائه في الدنيا فكيف بمعاني اسماء الله وصفاته، لكن الاخبار عن الغائب لا يفهم ان لم يعبر عنه بالاسماء المعلومة معانيها في الشاهد ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد مع التفارق الميزوفى الغائب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فنحن اذا اخبرنا الله تعالى بالغيب الذى اختص به من الدارين وما فيهما علمنا معنى ذلك الذى اريد منا فهمه وفسرناه واما نفس الحقيقة المخبر عنها التى لم تكن بعد وانما تكون يوم القيامة فذلك من التأويل الذى لا يعلمه الا الله ولذلك لما سئل مالك وغيره من السلف عن تأويل قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وبمثل هذا قال ربيعة شيخ مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول وعلى الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا الايمان ومثل هذا

(١) اشتمال الصماء أن برد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الايسر ثم يرد الثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الايمن فيغطيها جميعا أو الاشتمال بثوب واحد يبدو منه فرجه اه مصححه من القاموس ويظهر أن محل النهي في الحديث عن المعنى الثانى كما يحتمل الاول ايضا على بعد

يوجد كثيرا في كلام السلف في نفى كيفية علم العباد بصفات الله وفي الحديث (لا أحصى ثناء عليك) رواه مسلم ، وفي المسند وصحيح أبي حاتم (واستأثرت به في علم الغيب عندك) فمعاني هذه الأسماء التي استأثرت الله بها لا يعلمها سواه مما يوضح ذلك ان الله وصف القرآن كله بأنه محكم وبأنه متشابه وفي آية أن بعضه محكم وبعضه متشابه فالاحكام الذي يعمه هو الاتفاق وهو تمييز الصدق من الكذب في اخباره والغي من الرشاد في أوامره والتشابه الذي يعمه ضد الاختلاف المنفى عنه بقوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وهو الاختلاف المذكور في قوله (إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك) فالتشابه هنا يماثل الكلام ويناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا فالاحكام العام في معنى التشابه العام بخلاف الاحكام الخاص والتشابه الخاص فانهما متناقضان والتشابه الخاص مشابهة الشيء لغيره من وجه ومخالفته من وجه آخر بحيث يشبهه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله وليس كذلك . والاحكام الخاص هو الفصل بينهما بحيث لا يشبه أحدهما بالآخر يعني على من عرف هذا الفصل . وهذا التشابه الخاص إنما يكون بقدر مشترك بين الشئيين مع وجود الفاصل بينهما ثم من الناس من لا يهتدى إلى ذلك الفاصل فيكون مشتبا عليه . ومنهم من يهتدى له فيكون محكما في حقه فالتشابه حينئذ يكون من الامور الاضافية فاذا تمسك النصراني بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) ونحوه على تعدد الالهة كان المحكم قوله (والهكم آله واحد) ونحو ذلك

مما لا يمتثل الامعني واحدا يزبل ما هناك من الاشتباه . قلت ترك الشيخ
والامام وجها رابعا من وجوه التأويل وهو المراد في الآية وذلك هو وجه
الحكمة فيما لا تعرفه العقول مثل خلق أهل النار وعذابهم وترجيحهم على
الغفوة عنهم مع ترجيحهم للعفو بشرائعه وأوامره لعباده وقد ذكرت كل
طائفة وجها في ذلك معينا واعترضهم الباقون وقد تقصيت ما قيل في ذلك
وما يرد عليه في العواصم والجواب الجلي أصحابها وأقواها كما اختاره الزمخشري
وغيره من محققى خصوم أهل السنة والدليل على أنه يسمى تأويلا قوله
تعالى في الحكاية عن الخضر (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا)
ثم أخبره بوجه الحكمة في ذلك الذى استنكره موسى ولم يحتمله عقله
فكان المتشابه فعلا لا قولاً والتأويل خبراً عن الحكمة عكس ما ذكره في
الوجه الثالث من تأويل الخبر بالفعل . وإنما قامت إن هذا هو المراد في الآية
لأن الله سبحانه قد وصف الذين في قلوبهم زيغ بابتغائهم تأويله وذمهم بذلك وهم
لا يبتغون علم عاقبة القرآن وما يؤول اليه على ما فسره الشيخ فهم لا يبتغون
الحنة ولا النار ولا القيامة ولا ذات الرب سبحانه وتعالى وإنما يستقبحون
الظواهر بعقولهم فيتكلفون لها معانى كثيرة يختلفون فيها وكل منهم ينفرد
بمعنى ويأتى بمجرد احتمال والكل من ذلك مما لم يستندوا فيه إلى شئ من السمع وقد
يكون مخالفا للمعلوم من الشرع لان تلك الآيات ظهرت على عهد رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم وعلم من المسلمين تلقيها بالقبول ولم يخبر صلى الله عليه وآله وسلم
ولا أحد من أصحابه لها بتأويل ولا نبه على ذلك مع ما فى الساميين من البله
المحتاجين إلى البيان الذى لا يجوز تأخيرهم عن وقت الحاجة . وقد ثبت أن
(١٠ - ٢) (ترجيح)

عدى بن حاتم ربط خيطين أبيض وأسود فقال له عليه السلام (إنك لعريض القفا) فكيف بغيره ممن هو دونه وكثير من النساء والماليك ونحوهم .
 فينبغي أن أشير الى نكت نافعة من حجج الفريقين * أما القائلون بأن الراسخين يعلمون التأويل فحجتهم أن الله سبحانه لا يخاطب المكلفين بما لا يفهمون، لان ذلك عبث والله سبحانه يتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولا أعلم لهم حجة غيرها. والجواب عن هذه الحجة من وجوه: الوجه الاول أن فائدة كلام الله تعالى لا تنحصر في مجرد فهم معناه المعين على التفصيل والا لزم أن يكون عبثا ولا طريق الى القطع بذلك لمن اعتقده الا أنه طلب وجه فلم يجده وليس عدم الوجدان عند الطلب في علم الطالب يدل على عدم وجود المطلوب في علم الله تعالى اذ من المعلومات الضروريات أن الانسان قد يطلب الشيء المدة الطويلة ولا يجده ثم يجده هو أو يجده غيره . وفي كلام على عليه السلام في وضئته لا يحسن عليهما السلام دليل على هذا حيث قال (فان أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك فانك أول ما خلقت جاهلا ثم علمت ، وما أكثر ما تجهل من الامر ويتحير فيه رأيك ثم يضل فيه بصرك ثم تبصره بعد ذلك انتهى) هذا على الاجمال وعلى جهة التفصيل نقول تلخيص ذلك أن كلام الله سبحانه وتعالى منقسم الى قسمين: القسم الاول ما فيه تكليف للعباد وطلب منهم بالوامر والنواهي للافعال والتروك فهذا هو الذى يسمى خطابا ويجب أن يكون لهم الى معرفته طريق علمية أو ظنية ويكفى أن يعرف ذلك بعضهم كالمجتهدين بالاجماع وهذا القسم من كلام الله تعالى هو الذى يعلم أنه سمي خطابا للمكلفين . والقسم الثانى من كلام الله ما لم يكن فيه طلب

أمر منهم مثل فوائح السور وماشاكلها فلا دليل على أنه يسمى خطاباً للمكلفين ولأن المقصود منه فهم معناه على التعيين ولذلك اختار الامام يحيى ابن حمزة في مثل الفوائح جواز جهل الراسخين بمعناها، وقفت عليه في الحاوى للإمام يحيى عليه السلام، توضيحه أنه لم يرد في آية قط بأيها الذين آمنوا ألم ونحو ذلك ولاورد في تضاعيف الكلام المفهوم ولاورد في لسان العرب ولايحسن من الواحد منا أن يخاطب صاحبه بنحو ذلك ويطلب منه فهم ما ضميره فيه والعلة عدم التمكن من معرفة ما اراد بذلك وهى مطردة فينا وفي حق الله تعالى بل هى في حق الله أبعد منه لأن قرآن الرؤية قد تفيد الظن بالإشارة ولو امكن في كلام الله تعالى فهم ذلك امكن في حقنا أولى وأحرى، والمعلوم عدم إمكانه في حقنا وقولهم انه خطاب لنا فيجب ان يكون مفهوم المعنى لنا احتجاج بمجرد الدعوى ونتيجته معلومة البطلان بالوجدان واولى منه واصح عند أهل الانصاف ان نقول المتشابه غير مفهوم المعنى لنا وهذه ضرورة وجدانية فيجب ان نكون غير مخاطبين به، بيان المقدمة الضرورية ان فوائح السور متشابهة فلو ادعينا فهم تفسيرها وجب ان يكون اليه طريق لكن لا طريق اليه، لان الطرق في ذلك منحصرة في العقل والكتاب والسنة الصحيحة والاجماع والقياس واللغة، ومعلوم انه لا شئ من ذلك يدل على تفسير الفوائح، سلمنا ان ذلك يسمى خطاباً لنا في اللغة بمجرد وروده في كتابنا فيجب حينئذ ان يكون خطاباً منقسماً الى ما المراد منا فهمه على التفصيل كالحكم وعلى الاجمال كالمشابه، مثال ذلك ما ثبت في حديث ابن مسعود من قوله صلى الله عليه

وآله وسلم) أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك وأنزله في كتابك أو علمته احدا من خلقك واستأثرت به في علم الغيب عندك) فهذا القسم من الاسماء التي استأثر الله بها في علم الغيب مما يجب الايمان به على الاجمال ولا يمكن فهم معاني تلك الاسماء على التفصيل بالضرورة مع النص على ذكرها في كلام رسولنا الذي تعبدنا بفهم كلامه وخطابه صلى الله عليه وآله وسلم والله سبحانه وتعالى أعلم* (الوجه الثاني) انهم ايمان يوجبوا ان يعلم تاويله جميع المكلفين المخاطبين وهذا باطل ولا قائل به أو يقولوا انه يكفي ان يعلمه بعضهم وهم الراسخون او بعض الراسخين وعلى هذا فيلزمهم تجوز ان يكون العلم بتاويله من خواص بعض الراسخين من الانبياء والملائكة و افراد من الائمة فان الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء، فاما ان كل خائض في علم العربية والمعاني او جامع لشرائط الاجتهاد فانه يجب ان يعلم جميع تاويل المتشابه فدليلهم على تسليم صحته لا يقتضى هذا* (الوجه الثالث) انهم اما ان يمنعوا الايمان الجملي او يجوزوه فان منعه لزمهم ان يقبح من عوام المسامين بل من العجم الايمان الجملي بالمشابه بل بالحكم بل يلزمهم ان لا يصح العلم بذات الله سبحانه وكثير من صفاته لا متناع تصور العقل لذلك على التفصيل وان جوزوا الايمان الجملي بطل استدلالهم بذلك فهذا ما حضرني لهم وعليهم في هذه الحجة على الانصاف والله عند لسان كل قائل و نيته (الوجه الرابع) ان المتأولين انما يعينون وجوه التاويل بالظن أو الاحتمال فاما الاحتمال فلا يسمى علما ألبتة لا حقيقة ولا مجازا واما الظن فقد يسمى علما مجازا ولكنه هنا ممنوع لان العلم المضاف الى الله تعالى في الآية

لا يجوز فيه الاحتمال وهو بعينه هو المضاف عند الخصم الى المتاولين بالظن أو الاحتمال ولا يجوز في اللفظة الواحدة ان يراد بها كلاما معنيها على الصحيح ولا يقوم على خلاف ذلك دليل من اللغة ألبتة على ان ابا هاشم قال انه محال عقلا ومجرد احتمال ذلك عقلا أو لغة ليس بدليل قطعا (الوجه الخامس) قوله تعالى (سيقول السفهاء من الناس الآية) دليل على ان الذين في قلوبهم زيغ هم المرتابون في التشابه الذين قبحو اظاهره ولم يكفهم في تحسينه العلم الجلي لحكمة الله تعالى وقوله تعالى (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء) دليل على اكتشاف الراسخين بالدليل الجلي لانه ليس في هذا الجواب وجه تفصيلي في حسن النسخ وقد بسطت هذا المعنى في العواصم فليراجع فيه من مسألة الارادة (الوجه السادس) ماخرجه الحاكم في كتاب الايمان من المستدرک عن ابن عمر ان قال (لقد عشنا برهة من دهرنا وان احدنا يؤتى الايمان قبل القرآن وتنزل السور على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي ان يوقف عنده فيها كما تعلمون انتم القرآن ثم قال لقد رأيت رجلا يقرأ احدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب الى خاتمة لا يدري ما امره ولا ما ينبغي ان يوقف عنده ينثره نثر الدقل) قال الحاكم صحيح على شرط البخارى ومسلم ولا اعرف له علة والحجة منه فيما ذكر ما يوقف عنده والخصم يدعى قبح الخطاب* وفي النهاية الدقل ردى* التمر ويابسه وقال ما ليس له اسم خاص فيراه لبيسه وردائه لا يجتمع ويكون منشورا* واما القائلون بان الراسخين لا يعلمون التأويل فالذى حضرني من ادلتهم اثنان وعشرون دليلا (الدليل الاول) الفطرة العقلية التي فطر الله الناس عليها وذلك ان الانسان

يعلم احوال نفسه علما ووجدانيا ضرورياً أو ليا لا يشك فيه فيعلم عاقبته والمه وفرحه وغمه وعلمه وجهله وسائر احواله أو أكثرها ويجد فرقا ضروريا بيننا لا تمحوه الشبه ولا تعتربه الشكوك ومن ذلك علمنا بعجارات العقول ومواقفها ومالنا الى معرفته طريق دون ما ليس لنا الى معرفته طريق ونجد فرقا ضروريا بين فهم معنى قوله تعالى (إذا قمم الى الصلوة فاغسلوا وجوهكم) وامثالها وبين قوله تعالى: الم وتلخيص ذلك ان معرفة معنى الم وامثالها ما ان يكون بطريق اولاً، فان لم يكن بطريق لم يصح اجماعاً وإن كان بطريق فاما ان يكون عقلياً اولاً لا يجوز ان يكون عقلياً وفاقاً اذ لا رابطة بين العقل وبين معاني الحروف وان لم يكن عقلياً فاما ان يكون سمعياً اولاً لا يجوز ان يكون سمعياً لان السمع هنا ليس الا القرآن والسنة ولم يحتج المقرون لهذه الحروف بهما ولا نقلوا ما قالوه فيها عنهما الا القول بانها اسماء الله او اشارة الى اسماء الله فقد ورد فيه شيء لم يبلغ مرتبة الصحة المتفق عليها وان كان الحاكم قد خرج بعض ذلك ولكن على تسليم صحة ذلك فلا بد من الاجمال ببطان التركيب فيها ولا بد منه في الكلام المفيد باجماع أهل العربية فانك لو قلت زيد. عمرو. بكر. خالد. لكانت اسماء مفهومة في انفسها لكنه لا يكون خطاباً مفيداً بل ولا يسمى كلاماً عند النحاة

فلم يبق بعد ذلك ما يستند اليه الا اللغة العربية وليس في كتب اللغة شيء من ذلك اصلاً البته ولا ادعى المخالف وجود دليل صحيح في ذلك من أنواع الأدلة الثلاثة المتقدمة العقلية والشرعية واللغوية والقياس هنا لا يصح

كما لا يصح في كثير من المعروفات كاعداد الركعات فالمجهول أولى لعدم صحته * وأما حديث معقل بن يسار عنه صلى الله عليه وآله وسلم (اعملوا بالقرآن أحلوا حلاله وحرموا حرامه واقتدوا به ولا تنكفروا بشيء منه وما تشابه عليكم فردوه الى الله والى أولى العلم من بعدى وليسعكم القرآن وما فيه من البيان) قال في سلاح المؤمن رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد والجواب عنه من وجوه (الاول) عدم الصحة بمجرد تقليده حتى يبحث عنه (الثاني) أنه معارض بحديث جنذب عنه صلى الله عليه وآله وسلم (فاذا اختلفتم فيه فقوموا عنه رواه البخارى ومسلم والنسائي وفي حديث عمر و(مالم تعرفوه فكلوه الى عالمه) رواه الحاكم بن المدائني واحمد واللفظه (الثالث) أنه في خطاب العامة لرددهم الى أهل العلم، والمحكم عند العلماء قد يتشابه على العامة ورجوعهم حينئذ إجماع. وقد ثبت أن التشابه أمر نسبي ولذا جاء في حديث المتشابهات أنه لا يعلمها كثير من الناس. فاما ما تشابه على أولى العلم بل على الراسخين فلا يرد اليهم بل الى الله وحده، يوضحه حديث جنذب وحديث عمر كما تقدم في الوجه الثاني (الرابع) أنه قد دل على هذا لانه قسم الرد الى الله واليهم فثبت أن الردود الى الله ما لم يعلموه لانه لا معنى لرد متشابه القرآن إلى الله ولا الايمان الجملى فان الرد المعتاد الى الله هو الرد الى كتابه فاما رد كتابه اليه فلا يكون الا الوقف والايان الجملى. ولذلك امر فيه بالاكتفاء ببيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأما دعوى قرينة مطلقة تدل على تأويل الحروف المقطعة ليست من قبيل شئ من الأدلة فانه ممنوع مثل تفسير الباطنية لانه مثل

دعوى دليل مطلق ليس هو عقلي ولا سمعي ولا لغوي وهذا يرجع الى تجويز وجود الجنس مع عدم جميع أنواعه مثل حيوان ليس بناطق ولا اعجمي ولا ارضي ولا بحري ولا سمائي وذلك محال عند الجميع ولو قبل مثل ذلك قبل قول ابن عربي الطائي صاحب كتاب الفصوص من أن الحروف أمة من الامم مبعوث اليها رسول منها لدليل جملي ويمتنع صحة الدليل الجملي مع امتناع التعيين كما يمتنع اثبات الجنس مع امتناع الانواع كلها وهو المسمى بالوجود المرسل وهو أحد المحالات والمنصف يحد من نفسه الجهل بمعنى هذه الحروف الذي اراده الله على التعيين وفقد الطرق المفيدة لذلك، وأنت إذا تأملت كلام الزمخشري وغيره في تفسير الفواتح وعرضته على الادلة المعينة وطلبت تعيين مستنده من العقل أو من القرآن أو من الحديث أو من الاجماع اتضح لك أن كل واحد منها بريء منه ومن كان عنده في ذلك طريق صحيح فليمن بها ما جورا فان طبع جميع المكلفين مجبول على محبة العلم وكرهة الجهل ولا رغبة لنا في جهل شيء والمنة لمن دل على معرفة وأخرج من جهالة ﴿ الدليل الثاني ﴾ أن المتأول بتأويل معين اما أن يقطع على أن تأويله ذلك هو مراد الله تعالى ويقطع ببطلان كل تأويل سواه فهذا الاقائل به ولو قال به أحدا ما ساعده الدليل لانه من قبيل الاستدلال بعدم الوجدان في نفس الطالب على عدم وجود المطلوب في علم الله تعالى وقدمر إبطاله، يوضحه أن المتأول قد يتأول الآية على وجه ثم يتفطن بعد ذلك لما هو أقوى عنده. واما أن لا يقطع المتأول بصحة تأويله وبطلان ما عداه فاما أن يكون تجويزا مستوى الطرفين أو ظنا راجحا أما التجويز

فليس من العلم في شيء وهو محض الجهل اذ لا معنى للجهل الا احتمال أحد النقيضين من غير ترجيح أو نحوه فاعتقاد أنه علم ولا سيما في تفسير كلام الله تعالى والاطلاع على مراده غاية الغرور وأما إن كان ظنا راجعا فلاثرة له في غير العمليات . ثم لا يخلو الاعتماد عليه والخبر عن مراد الله به من كراهة أو تحريم اعموم النواهي عن اتباع الظن وعموم قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) وما سياتي ذكره من الاحاديث الواردة في تحريم التفسير بالرأى فهذان الوجهان عقليان ثم إنه يلزم من قولهم دعوى التعبد بذلك وتصويب الجمع وفي أقوال المفسرين ما لا يصح جمعه لتناقضه كالقول بأن الم الآلاف اسم الله واللام جبريل والميم محمد . والقول بانها كلها أسماء الله ، وأيضاً لو ثبت انها كلها أسماء عاد الاشكال بنفسه لعدم ثبوت النسبة الخبرية فيها فاننا مع معرفتنا لاسمائنا لانستفيد بذكرها مجردة عن التركيب الموجب للاعراب والمعاني ويلزمهم على التصويب القطع بتصويب النقيضين كتسمية الله تعالى بتلك الحروف وتصويب من قال ليست أسماء الله تعالى فلينزيدوا القطع بتصويب من توقف فانه اولى وأحرى والله أعلم (الوجه الثالث) ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) وفي رواية اخرى (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن ورواه الذهبي في الميزان في ترجمة ابي سهل الهيثم بن جميل احد شيوخ احمد بن حنبل والذهبي قال الذهبي ابو الوليد بن برد حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا ابو عوانه عن عبد الاعلى عن

سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) اورده فيما انكر من حديث الهيثم وقال بعده قال الدار قطن ثقة حافظ وقال العجلي ثقة صاحب سنة وقال احمد بن حنبل ثقة وقال ابن عدى ليس بالحافظ يغلط على الثقات وارجوانه لا يعتمد ، وعن جندب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ) رواه الترمذى وابو داود وقال الترمذى هذا حديث غريب ، واما تصريح بعض الصحابة بالتفسير بالرأى وعدم انكار الجماعة عليه كقول ابى بكر فى الكلافة اقول فيها برأى فذلك فى العمليات ولا نزاع فيها ولو سلم اجماع فى غير العمليات فظنى سكونى لا ينفع فى الفروع ولا يقدر بمثله من يعرف معناه ، والحديثان اقوى من مثل ذلك ولا ينهض معارضهما البتة الا للتفسير بالنقل الصحيح من الحديث واللغة فالظاهر الاجماع على جوازه وان كان ظنيا ويبقى التفسير بالرأى المحض المنصوص فى الحديث بتحصينه مع ظواهر القرآن وشهرة الخلاف فيه والله اعلم (الوجه الرابع) مارواه السيد الامام الناطق بالحق ابو طالب فى اماليه من قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وهو صريح فى هذا المعنى لا يمكن تاويله قال السيد أخبرنا أبى رحمه الله تعالى قال أخبرنا ابو محمد ابن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن سلام قال أخبرنا ابى قال حدثنا سليمان قال حدثنا على بن الخطاب الخثعمى قال حدثنا احمد بن محمد الانصارى عن بشير عن زيد بن اسلم عن على عليه السلام انه قال فى صفة الراسخين فى العلم لمن ساله ان يصف له الله عز وجل فى آخر كلامه عليه السلام ما لفظه (اعلم ايها السائل ان

الراسخين في العلم هم الذين اعيامهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب، الاقرار بحمل ما جهلوا تفسيره من تفسير الغيب المحجوب، فقالوا آمنابه كل من عند ربنا فدح الله سبحانه وتعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما وسمى تركهم التعمق فيما لا يكلفهم البحث عنه منهم رسوخا فاقصر على ذلك انتهى رواه السيد ابو طالب ولم يتعقب عليه بتاويل كما هي عادة فيما يخالف مذاهب اهل البيت عليهم السلام وهو من أنفس ما ورد في هذا الباب واحسنه لصدوره عن امام الراسخين في العلم والمخصوص من الله تعالى بزيادة في الفهم، قال زيد بن علي عليه السلام في كتاب المجاز من رواية ابي عبد الله جعفر بن محمد بن هرون المقرئ ما لفظه: والقرآن على أربعة أوجه حلال، وحرام لا يتبع الناس جهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وعربية يعرفها العرب، وتأويله لا يعلمه الا الله تعالى وقال في مواضع أخرى والمتشابهات يشبهه علم تأويلها على اكثر العباد ويلتبس من قبلها اهل الزرع ويقول الراسخون في العلم آمنابه بما علمنا وما لم يعلم تأويله لنا فعلمه عند ربنا وقال القاسم بن ابراهيم في كتابه الناسخ والمنسوخ وفي ما نزل الله يا بني من وحيه، بعد الذي بقي فيه من امره ونهيه متشابه باطن خفي لا يبين منه شيء لنا جعله الله متشابهها وليس يعلمه احد غير الله وهذا نص جلي على المراد والله الحمد وقال الهادي الى الحق عليه السلام في جواب اسماعيل بن اسحق بن ابراهيم عن المسائل التي سألها عنها بنجران ما لفظه: حم عيسق حروف تولى الله علمها لم يبينها لاحد من خلقه اذ ليس فيها امر ونهى ولا فرض ولا امر تعبد به عباده فيحتاجون الى علمه ومعرفة وقال المرآضي بن الهادي عليه السلام في جواب المسائل التي سئل عنها واما متشابه

الآيات من الكتاب فلا يكون ابدا الامتسابها كما جعله رب الارباب فليس
يحيط غيره بعلمه ولا يكلف احد العلم به ولا بما يكلف العلم بانه من عنده به كما قال
سبحانه وتعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) انتهى
ما ذكره ائمتنا بجر وفه واما من ذهب الى غير هذا المذهب من الزيدية فاعراضهم
عن كتب ائمتهم الموجودة بين اظهروا وبقبالهم على كتب غيرهم فالله المستعان
(الوجه الخامس) ان موسى عليه السلام جهل بعلمه الخضر عليه السلام من
تأويل فعله هذا وهما معا بشر متقاربان في العلم متماثلان في الجسم فكيف مع
هذا يجب ان تكون معرفة تأويل افعال الله تعالى ممكنة لجميع المكلفين
وتأويل كلامه مقدورا لجميع المجتهدين مع ان التأويل هو معرفة وجود
الحكمة في التشابه على ماسياتي بيانه ووجود حكمة الله تعالى مادتها من محيط
علمه وتامات كلماته التي نص الله سبحانه في كتابه على ان البحر لو يمدده
سبعة ابحر لم يكفها مدادا ولم يحصها نقادا (الوجه السادس) ان الملائكة
عليهم السلام ما عرفوا حكمة الله تعالى على التعيين في خلق المفسدين
في الارض ولذلك سالوا ربهم جل جلاله عن ذلك فلم يخبرهم به على التعيين
وردهم الى الجملة التي كانوا لها معتقدين وبها مكتفين قال سبحانه (انني اعلم
ما لا تعلمون) فاعترفوا بما قرره عليهم من قصور علمهم وقالوا لا علم لنا
الاما علمتنا (الوجه السابع) ان في هذه الآية بيانا شافيا وتعليل كافي
ولذلك انزلها الله تعالى فرقانا بينا بين المحكمات والمتشابهات واما
المحكمات اللواتي هن للكتاب امهات فمن تأولها وجعلها من المتشابهة فما

قدرها حق قدرها ، ولا قام بواجب شكرها ، ومن أجازها من جوز التاويل
بغير دليل عرف أن الله تعالى قد وصف فيها الذين في قلوبهم الزيف بصفتين
ووسمهم بسمتين احدهما ابتغاء الفتنة وثانيهما ابتغاء التاويل فثبت تحريمهما
فكيف نجعل التاويل الذي دلت الآية على تحريمه واجبا والمتاويل الذي
دلت الآية على ذمه ممدوحا يؤيد ذلك (الوجه الثامن) ومن ذلك انه سبحانه
لما ذم من ابتغى التاويل علل ذلك بعلة واضحة وذلك قرله تعالى (وما يعلم
تاويله الا الله) وذلك لأن طلب العلم لما كان مأمورا به وقد قال تعالى «وقل
رب زدني علما» وكان ذمه سبحانه لمن ابتغى التاويل كالمخالف بذلك بين ان
العلة في ذم طالب هذا العلم كونه مما لا يعلمه الا الله وطالب ما لا يدركه
غير محمود ثم بين سبحانه حال الراسخين في العلم في هذا المقام وان حالهم
فيه حال التسليم والايان والخضوع والاذعان فلو كان التاويل من علوم
الراسخين لما ذم من ابتغاه في آية من الفرقان بين المحكم والمتشابه من القرآن
وفيما وصف به الراسخين من العجز عن ذلك تسلية لاهل الحرص على
طلب العلوم ولذلك لم يجب الملائكة الى بيان ما سألوه من هذا الجنس
وسد الباب وحسم المادة ويؤيد ذلك أن السابق الى الفهم ان الراسخين مبتدا
وخبره يقولون آمنا به والقول بان آخر الكلام قوله والراسخون في العلم
وأن قوله يقولون آمنا به كلام مستأنف موضح لحالهم أي هم يقولون أو هؤلاء
يقولون أو قائلين على الحال مستلزم اضمارا أو تجوزا أو مخالفة للظاهر وذلك
لا يصح لغير موجب ويقوى ذلك ان قولهم كل من عندر بنا مشعر بعجزهم عن
ادراك تاويل المتشابه مشير اليه من حيث انه كالتعليل للايمان بالمتشابه وان
الوجه فيه هو كونه من عند الله ليس الا وهذا منهم كالتمثيل له بالمحكم والقياس

عليه بالعلة المعلومة ردعا لوساوس الصدور ونوازع الخواطر اذا حدثت وقالت كيف الايمان بما لا يعقل ولا يفهم بل لمن يقول بذلك من المبتدعة وغيرهم ولو كان علمهم بتأويله حاصلًا لعلمهم بتأويل المحكم لم تقع هذه الجملة هذا الموقع من البلاغة وكذا قصر علم التأويل وتعظيمه بذلك القصر المصدر بحرف النفي يعلم أن تأويل المتشابه لا يقع كل الموقع الامتي كان مقصورا على الله وحده مثل قصر التوحيد عليه اما اذا كان لله تعالى شركاء في علم تأويل المتشابه لا ينحضرون في كثرتهم في انفسهم وتعليمه منهم ممكن لكل عاقل من خلق الله اجمعين فان الحصر لذلك بهذه الصيغة لا يقع موقعه البليغ ويكون نظيره التوحيد في النبوة للانبياء بل التوحيد في الايمان للمؤمنين لان الراسخين اضعاف اضعاف الانبياء عليهم السلام بما لا ينحصر فكما لم يرد القرآن بأنه لا اله الا الله ولا نبي الا من اوحى اليه الله أو نحو ذلك لكثرة الانبياء وعدم فائدة صيغة القصر أو عدم بلاغتها وفصاحتها حينئذ فكذلك هذا وذلك أن علماء المعاني والبيان نصوا على أن قصر الصفة على الموصوف لا يخاطب به الا من يعتقد الشركة ولذلك سمي قصر افراد لقطع الشركة وليس في الوجود مخاطب يعتقد أن العوام العمى يشاركون الله والراسخين في علم تأويل المتشابه حتى يرد اعتقاده بهذا القصر وانما الموجود من يعتقد أن الراسخين يشاركون الله تعالى في ذلك فحسن قصره على الله لقطع اعتقاد من جعل لله فيه شركاء فافهم ذلك وتأمله فانه جيد (الوجه التاسع) أن أما للتفصيل ويلزم منه ذكر قسم ما بعده على المختار كما يظهر عند ذكر الكلام في الأدلة وهو قول من اقوال أهل العلم واختاره الامام

يحيى بن حمزة عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة ذكره في كتاب الحاوى في أوائل المجلد الثاني في الفصل الثالث في المحكم والمتشابه وحكاة نجم الدين في شرحه لمقدمة ابن الحاجب كما يقول أما زيد فعالم وأما عمرو بجاهل ولا يحسن أن يقول أما زيد فعالم ويسكت على ذلك ولا يذكر له قسما مخالفا لانه يعنى عن ذلك أن تقول زيد عالم وعلى هذا آيات القرآن العظيم كما قال تعالى (أما من ظلم فسوف نعذبه) الآية في الكهف إلى قوله تعالى (وأما من آمن) وقال تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر) وأما السائل فلا تنهر) وأما بنعمة ربك فحدث) وقال تعالى (فأما ان كان من القرين) الآية وقال تعالى (فأما إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه) كلها بذكر قسم ما بعد ما وقد تحذف اما ويذكر قسم ما بعدها نحو قولك أما زيد فعالم وعمرو جاهل بدلا من قولك وأما عمرو بجاهل والدليل عليه الآية الكريمة (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه الى قوله والراسخون في العلم) بدلا من قوله وأما الراسخون كما هو قول الامام يحيى عليه السلام وقد ذهب الى ذلك غيره فيما حكاه نجم الدين واختار أنه محتمل يعنى بذلك مع احتمال أن يكون قسم ما بعدها محذوفا لجواب أنه لا يصح ذلك الا بعد تقرر جواز حذفه بدليل غير الآية أما حين لم يكن معهم دليل غير الآية فانه لا يصح لهم ذلك لما في الآية من الاحتمال لحذف أما من أول قسم ما بعدها لا حذف القسم وحذفها معا وقد ثبت جواز حذف اما مع اثبات قسميها مع القرينة الدالة على ذلك بغير الآية الكريمة وأما حذف القسم فلم يصح قط الا مجرد دعوى في هذه الآية وذلك

مجرد احتمال لم يثبت له رجحان ألبتة فلا يكون له دليل * يوضحه أن عدم التفصيل بعد أما لا يخلو اما أن لا يصح وقوعه أو يصح نادراً أو يصح كثيراً ، ان لم يصح فالقول قول من أوجب التفصيل بعدها لان النجاة قد نصوا على أنها للتفصيل في لغة العرب وذلك يستلزم ذكر المتعددات بعدها واقاها أمران متغايران وان صح نادراً فقواعد البصرية من النجاة وجوب تأويل ماسد عن الاصل بما يلائم الاصل كتأويلنا في هذه الآية لقوله تعالى (والراسخون في العلم) بان المراد وأما الراسخون لان الاصل الغالب في أما ذكر متعدد بعدها لكيلا تبطل قوانين العربية وتختل قواعدها وإن صح عدم التفصيل بعد اما كثيراً انتقص كونها للتفصيل وتمحضت للشرطية وكان حرف شرط صرفا يقوم مقامها لان التفصيل يوجد معها تارة ويعدم أخرى ويوجد مع عدمها أيضا كقول المدثر، لكن قد ثبت أنها للتفصيل فيثبت انها لم ترد لغيره كثيرا قطعا ولا يثبت أنها وردت لغير التفصيل نادرا بدليل ظني غير محتمل وأنا أورد كلام نجم الدين فيها لينظر فيه بانصاف (فاقول قال نجم الدين) في كلامه على أما التي للتفصيل اعلم: أن أما موضوعة لمعنيين لتفصيل بجمل أولا ستلزم شيء شيء ومن ثمة قيل إن فيها معنى الشرط والمعنى الثاني لازم لها في جميع مواضع استعمالها بخلاف معنى التفصيل فانها قد تجرد عنه وقد التزم بعضهم هذا المعنى فيها أيضا في جميع مواقعها فالتزم ذكر المتعدد بعدها وحمل قوله تعالى والراسخون في العلم بعد أما الذين في قلوبهم زيغ على

معنى وأما الراسخون وهذا وإن كان محتملا في هذا المقام إلا أن جواز السكوت على مثل أما زيد فقائم يدفع دعوى التزام التفصيل فيها انتهى والجواب أن ظاهر كلامه أنه لم يوجد غير الآية حجة الا ما ادعاه من حسن السكوت على مثل أما زيد فقائم فاما الآية فقد بطل الاحتجاج بها مع اعترافه باحتمالها للتفصيل . واما حسن السكوت من غير تفصيل فالجواب أن أما قد يكون معها ما يقوم مقام التفصيل من القرائن التي تقتضيه وان لم ينطق به وأما بالنظر الى معنى الملازمة فمسلّم ولا يضر تسليمه كما لو رأيت رجلا جاهلا فقلت له توييخا أو تخصيصا أما زيد فعالم والتقدير وأما انت لجاهل ومن ذلك قوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) فتخصيص الذين آمنوا بالذكر هنا مع دخول أما وإشعارها بالتقسيم قرينة دالة على أن المراد وأما الذين كفروا فليس لهم ذلك أو فلهم عذاب أليم أو نحو ذلك وهذا المثال نص عليه وعلى ما ذكرته فيه ابن هشام احد كبار النحاة في كتابه مغني اللبيب وقد اعترف الزمخشري في كشافه في تفسير قوله تعالى في آخر سورة النساء (فسيحشرهم اليه جميعا) أن ذكر احد القسمين في قوله تعالى (فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) يستلزم تقدير القسم الآخر في المعنى فكيف لا يستلزم ذلك في قوله (فاما الذين في قلوبهم زيغ) مع انها أولى لان القسم فيها مذكور وهم الراسخون في العلم لكن حذف وأما من صدره لوضوح القرينة فاذا وجب عنده

تقدير أما وما بعدها مع حذفهما مع دلالة القرينة على ذلك فكيف لا تقدر أما وحدها إذا حذفت في صدر القسم الذي بعدها بل كيف لا يجوز ذلك وما أوجه في بعض الآي حرمه في بعض ، فظهر أن ظاهر الآية عليهم لولا ما ادعوه من أنها من المشابه وقد أوضحت أنها من المحكمات وأن الوجه الذي احتجوا به لا يتهمسك ضعفا والله حمدو المنه * واما إن ادعى حسن السكوت مطلقا بالنظر الى معني التفصيل الموضوع له فمنوع لانه نفس المتنازع فيه الذي يخالفه فيه من قد ذكر خلافه وهو الذي ادعى حسن السكوت عليه ، أما أن يكون له عليه دليل أورده فلا ولو كان لا ورده لكنهم ما وجدوا غير الآية وإذا كان اصل اما للتفصيل وفاقا لم يصح دليل على خلاف الاصل لان المدعى له مستغن عن إقامة الحجة لبقائه على الاصل ووجبت الحجة على من ادعى خلاف الاصل * على أن من ادعى حسن السكوت على ذلك ادعى انها تكون للتوكيد واخرجها من بابها ذكره ابن هشام ولم أعرف عليه دليلا وعلى تقدير صحته فلا يجوز الا في كلام مبتدأ لم تتقدمه جملة يكون تفصيلا لها كقولك أما زيد فعالم مبتدئا بذلك اما إذا قدمت جملة ثم عطفت عليها بالفاء قبل أما المستلزمين في العادة للتفصيل فلا بد من تقديره كما تقول وقد الناس على الخليفة فاما الفضلاء فاعلمهم وتسكت أو تقول والاراذل اهانهم بحذف اما من صدر التقسيم فمن التعسف ، والتعسف الفاحش تقدير قسم آخر غير قولنا والاراذل اهانهم كما زعم بعض المتأخرين في قسم (فاما الذين في قلوبهم زيغ) انه محذوف مقدر وليس هو قوله تعالى (والراسخون في العلم) مع إقرار

ونسبة العفل الى الجحد قرينة على انه مؤول او محبذ فيه فلا يكون كذبا لاسيما
فيه قول بالوقف على بل فعله والامتداء بقول كبيرهم هذا كما سيحكي ان شاء الله تعالى
قريباً لا انه لما كان شانه عالياً عن الكناية بالحق فيقع ذلك هو قعر الكذب
عن غير الانبياء اولاً فلما كانت صورتها صورة الكذب سميت كذبات
حاصل الكلام ان كان المراد بالكذبات المذكورة في الاخبار الكذب حقيقة
فلا نسلم صحت الاخبار لان الانبياء معصومون عنه وان كان المراد بها
الكذب صورة لا حقيقة فلا يفيو مطلبنا بما قال القسطلاني في رد كلام
الامام من قوله واما قول الامام فخر الدين لا ينبغي ان ينقل هذا الحديث
لان فيه نسبة الكذب الى ابراهيم وقول بعضهم فكيف يكذب لراوى العدل
وجواب الامام له بانه لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوى
ونسبة الكذب الى الخليل كان من المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوى
اولى فليس بشيء اذ الحديث صحيح ثابت وليس فيه نسبة محض الكذب
الى الخليل وكيف السبيل الى تحطية الراوى مع قوله اني سقيم وبل فعله
كبيرهم هذا وعن سارة اخبره اذ ظهر هذه الثلاثة بل هو ريب غيره
ليس بشيء لان الامام لم ينكر عن صحت الاخبار مطلقاً بل على تقدير

يضعفه أيضا وهذه فى معنى قراءة أبى وابن عباس رضى الله عنهما فهؤلاء ثلاثة من أكابر الصحابة ما كانوا ليفتروا فى كتاب الله عز وجل ومن عادة الزمخشرى التقوى بالقراءات العربية على المعانى فكيف بالمشهورة المصححة والحمد لله كثيرا

(الوجه الحادى عشر) الوقف على الله وقدم كلام على عليه السلام فى ذلك وهو امام الراسخين وهو معروف عن القراء مشهور بينهم وقد نقله ابن تيمية عن جمهور الأمة وعن أقرأ الصحابة أبى بن كعب وعن ابن عباس المسمى فيهم بالحبر وبالبحر المجابة فيه الدعوة النبوية فى تعليم التأويل وهو التفسير كما ذكره ابن تيمية فيما تقدم وعن ابن مسعود: المجاز من الشيطان الذين رضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأتمته مارضى لهم وعن غيرهم وقد وافق الزمخشرى على نقله قراءة عن أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود فيكفى فى وجوب العمل وصحة الترجيح نقل واحد منهما

(الوجه الثانى عشر) ان مثل فواتح السور لو كانت معروفة لاهل العلم لجاز ان تنزل سورة كبيرة ليس فيها الا حروف مقطعة مسرودة يكلف العلماء معرفة المراد منها وتفصيل مدلولاتها من وعد ووعد وأوامر ونواهى بل كان يلزم تجويز أن يكون القرآن كله كذلك وكذلك كتب الله الى جميع الرسل كلها لانه لا يقبح فى ذلك الا عدم معرفة معناه وهم ادعوا معرفة معناه فاذا كانوا يدعون معرفة مراد الله تعالى بالحرف المقطوع والحرفين والثلاثة والاربعة الى العشرة وزيادة عليها جاز فى أكثر من ذلك ولا حاصر ولا حاجر

(الوجه الثالث عشر) انه كان يلزم أن يفهم مثل هذا عن غير الله تعالى فيخاطب العقلاء بذلك ولا ينكر على من دخل على قوم أن يكون أول كلامه لهم كذلك والله أعلم

(الوجه الرابع عشر) أنه يلزمهم ان يحسن من العلماء أن يصنفوا في الحلال والحرام ويعبروا بالحروف المقطعة لانه يمكن فهم المراد منها (الوجه الخامس عشر) انه لم يرد شيء من ذلك قط بعد الخطاب فلم يرد يا أيها الذين آمنوا كما ورد يا أيها الذين آمنوا أقيموا الصلاة فدل على انها كلام لا خطاب

(الوجه السادس عشر) وهو ما يبطل دعواهم لذلك بحجة واضحة يعبر عنها بحروف مقطعة من جنس ما فهموه عن الله تعالى فان فهموا عنا مرادنا فيها سلنا لهم وان لم يفهموا ووضح الحق فنقول في احتجاجنا عليهم الم وكيعص

(الوجه السابع عشر) ان ترك تفسير المتشابهة أحوط لان الانسان يسأل عما قال مطلقا خصوصا في تفسير كتاب الله تعالى مع ما ورد فيه من التشديد كما تقدم ولا يسأل عن قوله لا أعلم فيما لا يعلم والوقف عند الشبهات من صفات المتقين بل من صفات العقلاء أجمعين وقد قيل اذا ترك العالم لأدرى أصيبت مقاتله وتقدم قول على عليه السلام بابردها على الكبد: قولك فيما لا تعلم الله أعلم

(الوجه الثامن عشر) أن تأويل المتشابهة من التكلف وقد قال عمر في الاب ما قال كما هو في الكشاف وغيره ولم ينكر على عمر أحد فكيف بالمتشابهة وقد قال الله تعالى في صفة نبيه صلى الله عليه وسلم (وما أنا من

المتكلفين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم (هلك المتنطعون)
وهم المبالغون في الأمور

(الوجه التاسع عشر) ان التكليف بمعرفة المشابهة على التفصيل من
الخرج وقد نفى الله الخرج عن الدين

(الوجه الموفى العشرين) انه لم يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم انه اشتغل بتعليم ذلك وقد قال الله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله
اسوة حسنة) وكذلك الصحابة لم يبحثوا عن ذلك وهم خير أمة
أخرجت للناس

(الوجه الحادى والعشرون) انا لو عرفنا معانى تلك الحروف كما
ادعى بعض المفسرين انها اسماء للسور أو اشارة الى اسماء الله تعالى
لكانت مع ذلك جملة لحذف التركيب منها فانك اذا نطقت باسماء
معروفة من غير التركيب لم تفد كما لو سردت نحو زيد . خالد . بكر .
محمد . عبدالله والله أعلم

(الوجه الثانى والعشرون) ان الراسخين فى العلم أرفع درجة من العلماء
غير الراسخين ولو تحقق أحد انه من العلماء على قلتهم لم يتحقق انه من
الراسخين واذا سلمنا أن الراسخين هم الذين فسروها لا الذين توقفوا
في معانيها فان المفسرين لها اختلفوا اخلافا شديدا ومع اختلافهم وقع
الاشتباه على غيرهم خصوصا حيث يتعذر الجمع ولم يرد التعبد بالتقليد
في غير العمليات بل ورد النهى عنه وذم من عمل بغير علم وقال الله تعالى
(ولا تقف ما ليس لك به علم) وقال تعالى (وان تقولوا على الله مالا تعلمون)
فيكون الاحوط في غير الراسخين مع تقدير اختلافهم ترك الخوض

في ذلك سواء قدرنا أن الراسخين معطوفون على الله تعالى أو لا، وأقل من هذا يكفي المنصف، وأكثر منه لا يكفي المتعسف وهذا منتهى ما حضرني من الكلام في هذه الآية الكريمة من غير تطويل بذكر الاسئلة والمناقضات والمعارضات * فاذا تقرر هذا فاعلم ان المتشابه يطلق على معنيين لغوي وشرعي: أما اللغوي فهو ما لا يمكن فهم المراد منه وهو المسمى بالمجمل في أصول الفقه، وقد يكون في مفرد بالاضافة كالقرء للطهر والحيض، والمختار اسم فاعل واسم مفعول، وفي مركب مثل (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) وقد استوعبت الاصوليون اقسامه وجوده المحققون منهم الكلام فيه وليس مما نحن فيه

(القسم الثاني من المتشابه الشرعي) وهو ما لا تتضح في العقل حكمته أو صحته أو معناه كالخروف في أوائل السور فهذا نوعان:

(النوع الاول) ما لم تتضح في العقل الحكمة فيه في مثل خلق من المعلوم انه لا يؤمن وهو أدق المتشابه ولذلك سألت عنه الملائكة وما حصلوا في هذه المسألة الاعلى العلم الجملي وكثرة المتشابه في هذا النوع هو سبب الاضطراب العظيم في مسألة التحسين والتقييح وتفرع عنها الكلام في أفعال العباد وأجمع الكل من الشيعة والمعتزلة وطوائف الاشعرية الأربعة على أن العبد فاعل مختار وهذا غريب لا يكاد يصدقه الواقف عليه ويبادر الى تكذيب راويه حتي يبحث البحث التام فيأخذ بتحقيق المذاهب من كلام محققى أئمتهم وحوافل مصنفاتهم ومع غرابته قد نص عليه السيد صاحب شرح الاصول في أوائل الفصل الثاني في العدل في الكلام على التحسين والتقييح وقال فيه ما لفظه وبعد فلا

خلاف بيننا وبينكم في ان هذه التصرفات محتاجة اليها ومتعلقة بنا وانا مختارون فيها وانما الخلاف في جهة التعلق أكسب أم حدوث هذا انصه بحروفه ، وقد جمعت هذه المسئلة ولخصتها في سنين عديدة وجمعت فيها مصنفاً مفرداً وبان لي انه لا يوجد جبري محقق إلا ان تكون فرقة شاذة كالمطرفية والحسينية من الزيدية ونادراً كالرازي وحده في احد قوله وقد رجع عنه في نهاية العقول وفي وصيته التي مات عليها أو عامي لا يدري كالمشبه من عوام الزيدية والمعزلة وبهذا تظهر قوة مذهب اهل البيت واتباعهم * وانما الكلام في كفر من صح عنه محض الجبر مع اجماع الكل على تضليله بل في الاشعرية من يكفر الجبرية ومن هذا النوع يجب الايمان بالقدر خيره وشره مع التنزه عن الجبر ونفى الاختيار وكذلك الايمان بقدره الله تعالى على هداية الخلق اجمعين لو شاء ذلك كما صرح به القرآن في غير آية اختيارا منهم وقهرا لهم مع اعتقاد ان الله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وانه يكره المعاصي قال الله تعالى (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) ولتحقيق الكلام فيه موضع غير هذا ومن مظانه العواصم فقد أوضحت فيه نصوص القرآن والسنة ونصوص قدماء العترة وكثير من متأخريهم وحجة المعقول على ذلك

(النوع الثاني) من المتشابه ما لم تتضح في العقل صحته ولا أمكنه تصويره وهو قسمان . القسم الاول ما يتعلق بذات الله وصفاته وهو من مجارات العقول وليس فيه أنجي من اتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وترك التخيل لتشبيهه الرب جل جلاله بشيء من المحسوس والموهوم

والمعقول وقد أوضح نهج السلامة فيه امير المؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام فروى أبو طالب عليه السلام باسناده المة تقدم في تفسير الراسخين ان رجلا سأل امير المؤمنين عليا عليه السلام في مسجد الكوفة فقال له يا امير المؤمنين هل تصف لنا ربنا فزداد له حبا وبه معرفة فغضب على عليه السلام ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد باهله ثم صعد المنبر وهو مغضب متغير اللون فحمد الله واثني عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم سرد خطبته عليهم الى قوله يا ايها السائل اعقل ما سألتني عنه ولا تسألن احدا عنه بعدى فاني أ كفيك مؤنة الطلب وشدة التعمق في المذهب فكيف يوصف الذي سألتني عنه وهو الذي عجزت الملائكة مع قريهم من كرسى كرامته وطول ولهم اليه وتعظيم حلال عزته وقر بهم من غيب ملكوت قدرته ان يعملوا من علمهم الا ما علمهم وهم من ملكوت القدس بحيث هم ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم) فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسل بينك وبين معرفته فأنتم به واستضىء بنور هدايته فانما هي نعمة وحكمة أو تيتها فخذما أو تيتها وكن من الشاكرين وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا عن أمة الهدى أثره فكل علمه الى الله تعالى فانه منتهى حق الله تعالى عليك وقال على عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام وهي خير وصية من خير موص الى خير موصى اليه، ودع القول فيما لا تعرف والنظر فيما لم تكلف وأمسك عن طريق اذا خفت ضلالتك فان

الوقوف عند حيرة الطريق يكون خيرا من ركوب الأهوال فقد أوصى عليه السلام بالرجوع الى القرآن وقد دل على ذلك ما لا يحصى من برهان وقد مدح الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأخبرنا ان في كتابه آيات محكمات ومتشابهات فنظرنا الى ما أجمعت الأمة على إحكامه من صفات ربنا جل جلاله فوجدناها قد أجمعت على قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فعقدنا على ذلك عقائدنا وضمنناه ضمايرنا وطوينا عليه طوايانا وعلنا أن ماناقض معناها ظاهرا فهو من المتشابه الذي يجب علينا الايمان بتزييه والوقوف عما لانعله من تأويله (القسم الثاني) من المتشابه المتعلق بافعاله بالنظر الى صحته وهو أسهل المتشابه وأقله خطرا بل لاخطر فيه لان الايمان به من جملة الايمان بقدره الله تعالى وهو انواع

(النوع الاول) إحياء الموتي وهو أشبه شيء بخلق الحياة في الجمد الذي هو النوع الثاني : وانما كان أشبه شيء به لان الميت بعد الموت لا يسمى بعد البلى في التراب جمادا وأجمع المسلمون على كفر من شك في صحة هذا من الملاحدة وعلى كفر من أظهر الايمان به وادعى انه مجاز من الباطنية الذين جحدوا حياة الاجساد في الآخرة وقد أراد الله اكرام خليله ابراهيم عليه السلام باخراج ايمانه من هذا من الغيب الى الشهادة وجعل سبب هذه الكرامة خطوط خاطر أوجب السؤال لربه جل وعلا فقال عليه السلام (رب أرني كيف تحيي الموتي قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم

ان الله عزيز حكيم (وقال تعالى قبل هذه الآية في هذا المعني (او كالذي مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال اني يحيي هذه الله بعد موتها فآياته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتثنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم ان الله على كل شيء قدير) فمن كفر لعدم ايمانه باحياء الموتى فانما كان سبب كفره متابعته لمجرد استبعاد العقل لذلك وقد رد الله تعالى هذا الاستبعاد بقوله جل وعلا (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) الى قوله (انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) وقال تعالى فى ذلك (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) وهذه أقصم آيات لظهور أهل الريب ومن هنا أنكرت طائفة من المبتدعة عذاب القبر لمجموع علمين عندهم نظرى وضرورى تجريبي، أما النظرى فهذه المسألة؛ وأما الضرورى التجريبي فوجدناهم على طول التجارب عظاما بالية وقد تطابق السمع على رد ذلك وصدعت به النصوص الصريحة الصحيحة، وذكرك فى هذا الموضوع مما يؤدى الى التطويل

(النوع الثانى) وقوع بعض خصائص الاحياء من الجمادات من غير

بنية مخصوصة من لحمية ودمية حتى يصح منها الكلام وذكر الله تعالى والاقربار به والسجود له وهذا في القرآن كثير جدا وجمهور المسلمين على الايمان به ومن أوضح أدلتهم ان الله موصوف بالحياة من غير هذه البنية المخصوصة فكيف يستحيل بعض خصائص الحياة في غير الاحياء وانما خالف بعضهم في ذلك لاجل القرينة العقلية فجعلوا قول الله عز وجل في السموات والارض (قالنا أتينا طائعين) مثل قول الشاعر :

فقال له العينان سمعا وطاعة وحد رتا كالدر لم ينتقب
وقد غفلوا في هذه غفلة عظيمة فان الشرط في قرينة المجاز ان
نكون متقرررة عند من وجه الخطاب اليه معلوما عنده بطلان ظاهر
الكلام كما في قولك في وصف الكريم انه بحر عذب او مزن ثجاج
بحيث لا يرتاب في ذلك السامع لكن الكلام اذا صدر ممن يعلم ما لا يعلمه
ويقدر على ما لا يقدر عليه وقد جربنا خرق العادات من جهته وعقدنا
ضماننا على الايمان بما لا نحتمله عقولنا من اخباره حتى صدقناه في
خروج العالم من العدم وثبوت موجود لا اول لوجوده من القدم
وحياة الموتى وثبوت الدار الآخرة فهناك تنهد القرينة العقلية ولا
تتمسك ضعفا في مقام الآي القرآنية وان كانت في سائر الكلام قوية
او ضرورية ومثال ذلك أنا إذا سمعنا قول الشاعر :

شكى الى جملي طول السرى * يا جملي ليس الى المشتكى
لم نشك في انه أراد المجاز بقرينة الحال وهو شكى وباقى ذلك
ولذلك لم تخف على العقلاء مقاصد الشعراء والبلغاء ولا استراب

فيها ذكي ولا غبي واما حين سمعنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان هذا الجمل شكى الى انك تجيعه وتؤذيه فانها تتبادر أفهامنا الى الايمان بظاهره ولو انا عددنا هذا وامثاله من حنين الجذع وتسبيح الحصي وكلام الذراع على المجاز لادى هذا الى الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحاشا مقامه العزيز من ذلك لان كلام هذه الاشياء المجازي ممكن حتي مع الكفار قالوا العلم بعدم حياة الجمادات ضروري قلنا مسلم وهو غير محل النزاع فاننا نعلم الآن انها جماد وانما النزاع في ان العقل هل له طريق الى القطع بان الله تعالى لا يدخل في مقدوره حياتها في بعض الاوقات متى شاء وهي على صفتها او صدور بعض خصائص الاحياء عنها وهي جماد وهذا لا يناقض علمنا بانها الآن جماد ودليل عدم التناقض في ذلك ان الجميع يقر أن الله تعالى قادر على اعدام الأجساد او تحويل الحجاره ذهابا وفضة ودرا وياقوتا الى القرسة^(١) العليا المدر كة بالبصر ومع علمنا بقدرته تعالى على ذلك فانه اذا دخل بمنزله او غمض عينه يعلم ان الدنيا باقية على حالها وان الله لم يعدمها ولا حول ذاتها فمتعلق العلم ماهي عليه الا ان ومتعلق التجويز القدرة فكذلك مسألتنا وكذا العلم بانه لا يصح صدور الكلام عنها بل فهم أن يكون ضروريا وان لا يكون مقدور لله وهم لا يخالفون فيه وهما في العقل سواء

لكنهم لما صح لهم ورود السمع في خلق الكلام على وجه لا يصح تأويله حكموا أو بعضهم بان مايتوهم علما ضروريا في مسألة الكلام

(١) القرسة هكذا في ثلاث نسخ خطية ولم أجدها في القاموس فلتراجع اه مصححه

من العقائد الوهمية الانتقادية والقطع في مسألة الحياة مثله سواء (١) وسياقي بيان ان هذه الامور أو بعضها غير وارد على طريق المعجز لعدم قصد التصديق في دعوى النبوة وعلم الغير بوقوعها إلا من اخبار الانبياء عليهم السلام كما يقول في رؤية الخليل عليه السلام لاحياء الموتى ونحو ذلك مما يجرى له قبل النبوة على ان الحق جواز خرق العادات لغير الانبياء عليهم السلام كما هو مبين في موضعه والله سبحانه أعلم * سلطنا ان الحياة غير منقسمة وانه لا حياة إلا في بنية مخصوصة مثل بنية هذه الحيوانات فما المانع من ان الله تعالى يحيي السموات والارض وكل شيء ويجعل ذلك كله على هذه البنية ويصدر منه التسييح الحقيقي في وقت لا نعلمه أو في أوقات كثيرة لانعلمها أو في الآخرة أو قد فعل ذلك فيما مضى قبل وجودنا وهذا يمكن عند جميع اهل الاسلام من اهل السنة والبدعة والجمود والكلام ويمكن ان يحمل عليه سائر الآيات الواردة في ذلك كما يأتي الآن ذكرها وذلك مع امكانه متعين لان المجاز خلاف الاصل الظاهر ولا يحل المصير اليه مع امكان الحقيقة وفي ذلك صون جلاله التنزيل من تجرؤ كل فرقة على مستبعد التأويل بادني شبهة يتوهمون انها تستحق اسم الدليل فاين خصائص النبوة وما فائدة الاخبار بالمجاز الذي يمكن كل واحد ان يخبر بمثله فان اجازوا كلام الجراد من غير آلة ولا بنية فليجيزوا خلق الحياة فيه من غير بنية فان الجميع على خلاف المعقول ذاحيرة * ولما بلغ الخوض في هذه المسئلة الى مولانا امير المؤمنين وسيد المسلمين المنصور بالله عليه السلام أحيا

(١) هكذا في ثلاث نسخ الكتاب الخطية وهي في غاية الركة فلتحذر ان تصححه

الله بعلمه السنن واطفاً بسيفه الفتن أنكرها انكار السلف الصالح الذين لم يشب صفو ايمانهم كدر البدع ولا خالط يقينهم مرض الريب فانه عليه السلام اشبه الأئمة بالسلف هدياً ودلاً وفعلاً وقولاً وعلماً واعتقاداً وجهاداً واجتهاداً وكان مما احتج به عليه السلام قول الله سبحانه (يومئذ تحدث اخبارها بان ربك أوحى لها) فيا لها من حجة نافعة لمن أنصف، قاطعة لمن تعسف، لوجوه (الاول) انه الظاهر ولا يجوز العدول عن الظاهر إلا بدليل مانع منه باجماع المسلمين ولو جاز العدول الى المجاز بمجرد الاستحسان مع جواز الحقيقة لصح مذهب الباطنية وامثالهم ولم يوثق لله سبحانه وتعالى بخبر ألبتة والعجب من الزمخشري انه اختار ان التحديث منها والايحاء اليها مجاز ثم روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يناقض قوله ولم يقدر في صحة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ان مقتضاه قول لغيره واخيار غيره اختياره من غير رد عليهم فما اعجب ما صنع فان كانت الحقيقة عنده جائزة غير مستحيلة فما يسوغ له صرف كلام الله عز وجل عن حقائقه ولا يحل له تقديم رآيه على صوادع القرآن ونواطقه، وان كان الظاهر عنده من المحالات بالادلة العقلية القاطعة فما يحل له ان ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول المحال الذي نزه عنه نفسه ثم لا يزيفه لان القول بوجود ذلك عنده كذب وزور بالادلة القطعية وجدير ان لا تسود له تفاسير الكتب الربانية وهذه طريقة الزمخشري في كثير من تفاسيره وله بالمجاز ولع كثير حتى انه ذكر ان خلق الله عز وجل للخلق مجاز وان الحقيقة انما هي في خلق احدنا الاديم ونحوه

ذكره في اساس البلاغة وهذا يقتضى ان تسمية الله تعالى بالخالق مجاز
يجوز نفيه عنه بغير قرينة ويكون الحق وصف الله بانه غير خالق على
التحقيق وانما الخالق الحق من لأحب ذكره هنا من صناعات الجلود وهو
الذى يوصف بذلك حقيقة فاعرض هذا على قول الله تعالى (هل من
خالق غير الله) وعلى ما يسبق الى افهام أهل اللغة عند الاطلاق الذى
هو اخص واصاف الحقائق، ومنتهى الامر ان يكون ما ذكره هو الاصل
في الحقيقة اللغوية فقد صار الخالق يطلق على الله تعالى في الحقيقة العرفية
بل في الحقيقة الشرعية وهى أقدم الحقائق وكتاهما مقدم على الحقيقة
اللغوية كما هو مقرر في علم اصول الفقه والخالق من الاسماء الحسنى
وحيث يراد به ايجاد الاجسام ونحوها واخراجها من العدم المحض
يكون مختصا بالرب سبحانه وعليه قول الله تعالى (هل من خالق غير الله)
وحيث يراد به تصويرها وتركيبها واحكامها وتقديرها يكون سبحانه
أحسن الخالقين ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء، والاحكام
وحسن التقدير والتصوير من آثار العلم باتفاق العلماء ولذلك كان
دليلا على علم الله سبحانه وعلم العباد في علمه كما قال الخضر لموسى عليه
السلام (ما علمى وعلمك وعلم جميع العالمين في علم الله الا مثل ما اخذ
هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر) فالتام المستعان

(الوجه الثاني) ان قوله تعالى (بان ربك أوحى لها) مانع من ذلك وقد
أقر بما يقتضى ذلك في كشفه فقال ان الباء متعلقة بتحدث معناه اخبارها
بسبب ايجاء ربك لها وامره اياها بالتحديث هذا اللفظ ثم زعم ان الوحي
مجاز محتجا بقول الشاعر :

أوحى لها القرار فاستقرت * وشدها بالراسيات الثبت

ونسى ما تقرر في العلم الذي هو صنعته من وجوب تقرر القرينة عند من خوطب حتي لا يكون المتكلم ملغزا ولا ماجنا ولا لاعبا عابثا تعالى الله عن ذلك ولا حجة له في البيت لان الشاعر ان كان مسلما يجوز انه قد سمع قوله تعالى (قالنا أتينا طائعين وقوله بان ربك أوحى لها وقوله انما أمرها اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون) ونحو ذلك وجاز ان يريد الحقيقة لان في فرق المسلمين من يقول بذلك وفي فطر الاكثرين ممن لم يتلقن الكلام، وان كان كافرا من كفره العرب جاز ان يقول ذلك مستندا الى ماسمعه من بعض أهل الكتب الأولى ومن البعيد أن يكون هذا الشاعر معتزليا من علماء الكلام او فلسفيا من متخذي لغة اليونان ولو سلطنا انه ما أراد الحقيقة فبقريئة ظنية غير سالمة من المعارضة، ولو سلطنا القطع بأنه متجاوز هنا لم يلزم القطع في الآية بمثله فان كلام رب العزة جل جلاله الذي يعلم ما لا يعلمه أحد ويقدر على ما لا يقدر عليه أحد يحمل على الحقيقة في الأمور الممكنات في قدرة الرب جل وعز ولا يصح كلام الباطنية في أن القيامة مجاز وحياة أهل الجنة والنار كذلك بل كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذلك الا ترى انا متى سمعنا قوله عليه السلام — ان هذا الجمل شكى الى حملناه على ظاهره كما مضى بخلاف قول الشاعر على ان كون الإشارة الى البهيمة يسمى وحيا من قبيل المجاز دعوى منه والظاهر أن الوحي لفظة مشتركة بين معان على الحقيقة حيث هي الاصل ولا يثبت المجاز الا بدليل فبطل

ما عول عليه من الحجة ، يو ضحه ان الوحي الذي في قول الشاعر هو الى حيوان له الهام الى الاشارات والوحي الى الارض ليس من هذا ولا يصح فيها مثل هذا عنده فكيف نحتج على الشيء بما لا يلائمه ولا يقاربه الى هنا

الوجه الثالث : ان دار الآخرة محل وقوع الخوارق وتقلب العوائد وفيها تتكلم الأيدي والأرجل والجلود والمقصود بما تقع به الاخبار من أحوالها في كتاب الله تعالى المنبه على العباد بتعريف ما لا يعرفونه وتحقيق ما يوعدونه، وحمل ذلك على المجاز عكس لهذه الحكمة الربانية والدلالة على رب العزة جل جلاله في آياته الفرقانية ، وتشكيك على المؤمنين في قبول ظواهر الأخبار القرآنية من غير دلالة قطعية وهذا خطر جليل، وخط كثير غير قليل، وإذا كان القصد بتفسير كتاب الله والنظر في مراد الله هو التقرب الى الله فإلنا والتعرض لمثل هذه الاخطار، والتقديم لباديء الرأي على ظاهر خبر الله الذي هو أصدق الاخبار، ولما رأيت ما وهب الله تعالى لمولانا أمير المؤمنين من قوة الايمان واليقين والثبوت على مناهج السلف السابقين اثار منى كامنا وحرك ساكنا فأحببت ان أتلو بعد هذه الحجة القاطعة والآية الساطعة ما حضرني مما يقوى معناها فن ذلك قوله سبحانه (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله) وقوله (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) وقوله تعالى (تسبح له السموات السبع والارض

ومن فيهم وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وقوله في هذه الآية الكريمة (ومن فيهم) مانع واضح من تأويل الزمخشري لتسبيح السموات والارض بالمجاز لأن تسبيحهم حقيقي وتسيبهم مجازي وقد اعترف أن الكلمة الواحدة لا تكون حقيقة ومجازا في حال واحد وقد التزم بهذا أن تسبيح المكلفين مجاز وماذا أولى من عكسه ولا يعجز خصمه عن مثل دعواه وقد دل على ذلك أيضا قوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لكنه قد تمحل وتكلف تأويل ذلك بما لو صح له مثله لم يعجز أحد من الملاحدة عن تأويل نصوص القرآن على الفساد بمثل ذلك، ومن العجب ارتكاب مثل هذا في كلام الله لتجويزه من غير ضرورة فان ذلك متي صح لم يؤد الى تشبيهه ولا جبر ولا نقص على الله تعالى ولا تكذيب له ومع ما في تجويز ذلك من المفسدة الكبرى وهي تصحيح دعاوى التاويلات الباطلة والنادرة وهذا يوهن كون القرآن حجة نيرة وحكما عادلا بين المختلفين الى يوم القيامة لانه لا يكون كذلك بلفظه بل بمعناه فيجب أن يكون معناه مصونا عن قبول مثل هذه الدعاوى فيه والا بطلت الحجة فيه وادعى كل ماشاء في معانيه والله المستعان وقوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) وقوله (ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال اوبي معه والطير) وقوله (قل أتئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين) ففي هذه الآية

الشريفة الرد على الجبرية لنصها على الفرق بين الطوع والكره كما هو معلوم من ضرورتي العقل والشرع وفيه الرد على من تأول قولها أتينا طائعين بنفوذ مراد الله فيهما لوجهين (أحدهما) ان الآية مستلزمة لصحة إتيانها على وجهين مختلفين (أحدهما) يسمى طوعا والاخر يسمى كرها وذلك لا يصح الا إذا كان الايتان فعليهما حقيقة اما إذا كان فعل الله حقيقة لم يتصور منه ذلك الانقسام بل بفعله تعالى كما قال سبحانه (انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ولو صح ذلك الانقسام فيه كان ذلك جوابا للجبرية

(وثانيهما) انه لو كان كذلك لم يختص بالوقت الذي عينه في الآية فانه عطف الاستواء ثم التي تقتضى الترتيب والمهلة والقول لهما بالفاء التي تقتضى الترتيب بغير مهلة وهذا يدل على انه قال ذلك بعد خلق جزء من الأرض وبعد دحوها لا كما قال الزمخشري انه قبل دحوها والدليل على ذلك انه نص على ان ذلك بعد خلق الجبال فيها وذلك لا يتصور الا بعد الدحو وهو مقتضى الحكمة في خلق الجنة كما جاء في غير هذه الآية وعلى هذا فقد كان قول الأرض بعد تمام مراد الله في خلقها فلم خصه بذلك الوقت وهو قبله او لا على تأويلهم ثم لفظ الايتان لا يناسب تأويلهم واوله الزمخشري بالايتان الذي يحتاج الى مبتدأ مرفوع وخبر منصوب مثل صرنا طائعين فلم يطابق خصوصا على اختياره في العربية ان جاء ونحوه لا يكون فعلا ناقصا بمعنى صار في نحو قولهم جاء البرقفيزين وقوله تعالى لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله) وقوله (ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او

قطعت به الأرض او كلم به الموتى وقوله والنجم والشجر يسجدان وقوله الم تر ان الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب) وقوله فى هذه الآية (و كثير من الناس) دليل الحقيقة لانا لو حملنا سجود الجمادات على المجاز الذى هو نفوذ مراد الله من فعله فيها من غير اختيارها لدخل الكفار فى ذلك فان مراد الله تعالى من فعله فيهم نافذ من إمراضهم وموتهم وأمثال ذلك ويؤيده قوله تعالى فى النحل و(الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) ولو لم يكن لها فى التسخير فعل تكون به مطيعة لله تعالى لم يقل بأمره كما لا نقول ذلك فى مخلوقاته المحضنة فتأمل ذلك والله أعلم * مع ان تسمية المقهور ساجدا على الاطلاق غير معروفة فى لسان العرب ولا واضح القرينة ، وقد اشترط علماء هذا اللسان وضوح القرينة ولذلك منعوا تسمية أبخر الفم أسدا لأجل اشتراكهما فى البخر وليس فى لغة العرب أن يقول سجدت لى الأرض إذا كان متمكنا من عمارتها وخرابها وزرعها ونحو ذلك ولو كان كذلك لصدق سجود كثير بما ذكر الله تعالى للمخلوقين لتمكنهم منها مثل الشجر والدواب فان قيل هذا من المعانى المتشابهة وأتم قد منعم الكلام فيها وهذا تناقض فالجواب ان الامر ليس كذلك لوجهين :

الوجه الأول : انا انما منعنا من تأويلها والخوض فيها بغير برهان من الايمان بها والتصديق لظاهرها حيث لا قبح فيه ولا اضافة صفة نقص الى الله تعالى

الوجه الثاني: أن التاويل له معنيان أحدهما معرفة المعنى وهذا مما لا يمنع حيث تحصل عليه دلالة تفيد العلم أو الظن بل يجب التفسير به فيما يحتاج الى معرفته كالقرء لأجل معرفة مقدار العدة وان كان القرء متشابهاً لاشتراكه بين الظهر والحوض وأمثال ذلك وفي هذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء لابن عباس (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) وقال على عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام واني ابتدئك بتعالم كتاب الله تعالى وتأويله وشرائع الاسلام وأحكامه ولا أجاوز ذلك بك الى غيره، والدليل على ما ذكرته من أن هذا التأويل الذي كان أجمع عليه السلام أن يعلمه لولده الحسن عليه السلام غير تأويل المتشابه الذي لا يعلمه الا الله تعالى أمور: منها جميع ما تقدم من كلامه عليه السلام وغيره ومنها قوله عليه السلام عقيب هذا الكلام في هذه الوصية: ثم أشفقت أن يلتبس عليك بما اختلف الناس فيه من أهو أهم مثل ما التبس عليهم. الى آخر كلامه وهو يدل على ان الذي عرفه على بدايته به من تعليم الكتاب وتأويله هو الفروع دون الأصول وثانيها التأويل بمعنى معرفة وجه الحكمة في دقائق التحسين والتقييح وماهية الأمور وحقائقه في دقائق الجائزات والمحالات وما يمنع على العقول تصوره من المجازات وهذا هو الذي لا يعلمه الا الله دون الأول فالتاويل بهذا الوجه لا يعلمه الا الله وان علمنا معنى اللفظ والدليل على ذلك نص القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام وهو قول الخضر لموسى (سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا) ثم انه بين له وجه الحكمة ولم يكن تأويله بما يدل على ان قتل الغلام كان مجازاً أو

خرق السفينة وقع استعارة فكذلك هذا فانا نؤمن بان كلام الجمادات مع الله تعالى صحيح كما قال الله تعالى و كذلك سجودها واخبارها وسائر ما حكى الله عنها ولا ندرى بكيفية ذلك التي هي تاويله بهذا المعنى فثبت انه لا يعلم تاويل المتشابه في العقول الا الله تعالى وان علمنا الله سبحانه بخبره لنا وجود المتشابهات وقدرته عليها وآمنا بذلك في الجملة لم نكن قد شاركناه سبحانه فيما اختص به من علم تاويلها وتفصيل وجوه الحكمة والكيفية فيها وبما يدل على ذلك اقرارهم بوصف الله تعالى بكونه حيا حقيقة من غير بنية مخصوصة فان قالوا انما صح لكونه حيا لذاته من غير حياة قلنا إذا صح حي من دون حياة مع عدم معرفتنا لذلك ولا شبهة الجأئنا جازان تنقسم الحياة الى أنواع * بيانه ان حياة الملائكة عندهم تشترط فيها الرطوبة وعندهم أنهم لا يدركون ولا تدرك رطوبة حياتهم للطفهم فيجوز في كل جماد مثل رطوبتهم التي لا تدرك وأيضا فالأشجار ذات رطوبة وقولهم ليس لله حياة ولا علم بدعة ومناقضة في اللغة

النوع الثالث: كلام العجاوات من الحيوانات وذكراها الله تعالى ومعرفتها به سبحانه وهو أقرب في العقل من الاول وأصرح في نصوص القرآن والسنة ومع ذلك فقد صرح الزمخشري وغيره بتاويله مع تطابق دليل العقل والسمع على صحته فمن ذلك قوله تعالى (والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسيجه) وقوله تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسيجهم انه كان حليما غفورا) وقال حكاية عن سليمان عليه السلام (يا أيها الناس علمنا منق الطير

وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين) وقال جل جلاله (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها) وقال تعالى في قصة الهدهد (وتفقد الطير فقال مالي لأرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به [وقال تعالى] حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء [والحجة في أنطق كل شيء عامة في الحيوان والجماد وقال سبحانه (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون [وقال سبحانه [وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا امم أمثالكم [وقال سبحانه (واوحى ربك إلى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون) الآية وقال تعالى في الهدهد [فكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبابنا يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم [وقد اشتمل كلام سليمان عليه السلام مع الهدهد على الرد على الخصوم في قولهم ان كلام الهدهد معجز من فعل الله ولو كان كذلك ما قال سليمان سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين ولو جب القطع بصدقه لان كلامه على زعمهم

كلام الله وعلى الرد عليهم في قولهم ان الحيوانات لاتعقل ولو كان كذلك ما استحق الهدهد العقوبة التي توعدده بها سليمان عليه السلام بقوله لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه

ووجه آخر يدل على عقله وهو قول سليمان عليه السلام أولياتيني بساطان ميين فانه لايتي بالحجة البينة إلا العقلاء أو فطناء العقلاء والله أعلم ولا وجه يقصر هذا على ذلك الهدهد لقول سليمان عليه السلام (علنا منطق الطير) ولان قدرة الله تعالى صالحة لذلك في كل هدهد وقد أخبر بتسييح كل شيء وصلاة كل شيء فهذا مما ورد في القرآن العظيم * وأما الوارد في السنة الشريفة فما لاسبيل الى استقصائه وقد ذكر منه الامام المهدي محمد بن المطهر عليهما السلام جملة صالحة في تفسير قوله تعالى (ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون [وما أحق المتاول للجائزات بالخوف من هذا الوعيد الشديد فذكر الامام المهدي عليه السلام كلام الحيوانات في هذه الآية لما تعلق به من لعننا لمن لعنه الله فذكر كلام الثعالب وشعره الذي ذكره أبو طالب في الامالي و ذكر كلام البعير والعصا وكلام الضب والحمار الذي أخذ من خير وسؤاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن اسمه وحديث الناقة التي شهدت انها ملك لصاحبها وحديث الشجرة التي شهدت بالنبوة و ذكرها على عليه السلام في النهج وطول في هذا قدر كراس من أشعار وأخبار وروى ذلك كله بالسمع والاسانيد و ذكر القاضي عياض في كتابه الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى وذلك في ثلاثة فصول

أحدها في الحيوانات وثانيها في كلام الشجر وثالثها في كلام سائر الجمادات من كتابه وهو اجمع شيء لهذا المعنى * وذكر الزمخشري طرفا من ذلك في تفسير قوله تعالى حاكيا عن سليمان عليه السلام (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) على سبيل الحكاية منه لما لم يصح عنده كما صح في آية الزلزلة بعد أن صدر التفسير بمحاولة تأويلها فقال ان المنطق كل ما يصوت به في المفيد وغير المفيد

وحكى عن العرب انها قالت نطقت الحمامة وحملهم على التحقيق دون التجوز في نطق الحمامة مع أن تسمية ذلك نطقا لا يسبق الى الفهم الا بقرينة وهذا دليل المجاز ولم يجوز ان نطق الحمامة مجاز مثل خلق الله تعالى عنده للخلوقات ونظيره ثم بعد هذا فلو سلم له صحة تسمية صوت الطير الذي لا يفيد نطقاً حقيقياً فإنه لا يحسن من سليمان ان يخاطب في الناس بأنه علمه فان كل أحد من الناس يعلمه والذي أخبر به سليمان وضمنه الله تعالى كتابه العزيز وكلامه الجليل أمر عظيم ومعجز باهر وقد فهم الزمخشري أن تأويله هذا يبطل هذه الخصيصة ويمحوها وعلم أنه لا بد من أمر خص به سليمان فعدل عن المنصوص وقال ان الذي علمه أغراضها وهذا أيضا لا يختص به سليمان فان كثير من الخلق يفهم كثيرا من أغراض العجاوات لاسيما من مارسها وعلى تسليم ذلك فليست الأغراض تسمى منطلقا في اللغة فدار كلامه على ان الذي علمه سليمان أمر غير المنطق فان كان الذي علمه معجزا فهلا أقر بأنه المنطق الظاهر من غير تأويل، وان كان غير معجز لم يستحق التعظيم الكثير والتتويه بذكره في قول سليمان (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) ثم بتضمين الله

تعالى له في أعز كتبه المنزلة وآيه المكرمة ثم بعد قليل غص بريقه في قوله (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها) فاضطر الى الاقرار بظاها حتى قال ان إعجابها وضحكها كان بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى وذلك قولها وهم لا يشعرون يعنى لو شعروا لم يفعلوا انتهى كلامه وفيه مع الاقرار بنطقها الاعتراف بعقلها وفهمها المكان نبوة سليمان وعدله الذى لم يهتد اليه كثير من عقلاء الناس بل من المدعين للتبريز في علم المعقولات من الفلاسفة واشباههم فيا هذا ان كان مثل هذا جائزا عندك داخلا في مقدور الله فما أحل لك تأويل [علمنا منطق الطير] واوجب عليك الايمان بكلام النملة وان كان هذا الجنس عندك من المحال فكيف صح عندك الايمان به في هذه الآية وحدها وإن كان هذا تفسير المسمى بالعلامة المشهود له في علوم المعاني والبيان بالامامة وهو كذلك في هذا الفن فكلمة الحق لا يحددها ولا يحسده عليها فما ظنك بكثير من المفسرين الذين لم يعضوا على هذا العلم بناجد قاطع ولاحظوا من الاتقان له بطرف صالح فما أحق الناظر في كتاب الله تعالى بعدم الاتكال على تقليد الرجال أو على الترك لما لا يعرفه والاقصر على الايمان به والتلاوة وليتدبر جلاله التعبير وليعلم انها مرتبة تقارب مرتبة النبوة لأن مرتبة النبوة التبليغ عن الله تعالى لكلامه ولا شك أن معظم المقصود من كلام الله معناه فالمفسر له كالمبلغ عن الله سبحانه فاعتذارهم بان هذا معجز مردود بامور

أحدها أنهم انما منعوا من قبل المعجز لغير الأنبياء وهذا المنع غير صحيح
وتقريره في غير هذا الموضع وعلى تسليمه فليس القصد هنا فهم غير
الأنبياء لذلك انما القصد علم الله ومن شاء من ملائكته لذلك وكون ذلك
مقدورا لله متى شاء

الثاني أن شرط المعجز أن يقصد به تصديق مدعى النبوة وكون
النبوة في دعواه والا كانت كرامات الأنبياء والأولياء والملائكة وما
يظهر على أيدي الرجال كلها معجزات مثاله رؤية الخليل عليه السلام
لأحياء الموتى وملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين لا تسمى
معجزة لأن القصد بها تقوية إيمانه وشرط المعجز علم غير الأنبياء من
غير خبرهم وكثير من هذه الأشياء لم تكشف إلا لهم خاصة وهذه
كرامة لهم لا معجزة ونظيره ما يجرى لهم قبل النبوة وبعده الموت
في حال الخلوة

الثالث: أن كلامنا إنما هو في تأويل قوله تعالى علمنا منطق الطير
وإنما تأويلها من غير موجب والفرق بينها وبين كلام النملة بكون
كلام النملة معجزة غير صحيح لجواز أن يكون تعلم منطق الطير
معجزة أيضا وكذلك كلام الهدد وإن كان منعهم من أن يكون
عاقلا فلا استحالة في جميع ذلك في قدرة الله ولا في بعضه فليس فهم مقاصد
الكلام يستلزم العقل كما لم يستلزم ذلك فهمها الإشارات وفهم الصبيان
ذلك قبل البلوغ والله اعلم

وفي قصة الهدد ما يدل على أنه عاقل لأنه علم بوعدته بالعقوبة وما
يدل على أنه متكلم باختياره لأنه قال له سننظر أصدقت أم كنت من

الكاذبين ولو كان كلامه معجزا لكان من فعل الله ولو جب صدقه ولم يكن محتاجا الى امتحانه ولم اقصد بالتطويل في هذا نقيصة عالم وانما قصدت ان يكون تالى كتاب الله تعالى عارفا بما اشتملت عليه التفاسير من الحشو الكثير حذرا من البدع يعظا فيما يحتاج الى النظر لا يتبع كل ناعق ولا ينقاد لكل سائق والله عند لسان كل ناطق وقلبه ونيته والدين النصيحة لله تعالى ولكتابه ولائمة المسلمين وعامتهم والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله

﴿ فصل ﴾

﴿ في الإشارة الى ما يعرف به المجاز من الحقيقة ﴾

اعلم ان اللغات بأسرها ما وضعت إلا لبيان المقاصد وإيضاحها وان المجاز لو صح على الاطلاق من غير شرط ولا دلائل عليه لبطلت الفوائد المأخوذة من الكتاب والسنة بل لبطل فهم بعضنا من بعض وإذا أردت ان تعلم ان الامر في ذلك غير ملتبس لولا الاهواء والعصيات فانظر الى اشعار الفصحاء وخطب البلغاء كيف يبين فيها المجاز من الحقيقة من غير لبس فكيف يقع اللبس الشديد في كلام المعصوم من التلبس على المخلوقين المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم بل في كلام الله جل جلاله الذى جعله شفاء لما فى الصدور ونورا لا يطفأ إذا طفىء كل نور فقد وصفه الله اصدق الواصفين بما يجزى الصادين عنه والمتشككين من الاحكام والفصل والفرقان والنور والهدى والتبيين، والعقل يدرك هذا لو لم يرد منصوصا فى القرآن

* المبين *

فإذا عرفت هذا فاعلم ان شرط الحسن في المجاز ان يكون معلوما عند السامعين غير ملتبس بمقاصد المتخاطبين الا ترى انه لا يلتبس المجاز في قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) ولا الحقيقة في قوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) وقوله تعالى (أولى أجنحة) وكذلك لا يخفى عليك في قوله تعالى (إذ أرايتهم حسبتهم لؤلؤاً ماثورا) وعدم التجوز في قوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وكذلك لا يخفى التجوز في قوله (فوجدنا فيها جدارا يريد ان ينقض) ولا الحقيقة في قوله (ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها) او امثال ذلك مما لا حاجة الى استقصائه من غير تعلم العلوم المعاني والبيان ولا تقليد لعلماء هذا الشأن بل لبقاء سامع هذه النصوص على الفطرة وعدم ثبوت الفهم السليم بما يعنى عن البصيرة ويورث الحيرة فهذا الأصل هو المعتمد عليه الجملى ولذلك يفرق العامة بين قولك زيد اسد وبين قولك من غير قرينة ان الأسد عدا على الناس ومتي قال القائل دخلت على الملك ورايت البلاذ في يده لم يشك من لم يسمع بعلم المعاني انه مجاز ومتي قال دخلت على الملك فرايت كتابا في يده او سيفاً او خاتماً لم يشك المبرز في علم المعاني انه عنى الحقيقة بل الباطنية الغلاة الذين يزعمون ان كل الكلام مجاز مضطرون الى سلوك الجادة التي عليها العامة والا لما وجدوا الى فهم كلام أئمتهم ودعاتهم سبيلا البتة فاذا تطلعت الى معرفة ما لخصه علماء المعاني في هذا فهو البناء على الحقيقة الا عند وضوح إحدى القرائن وهي ثلاثة لارابع لها

احداها العقلية وهي ما يعلم المتخاطبون استحالة ظاهره من غير كلفة

مثل قولهم ان البلاد في إيدى الملوك وان الكلام الحسن الترصيف
 دررا منظوم من الملاحه في سلوك ومنه تسمية الشجعان بالأسود السود
 والكرماء بغيث الوفود ومنه واسأل القرية التي كنا فيها والعيير
 التي أقبلنا فيها أي أهلها

ثانيها القرينة العرفية وهي ماجاز في العقل وامتنع في العرف مثل
 مباشرة الملوك الكبار لبعض الأعمال تقول عمر الخليفة بني دارا أي أمر
 بذلك ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون (ياها مان ابن لي صرحاً)
 أي مر من يبنى

ثالثها القرينة اللفظية كقول الشاعر :

لدى أسدشاكي السلاح مقدف * له لبد أظفاره لم تقلم

فقوله شاكي السلاح قرينة لفظية تدل على أن الممدوح رجل
 شجاع لاسبغ وذلك كثير ومنه قوله تعالى (الله نور السموات
 والأرض) أي منورهما بدليل قوله تعالى (مثل نوره) لان اضافة النور اليه
 تدل على انه رب النور وخالقه وأراد بالنور هنا نور العلم والهدى
 بدليل قوله (يهدي الله لنوره من يشاء) وقد تكون منفصلة في العموم
 والخصوص كقوله (الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) في بيان
 المراد من قوله تعالى [في يوم لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة] فهذا في
 بيان المراد من نفى الخلة وانه عن غير المتقين وكذلك قد ورد ما يبين
 ان نفى الشفاعة غير عام وذلك قوله تعالى [من ذا الذي يشفع عنده إلا
 باذنه] وقوله [ونسوق المجرمين الى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة إلا
 من اتخذ عند الرحمن عهدا] وغير ذلك وقد تكون قرينة التخصيص

في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في تخصيص الحائض
بتحريم الصلاة مع عموم الامر بها في عمومات القرآن والسنة
وتخصيص مالا تجب فيه الزكاة من الاموال مع عموم (خذ من اموالهم
صدقة) وفي الحديث (لا يأتي رجل مترف متك على اريكته يقول
الا اعرف إلا هذا القرآن فما أحله أحلته وما حرمه حرّمته ألا وانى
وتيت القرآن ومثله معه الا وان الله حرم كل ذى ناب من السباع
ومخلّب من الطير) وهذا المخصص ومبين لقوله تعالى (قل لا اجد فيما اوحى
الى محرما على طاعم يطعمه) الآية فينبغي لحامل كتاب الله تعالى ان
يستكمل العلم بمعرفة السنة فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو
وأنزّلنا إليك الذّكر المبين لما اجمل من القرآن قال تعالى (لتبين للناس
ما نزل اليهم) وقال تعالى (وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)
والحمد لله رب العالمين أكمل الحمد وافضله كما يجب ربنا ويرضى وصلى الله
على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كلما ذكره الذّاكرون وغفل عن
ذّكره الغافلون من يومنا هذا الى يوم الدين — قال في الام انتهى
زبر هذا الكتاب ضحى يوم الاحد شهر شوال سنة ١١٢٩ من هجرة
خير المرسلين بخط مالكة الفقير الى الله تعالى السائل من وقف عليه
الدعاء بحسن ختامه على بن إسماعيل خطيه لطف الله به

فهرس كتاب ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان

صحيفة

- ٢ سند الكتاب ونبذة من ترجمة مؤلفه
- ٧ خطبة الكتاب للمؤلف
- ١٠ التنبية على عظم قدر القرآن الشريف
- ١٢ مقارنة في تحقيق رجحان أسلوب القرآن
- ١٥ و١٤ إدراك المعجوات وميزات القرآن الكريم
- ١٧ كفاية القرآن في البرهنة على عقائد التوحيد
- ٢١ بيان أن القرآن أساس لاستنباط الأدلة العقلية
- ٢٤ كراهة أهل البيت رضى الله عنهم تعالى في علم الكلام
- ٢٦ المؤيد بالله بمنع الخوض في مباحث الكلام الدقيقة
- ٢٩ بيان أن النزاع في الأمور الدينية مؤدالى الفشل
- ٣٢ مقدار حرص آل البيت على حفظ الدين
- ٣٣ شعر العلامتين (ابن المفضل وابن حميدان) في ذم المعتزلة
- ٣٦ قصيدة المتوكل على الله المزلزلة لأعضاء المعتزلة
- ٣٩ قصيدة في اظهار أسرار الآله في عجائب مخلوقاته
- ٤٠ القصيدة المتخبة في ذم المعتزلة
- ٤٣ ما فعله السيد عبد القادر الجيلاني مع الامام الرازي
- ٤٤ البرهان على أن الأجمال في التوحيد هو القدر الواجب
- ٤٩ حكاية الرب الجليل لبرهان الهدهد على التوحيد
- ٥٠ عنوبة شعر سيدنا زيد بن عمر بن نفيل في التوحيد
- ٥٣ النصوص الشرعية على ترك المجادلة في الدين القيم
- ٥٤ بيان أن من بلغ الحد في اللجاج لا تنفع معه المناظرة
- ٥٨ العلامة الزمخشري يثبت التوسل بكتاب الله وسنة رسوله
- ٦١ التحذير من الغرور بالتصولحين من ذئاب الناس
- ٦٤ آداب المتخاصمين وما ينبغى للحكم بينهما

صحيفة

- ٦٩ الكلام فيما تأتي له اللام من المعاني
- ٧١ الكلام في صيغ عموم السلب وسلب العموم
- ٧٥ الكلام في ترجيح الاستدلال بالمعجز
- ٧٦ كلام أبي هاشم في الاستدلال بالأكوان
- ٧٨ بيان الحججة على الله من غير طريق الأكوان
- ٨١ ذكر الآيات الدالة على وحدة الصانع جل وعلا
- ٨٤ مقارنة أدلة القرآن بأدلة اليونان
- ٨٦ احتجاج ابن أبي الحديد بدلالة التركيب لا بالأكوان
- ٩١ إثبات الفرق بين آثار الاتفاق وآثار قدرة الخلاق
- ٩٢ ابطال مذهب الطبيعيين بالدليل الحسي
- ٩٥ استدلال البدوي بالفطرة على وجود الصانع
- ٩٦ نظر الخليل عليه السلام وكلامه مع الرب الجليل
- ٩٧ الكلام في أصعب ما يرد على المتكلمين
- ١٠١ الكلام في صفات الجوهر الاربعة
- ١٠٣ بيان أن الدليل الاجمالي في معرفة الله كاف في حق العوام
- ١٠٥ بيان أن من خير أدلة التوحيد (مرج البحر ين يلتقيان)
- ١٠٧ الفرق بين صاحب المعجزة والكاهن والساحر
- ١٠٩ نقل دليل الانفس للعلامة مختار المعزلى
- ١١٠ الكلام على دليل الآفاق
- ١١١ بيان ما أودعه الله تعالى في الانملة الواحدة من العجائب
- ١١٤ الكلام في مفاد آية (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت)
- ١١٥ احترام العرب للحرم ولاجزائه في الجاهلية
- ١٢٠ احتجاج أبي هاشم على إثبات الكون المختلف فيه
- ١٢٩ رجوع المؤلف الى تمام الكلام في القرآن الكريم

نظم ابن أبي الحديد في ذم الفلاسفة	١٣١
الشعر الصوفي في التوحيد الحق	١٣٦
كلام أمير المؤمنين سيدنا علي والامام الشافعي رضي الله عنهما	١٣٩
الكلام في ان الراسخين يملون تأويل المتشابه أم لا	١٤١
حجة القائلين بأن الراسخين يملون تأويل المتشابه	١٤٦
بيان أدلة القائلين بأن الراسخين لا يملون تأويل المتشابه	١٤٩
الكلام في الوجه الثالث وفيه النهي عن تفسير القرآن بالرأى	١٥٣
وصف سيدنا علي عليه السلام للراسخين في العلم	١٥٤
تقسيم زيد بن علي عليهما السلام للقرآن على أربعة أوجه	١٥٥
البحث الدقيق في أما وما يذكر بعدها	١٥٩
الكلام في أن أما كما تكون للتفصيل تكون للتوكيد	١٦٢
بيان القسم الثاني من المتشابه الشرعي	١٦٧
بيان المصنف في أنه لا يوجد جبري محقق	١٦٨
الرد الشافي على من استبعد إحياء الموتي	١٧١
بيان كلام العجاوات والجمادات	١٧٤
رد المؤلف على الزمخشري	١٧٩
الاستدلال بكلام النملة على عقلها وفهمها	١٨٧
فصل في الاشارة إلى ما يعرف به المجاز من الحقيقة	١٨٩
بيان قرائن المجاز الثلاثة	١٩١

بيان الخطأ المطبعي وصوابه في كتاب ترجيح أساليب القرآن

صواب	صحيفة	سطر	خطأ
الغائبين	٦	١٣	مغائبين
بها كافرين	١٥	١٥	لها كافرين
ونقصي	٨	١٦	ونقصي

صواب	صحيفة	سطر	خطأ
عمل به أجر	عمل أجر	٢	١٧
الكافي في فقه	الكافي فقه	٣	٢٧
وإن جادلوك	فان جادلوك	٥	٥٤
هذه الأسئلة	هذا السؤالات	٢	٦٤
وإلا احتاجا	وإلا احتجاجا	٦	٦٤
وتوقد ذكائه	وتوكد ذكائه	١٧	٦٨
وانتهى كلامي تفيد	وأنهى كلامي يفيد	٥	٧٣
أن تكون قديمة	أن تكون قديما	٥	٧٩
آية	آيات	٣	٨٢
أمن يهديكم	أم يهديكم	١٠	٨٢
موسى تسع آيات	موسى آيات	١٥	٨٥
قذفه	قذفة	١٤	١١١
رحمه الله	رحمة الله	٤	١١٧
لائباته	لائباتها	٨	١٢٠
يقدر على	يقدر على	٤	١٢٥
تسمية	تسميه	٤	١٤٢
أولاستلزام	اولاستلزم	١٥	١٦٠
لم يتحقق	لم يتحقق	١٥	١٦٦
وجود	وجوده	٨	١٦٧
جلال	حلال	١١	١٦٩
مقدور الله	مقدور الله	١٧	١٦٣
وتجوزيه	توتجوزيه	١٠	١٧٩
لا أعرف	الا اعرف	٥	١٩٢
هو المبين لما أجمل من القرآن قال تعالى (وأنزلنا	هو وأنزلنا اليك الذكر المبين	١٠	١٩٢
حطبة	الاخير خطبة		١٩٢

ضياء الشمس و نور القمر

استضىء بأيهما شئت أيها القارىء الكريم فقد جمعت لك بينهما

إدارة طباعة الجمعية العلمية الأزهرية المصرية بالإزهرية

الكائنة - مكتبتها بمصر بشارع رقمة القمح بالأزهر . واطلب منها ما تختار من الكتب القيمة في كل فن . حيث تجمد مع السرعة في إجابة الطلب أمانة واعتدالا وناهيك بمطبوعاتها الخاصة - لأعظم الرجال البارزين التي حازت إعجاب المطلع لحسن الاختيار ، ودقة التصحيح ، وجودة الطبع ، والوقوف عند حد العقول في تحديد الثمن ، وهذا فهرس يعمد ما تحويه مكتبتها وما طبع لديها : -

جزء بالقرش المصرى

- | | | |
|---|----|---|
| ٥ | ٤٠ | تفسير العلامة أبى السعود (طبع الجمعية) بفهرس بديع لكل الآيات والمباحث على ورق ساتونيه مجلداً بالقماش و٧٠ قرشا للنسخة من الورق الايض الناعم المصقول مجلدة بالفرننجى المذهب |
| ٢ | ٢٠ | تفسير نعمه الله النخجوانى مجلداً بالمجزع و٣٠ قرشا بالفرننجى المذهب |
| ١ | ٥ | ترجيح أساليب القرآن ، على أساليب اليونان ، لابن الوزير النينى صاحب إشار الحق على الخلق والعواصم والقواصم إمام الامام الشوكانى و٧ قروش مجلداً بالقماش المذهب |
| ١ | ٧ | تزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار مجلداً بالقماش |
| ٢ | ٢٥ | البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف مجلداً بالقماش المذهب (طبع حلب تام الشكل) |
| ٢ | ١٠ | مزين الشفا بتعريف حقوق المصطفى (طبع الاستانة) مجلداً بالقماش |

	بالقرش المصرى	جزء
شرح الشهاب الخفاجى على متن الشفاء (طبع الاستانة)	٤٠	٤
» ملا على القارى على الشفا »	٣٠	٢
» الامام النووى على صحيح الامام مسلم ورق جيد تام	١٨٠	١٨
الشكل		
الكلم الطيب من اذكار النبي ﷺ لابن تيمية	٤	١
النهاية لابن الاثير فى غريب الاثر والحديث مجلدة بالقماش	٤٠	٤
و ٣٠ قرشا بالبيروتى مضبوطة بالشكل التام		
المحامد الثمانية فى الاذكار للسادة الادريسية (طبع الاستانة)	٥	١
بغية السالكين فى التصوف والعبادات للعالم المدنى	٥	١
نيل المراد فى تشطير الهمز به والبردة وبانت سعاد	٣	١
الدرة السنية فى الرد على السادية للامام الدهلوى	٣	١
رسالة السنين فى الرد على ألوهائين لفضيلة مدير الجمعية	٣	١
و ٣٣ عالما من علماء المملكة السيامية (طبع الجمعية)		
بهجة الجمال ومحجة السكال فى المذموم والمدوح من الخصال	٣	١
للامام ابن بهران جمع فيها ما يقتبس منه كل خطيب و ينتفع به كل تقى وأديب و ٧ قروش مجلدة بالقماش المذهب		
العقائد العضدية وعليها حاشية الفيلسوف الاسلامى الكنبوى	١٥	٢
ثم المرجانى ، ثم الخلتالى طبع الاستانة مجلدة بالقماش المذهب		
العقائد النسفية بحاشية الخيالى وتعليق العصام طبع الاستانة	٥	١
شروح وحواشى المنار للامام النسفى ، والعلامة الرهاوى ،	٢٥	١
وعزى زادة حسن الطبع جدا (طبع الاستانة) مجلدة بالقماش		
المذهب أكبر مرجع فى أصول الفقه		
شرح العينى على المنار (طبع الاستانة) مجلدة بالقماش المذهب	١٠	١
منتهى السؤل فى علم الأصول للامدى (طبع الجمعية) ورق جيد	١٠	١

جزء بالقرش المصرى

١	٢	إيضاح سلم الوصول الى علم الأصول وهو خلاصة جمع الجوامع لفضيلتى مديرا لجمعية والعلامة ابن حجاب (طبع الجمعية)
٢	٣٠	مجمع الانهر شرح ملتقى الابحور طبع الاستانة بالقماش المذهب
٢	٢٠	الفتاوى الخيرية لنفع البرية طبع الاستانة بالقماش
١	٣	راقى الفلاح شرح نور الايضاح » »
١	١٠	غنية التعملى فى شرح منية المصلى » »
١	٣	متن القدورى مهمشا » »
٩	١٨٠	شرح المهذب للنوى المسمى بالمجموع مجلدا بالقماش
١	١٠	الشرح المطول للسعد على التخليص بحاشية السيد بالقماش
١	•	» المختصر » » طبع الاستانة ايضا
١	•	علم المنطق الحديث والقديم ، على النظام الصحيح والنظم القويم وهو أبداع كتاب ألف فى هذا الفن ، أدبى تطبيقى ، اجتماعى أخلاقى (على ورق ناعم أبيض مصقول) مجلدا بالدوسيه الجيد و٣ قروش على ورق (ساتونيه) تأليف فضيلة مدير الجمعية الاستاذ (عيد الوصيف محمد) قرر فى الهند والعراق
٢	٥٠١	رسالتان فى آداب البحث والمناظرة لمدرسين بالازهر (الشيخ جاد صالح ، والشيخ محيى الدين عبد الحميد)
١	١٥	منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين (طبع الاستانة) بالقماش
١	٨	مقامات بديع الزمان الهمداني مجلدة بالقماش على ورق جيد
١	٤-٥	مختارات الاديب كامل كيلانى ، أدب وتاريخ (طبع الجمعية)
١	١	ملخص قواعد الاملاء لفضيلة الشيخ إبراهيم سليم المدرس بالازهر
١	٥	الأخبار الطوال فى التاريخ العام
١	٣	شرح المعلقات السبع للزوزنى طبع مصر والاستانة
١	٧	حديث عيسى بن هشام فى الآداب والاطرف بالقماش

مصاحف القرآن الكريم بجميع أنواعها		
١٥	مصحف مجزأ في ٣٠ مجلدا بالمتناز	
٢	البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع للإمام اليميني العلامة الكبير محمد ابن الوزير إمام عصره	
٥	المواهب الرحمانية الاحمدية في التوحيد الفلسفي لرئيس معارف فلسطين السيد أحمد بسيسو مؤلف حاشية ألغاز ابن هشام	
٥	شرح مولد البرزنجي للعلامة المتقن والأديب المتقن بسيسو	
٨	ديوان ابن زيدون الأندلسي بشرح نابتي الأدب الاستاذين كامل افندي كيلاني والشيخ عبدالرحمن خليفة لم يطبع قبل الآن	
٥	ديوان خطب منبرية في سر انحطاط الأمم الاسلامية في العصر الحاضر يحوى مائتي خطبة من إنشاء أفاضل العلماء الواعظين وخير الكتاب المرشدين	
٢	٨	حماة الاسلام لمصطفى بك نجيب مجلدا بالقماش المتقن
١	٧	الاضداد في اللغة لابن الانباري « «
١	١٠	الزهر للإمام السيوطي في اللغة « «
٢	١٥	شرح ديوان الحماسة تام الضبط « «
١	٣	أطباق الذهب في حكم سيدنا على رضى الله عنه وكرم الله وجهه
١	٢	النظرات السبع لحسان فلسطين (قصيدة ممتعة وطنية حماسية أخلاقية مشروحة تامة الضبط) و ٥٥ و ١ على ورق ساتونيه
اطلبوا منا جميع المطبوعات لاسمها اليمينية فقد ميزنا بكثير منها حضرة العلامة الجليل النسابة معتمد أمير المؤمنين الامام يحيى السيد محمد بن محمد زبارة اليميني . وهذه الأثمان عدا أجرة البريد وليصحب الطلب بالقيمة لتعتمده الادارة (اطلبوا فهرس المكتبة الأكبر سنة ١٩٣١م وفقكم الله وإيانا والمسلمين)		

في علم الله تعالى الشاهد يشهد بان ثوبه لو تمزق من قدام تكان يوسف
 هو الخاتم ولو كان ثوبه ممرقا من خلف تكان المرأة هي الحائنة فالله تعالى
 احلم بهذا المعنى فلا جرم لم يشغل بدنها عن نفسه بل وثى هاربا عنها حتى صار
 شراكة الشاهد حجة له على رأيه عن المعصية ويؤيده ما في البياضات بهذه
 العبارة والبراب من قوله تعالى شان يوسف عليه السلام ولقد همت به وهم
 ما ذكر الشيخ في الدين في الباب لسابع والستين وثمانئة من الفتوحات
 ان روحه اجتمعت بروح يوسف عليه السلام في بعض سراءات الروحانية
 فقال له يا بنى الله ما معنى الاشتراك في اخبار الله تعالى عنك بقوله ولقد
 همت به وهم بها فانه تعالى يعاين فيما ذا ولا يخفى ان اللسان يد على الحدية
 المعنى فقال عليه السلام نعم ولذلك قلت للملك على لسان رسوله ان ليسأل
 النسوة مما ذكرت للمرأة الا انهارا ودتن عن نفسي وما ذكرت انى راودتها
 فانهم ما قلته لك فانه يزول ما كان يتوهمه بعض الناس لما لم يعاين الله تعالى ^{هنا}
 فقلت له يا بنى الله اللسان يذون بالاشتراك فقال نعم لكن في اللفظ دون المعنى
 فانها همت بل لتفهمنى على ما ارادت منى وهمت انا بما لا تفهمها باكد فعن
 ذلك الاشتراك في طلب التفهم منى ومنها فكانت تعال يقول وانها همت به يعنى

في عين ما هم بها وليس الا القهر فيما يريد كل واحد من صاحبه دليل ذلك قول المرأة
 الآن حصص الحى انا راودته عن نفسه فتعصم وما جاء في قصتي قط انة
 راودتها عن نفسها فارا في الله تعالى البرهان عند اودق القهر في دفعها عنه
 فيما تريد به من وكان تلك البرهان الذي ارا في الله تعالى اني اذ فعلها اولا
 بالقول اللين كما قال الله تعالى لموسى وهارون فقولا له قولنا انتمي واما
 ما نقله الطاعنون في حقه عليه السلام من الجالس بين رجلي المرأة بقصد
 لثرتي وحل ثالثة الا ان راودته البرهان عما ذكر في وجه الطعن وينسبونه
 الى السلف فلم يصح منه شئ عن احد منهم بل الاقوال المنقولة عنهم اذ اجبت
 تناقضت وتكاذبت فيما بينها ويأتي عن صدقها سباق كلام الله تعالى ايضاً
 فانه قال تصوف عنه السخ والفحشاء والسوء هو الصغيرة وهي مصروفة
 عنه عليه السلام والا قول المذكورة لو صدقت لدلت على صدور الصغيرة
 البتة والجهل بهم نقلوا في موضع آخر ان جبراً دخل حجرة النبي صلى الله عليه
 وسلم وبقي هذا كغير علمه فامتنع جبرئيل عليه السلام من الدخول عليه
 اربعين يوماً وههنا دعوا ان يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالقاشية
 ذهب اليه جبرئيل عليه السلام واعجب منه فوام ان يوسف عليه السلام

لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب روية يعقوب عليه السلام ولا بحضور جبرئيل
 حتى ركضه جبرئيلء ولوان افسق الخاق واكفرهم واوقر الزناة واشطرهم
 واحدمهم حدقة واجلحهم وجها كان مشتغلا بفاحشة فاذا دخل عليه رجل
 على الصالحين ما بقي له عرق يبيض ولا عضو يتحرك وهمنا انهم رأى
 يعقوب عليه السلام عرض على نامله فلم يلتفت اليه ثم ان جبرئيل عليه السلام
 على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع ايضاً عن ذلك القبيح بسبب حضوره
 حتى احتاج الى ان يركضه على ظهره فنسأل الله ان يصوننا عن الغي في الدين
 والخذلان في طلب اليقين ولم يتدين هذا الفرقتي في قصته فان الله تعالى
 امدحه واتنا عليه فيما انزل من الكتب الا واين شعر في القرآن الذي
 هو حجة على سائر كتبه ومصدقها ولم يقتصر الاعلى استيفاء
 قصته وضرب سورة كما ملة عليها ليجعل له لسان صدقت
 في الآخرين كما جعله جده الخليل ابراهيم واليقتدى به الصالحون
 الى آخر الدهر في العفة وطيب الاثار والتشيت في مواقع العتاد واخرى الله
 او اعني في ايرادهم ما يردى الى ان يكون انزال الله السورة التي
 هي حسن القصد في القرآن العزيز المبين ليقتدى بنبي من انبياء الله

في القعود بين شعب لزانة وفي حل تكته للوقوع عليها ووثانته بينهما ربه
 ثلاث امرأة ويصاحبه ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ
 العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه ولم يستطع
 دفع شيء عن نفسه وهو جاثم في مرضه لا يتحلى ولا يشتر ولا ينبت حتى يتداركه
 الله بحرئيل عليه السلام ولم ينظر وأهؤلاء الفسرون التي ثمان امرأة
 العزيز فأنها مع كونها كافرة وعاصبة على يوسف عصبيا شديدا
 في تلك الحالة لما شاهدت منه عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه
 في عنقوان الشباب وكمال القوة ونهاية الشهوة عظم اعتقادها في
 ظهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول أن يوسف قصدني بالسوق وما
 وجدت من نفسي ما أن توصيه بهذا الكذب على سبيل التصريح بحيل
 ألفت بالتعريض فقالت ما جزاء من أراد باهلاك سوءا ومع هذا
 ما صرحت بالزنى بل صرحت بالسوء عجباً ذات بون مرادها من السوء ^{السوء} ما علم
 على ضررها ومنعها ودفعها عن نفسه فهذا وإن لم يكن سوءاً في نفسه
 لكنه لما كان خلاف مريضها صواباً بالنسبة إليها كما جرى السوء فانظر
 إلى ذلك الأمة ما صرحت باسم يوسف في قولها ولا بألتر في اجتنابنا

من الافتراء والكذب الصريح وهو لاء المشوية يرمونه بعد الاف
 سنين بالكذب الحويج والمقصود القبيح وينقلون فيه روايات كلها
 ابا طيل وخرافات تجرأ الادان وتردها العقول والاذهان وسيل
 لمن لا كها ونفقها او سمعها وصدقها فان قيل الاقوال المذكورة
 روايات ائمة التفسير الذين اخذوا التاويل من شاهد التنزيل
 فان لم نقبلها لرؤنا تكذيب لرواة فكيف حكمتم بالخرافات قلت
 لرؤبنا هالزنا الحكم بمعصية الرسول ولا شك ان صوت الرسول
 من المعصية او من صوت طائفة من الجاهيل عن الكذب وصلى كذ
 يضمن لنا ان الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا
 صادقين ام كاذبين وايضا لا ينافي مدعا ناصدق بعض مروياتهم
 لان ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز فيقول انه عليه السلام
 كان مستغما من الزنا بحسب الدلائل الاصلية فلما انقضا
 اليها هذه الزواجر قوى الاتزجار وكمل الاحتمال واذ
 تحققت هذا فاعلم ان ما قاله المولود
 الجاهل في كتابه المنظوم في قصته عليه السلام من قوله

<p>ولی میداشت حکم عمتش پاس همی انگینت اسباب توقف یکی عقده کشادی دد به بستی بزدش پرده در کنج خانه دران پرده نشسته پرده گیت برسم بندگانش می پرستم دروش طبله پر مشک اوف سر طاعت نماده پیش اویم که تانبود لبسوی من نگاهش درین کارم که می بینی نه بیند کزین دینار نقدم نیست یک دانگ وزین نازندگان در خاطر آرم ز قیوم توانا چون نترسم وزان خوش خوابگر بیدار برست رها نازگار زمین شمع کافور</p>	<p>دش میخواست در رفتن بالاس زینجا در تقاضا گرم دیوسف نماهه بر ازاری خویش دستی فتادش خشم ناگه در میان سواش کرد کان پرده چپیت بگفت آنکس که تا من زنده هستم بجی تن از زرد چشمش گوه به ساعت فتاده پیش اویم در دن پرده کردم جای گاهش زمن آئین بیدینی نه بیند چو یوسف این سخن بشنید ز دباگ ترا آید بچشم مردگان شرم من از مینای دانا چون نترسم بگفت این در میان کار برخواست الف کرد از دوشاخ لاهم الف دور</p>
--	--

موافق لمطلوبها كما هو الظاهر من أول الآيات ولا يختلف في صدره ان آخر
 كلام المذكور يدل على خلاف ذلك لانه قال علي وفق زعم امرأة العزيز لانه قال
 ذلك القول معتقدا قصد الزمن يوسف عليه السلام ولا اصدار ما قضا
 في كلامه ولو فرضنا انه اعتقد وقوع القصد عند علي السلام بالفعل اقول ان هذا العقيدة
 مخالفة لعقائد اهل السنة والجماعة ومقلاتهم كما عرفت الا انه لما وصلت اليه مرويات
 اهل الجيرة والحشوم يتدبر في صحتها واستصحابها كما هو دأب لشعرا معتقدها فقال ما قال
 فكيف جدم اهل السنة ان تصدقته ويتسك بكلامه هذا فانهم وآجابه بعض العلماء
 عن الطعن المذكور بان هذا الهم صدر عن يوسف عليه السلام قبل النبوة وقال البعض^{الهم}
 بمعنى النظر فمعنى قوله وهم بها اي نظروا اليها وما آل الآخرون الى ان الهم بمعنى
 الهم فمعنى قوله تعاوهم بها اي غم امتناع عنها والكل لا يخلو عن الضعف
 تأمل فيه وتأملتها اي تأملت الهم قوله تعا فلما جهمهم بجها زهم جعل
 السقاية في رجل اخيه ثم اذن في ايتها العير انكم لسارقون واجتنبوا
 بانه عليه السلام وضع السقاية في رجل اخيه حقيقة ثم استخرج منه ليتعهد بالسقاية
 مع كونه بريئا منها وايضا حسبه عند نفسه مع انه عليه السلام كان عالما بان ذلك
 الحيس سبب كرمادة حزن ابيه واليخوان قول المؤذن ايتها العير انكم لسارقون

انما كان يابح عليه السلام فقيه اتهام اخيه ~~كذبا~~ ^{كذبا} وانه لم يكن يابح فكان
 الواجب عليه انكاره واظهار برأتهم عن هذه التهمة انه عليه السلام ^{ايضا} ما فعله
 مضمون وقت فراقه عن ابيه الى وقت وصاله معه ثمانون سنة او سبعين

او اربعون على اختلاف الروايات ولم يبعث في هذه المدة الطويلة احد الى
 ابيه ليعالجه بجماله وسلامته وليس هذا الا انقطاع الصلاة والمركب لهذه الامور
 مذنب والحوادث انه عليه السلام لما اظهر لآخيه انه يوسف قال له ^{جسدا} اذ لم يبد
 عنده ولا سبيل اليه الا هذه الحيلة ان ترضى بما فاقول في حقك فرضي اخرا
 بان يقال في حقك ذلك فلم يتألم قلب خيه بهذا الكلام فخرج عن كونه تهمته وايضا
 جازان يكون جسده لا خيه باجازه الله تعالى كما يدل عليه قوله كذلك كذنا
 ليوسف ما كان لياخذ اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله فلا يكون
 في حبس اخيه ولا في زيادة خزن ابيه ذنب لهذا ولا شتما له علي مصالح
 كثيرة كما لا يخفى واما قول المودن مجازان يكون يكون بغير امره وبغير
 حضوره ويكون تعديا الكلام فلما جرحهم بجوارحهم وجعل السقاية
 في رجل اخيه وامهاتهم حتى انظروا ثم اذن مودن وجازان يكون
 بامره وفي حضوره عليه السلام ويكون مراده انكم تسارقون يوسف عن

ابيه الا انه ما ظهر هذا فكان من المعاريض من التهمة والكذب واما عدم
 اطلاع ابيه في تلك المدة الطويلة فهو ايضا كان بامر الله تعالى ومن تمام تشديد
 على يعقوب عليه السلام والا في يعقوب عليه السلام كان من اكرام الانبياء وبيلا
 جبرئيل وميكائيل وغيرهما من الملائكة فلما استفسر عن حياته ومعاشه وتعيين
 ولكن لما كان منظورا لانبياء اجراء ما قدره الله تعالى عليهم من التشديدات
 والملاياكلم لستفسر يعقوب عليه السلام من الملائكة تعجب من اصحابه معه شدة
 حزنه بغرابة وغاية تمناه الى لقاءه فلذلك كان يوسف عليه السلام مشتاقا الى لقاء
 ابيه غاية الاشتياق وحزنه كحزنه كما قيل ان جبرئيل عليه السلام دخل على يوسف
 حين ما كان في السجن فقال ان نصح ابيك ذهب من الخريف عليك فوضعه يد على راسه
 وقال ليت اعلم ولدني ولم اكرهنا على ابى ولكن لما كان في علمه تعالى انجار الفرقه
 بينهما الى وقت معلوم لم يتبين له السبب لتوصل يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد
 والدليل على ما ذكرنا ان يوسف اخذ بيد يعقوب عليه السلام فطاف به في
 خزائنه فادخله في خزائن الورد والذهب وخزائن الحلي وخزائن الثياب و
 خزائن السلاح وغير ذلك فلما ادخله خزائن القراطيس وهو اول من عملها قال
 يا بني ما منعك عن هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانى من اجل قال امرته

جبرئيل قال او ما تساله قال انت اسبق اليه حتى فاسئله قال جبرئيل امرني
 بذلك لفق لك ان يأكله الذئب وراعيها اي رابع الامور قوله تعالى وقال الملك
 اتقني به استخلصه لتقتي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا ملكين امين قال ^{علي} العجلية
 خزائن الارض اني حفيظ عليهم بانه عليه السلام اظهر رغبة الامارة في اول ^{قوات} الا
 مع الملك وطلبها عن سلطان كافر وطلب الامارة ممنوع قال رسول الله ^{الله} صلى
 عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة فاذا كان طلبها مطلقا ممنوعا
 فمن السلطان الكافر بطريقي الاول وايضا انه عليه السلام قال اني حفيظ عليهم
 ترك الاستئناس وايضا فيه مدح لنفسه وهما ممنوعان قال الله تعالى ولا تتركوا
 انفسكم وقال ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك عند الا ان يشاء الله ^{سفع} فيعي
 ارتكب الله عنه من الوجوه المذكورة وادكار المنهي عنه ذنب والجواب
 ان التصرف في امور الخلق كان واجبا على يوسف عليه السلام لان كان ^{الله} رسولا حقا من
 الى الخلق ويجب على الرسول رعاية امور الامة بقدر الامكان وما كان
 يمكنه التوصل الى الرعاية الا بهذا الطريق وما لا يتوصل الى الواجب الا به
 فهو واجب فكان هذا الطريق عليه واجبا ولا نسلم انه مدح نفسه بل بين كفاية
 هو وهو فاجباتين الصفتين المتافعتين في حصول هذا الطلب ليس هذا

صلح النفس وكثرة ولا ترك الاستثناء بفعل فاعله على ايل بيان الحال ^{على}
 تقدير التسليم فلا نسلم كون المذموم ما مطلقا بل اذا كان الرجوع اصد ايه التنازل
 والتفكير والنوصل به للغير ما يحل واما على غير هذا الوجه فلا فعل السبب ^{فعله} الاستثناء
 خوف فوات المطلوب لانه لو ذكر الاستثناء لاعتقد الملك عدم قدرته على ضبط
 تلك المصلحة التي قال الملك لاجارها انك اليوم لدينا مكين امين وايضا يمكن ^{بها}
 بانها استثنى في نفسه من غير ظهور الخلق وخامسها اي حاكم من قوله تعالى وبع
 ابيي على العرش وخر واله سجد الخ بان يعقوب عليه السلام كان ابا يوسف عليه السلام
 وحي الابوي عظيم قال الله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالنسبة الى
 احسانا فقرن حق الوالدين بحق نفسه لو لم يجب عليه تعظيم الوالدين لانه دليل ^{البر}
 ان يعقوب عليه السلام كاشيخا وكان حبه واجتهاده في تلبية الطاعة التزم من ^{يوسف} حبه
 عليه السلام قالوا ^{عليه} يوسف ان يبالغ في خدمة ابيه ولانه من كبار الانبياء
 ومن العادة فكيف ^{دعي} يوسف عليه السلام وان يسجد له يعقوب عليه السلام ^{واو}
 مع ان اسجد لغير الله تعالى لا يجوز فترد ما يجب عليه والرضى بما لا يجوز له
 والجراب عن هذا الاشكال ما قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء ان معني
 قوله تعالى خروا له سجدا خروا لاجل وحده انه سجد الله تعالى وحاصل الكلام

ان ذلك السجود كان سيج الشكر فالسجود له هو الله تعالى الا انه لما كانت
 لاجل وجدان يوسف عليه السلام قال وخروا له سجدا والدليل على صحت ما قلنا
 انه لو كان السجود لله لا الله تعالى لسجدوا له قبل الرفع والصعود على العرش لان
 ذلك ادخل في التواضع واما معنى قوله رأيتهم لم يسجدوا لربهم الا
 ساجدين لى از احد عشر وكبا والشمس والقمر سجد لله لطلب مصلحة وللشعاع
 مصبو وقيل في جوابه انهم جعلوا كالقبلة وسجدوا لله شكر النعمة وجدانه
 كما جازان يقال صليت الى القبلة جازان يقال صليت للقبلة وقيل في جز
 ان السجدة كانت ليوسف عليه السلام تعظيما له وحقية له وقد كانت
 الامم السالفة تفعل ذلك كما تحي المسلمون بعضهم بعضا بالسلام قال
 قتادة في قوله وخروا له سجدا كانت تهيئة للناس يومئذ يسجد بعضهم لبعض وينا في هذا
 ما رو عن صهيديان معاذ لما قدم من اليمن سجد للنبى صلى الله عليه وسلم
 فقال يا معاذ هذا قال ان الير هو لسجد لعظماؤها وعلمائها ورويت المصادر
 تسجد لتبسيها وبطارقها قلت ما هذا قالوا تحية الانبياء فقال عليه السلام
 كذبوا على انبياءهم وقيل في جوابه انه قد يسمى التواضع بالسجود قال الشافعي
 نرى الامم فيها يسجد لله فخره فالمراد انهم تواضعوا ليوسف عليه السلام كما ان الخوفا

حاله فهما وقع عليه من الاهانات فهو قليل بالقياس الى جريمته التي لا تُغتفر عند اصحاب الشعور اللطيف، وما احراه أن يُنقذ من المجتمع المدني ويكفّن باكفان العار ويوسم بيسم الشنار حتى تتلصّب البشرية من افذاره وتتخصّص من لآمته وخساسته . وانما يُقدّم على هذا المنكر من خبث اصله وهانت عليه نفسه ولوّمت طباعه وفسدت سريوته . ومن جمع كل هذه الشوائب فلأن يستبطن صدوع الارض اولى به من ان يكون مستمتعاً للوّم والدناوة وغرضاً للمطاعن والمثالب .

على انه قد يتفق ان يعرى المرء من عدة خصال محمودّة ، كأن يكون هيأباً في مواقف الخطابة أو متردداً في مواضع الحزم والاقدام او رعيديداً في ساحات النزال ، ومع ذلك يبقى له منزلة عند قومه وحرمة عند معاصريه ، لأن جميع هذه العيوب لا تخفف سائر مناقبه ولا تستأصل كرامته من النفوس . واما اذا كان كغفورا فاما يسقط مقامه وتضعف الثقة به ، ويمعدّم الثراء والظهور ويجرم الاعوان والاخوان، ويعيش وحيدا شريداً ممتهداً مخذولاً، يستصرخ وما من مجير ويستترشد وما من دليل . والعاياذ بالله من شائبة هذه نتائجها ومنقصة يهولك سوء عواقبها

وبديهي أن الشكر يجب ان يكون على قدر النعمة بل على حسب نية المفضّل وفرط رغبته في اسداء المعروف ، فاذا رجح الفضل على الشكر وقع التفريط في المكافأة واستحقّ المفرط بعض اللوم .

وهنا مجال لان نُحرّز من المداهنة والمدالسة ، فان كثيرين اذا أسبغت عليهم نعمةً ضافية يشكرونك بلسانهم ، وقلوبهم خلو من شواعر العرفان ، وربما كان شكرهم مشوباً بالازدراء الباطني ، وهنا منتهى اللامة . خير للمرء أن يطوي الاحسان ويحمد حسن الصنيع من ان يلبس ثوب الرثاء . ويتاجر بالمواربة والمخاطلة والتلمّص .

ومن الذنوب التي لا تُغتفر أن يسدل المرء ذيل القموط على سوابق الحسنات وسراف المنج، اذا تحلّف المحسن مرّةً عن إجابة سؤله وتحقيق امله، لعذر صوابي او داعٍ مقبول . فان ستر النعم والانتقال على المنعم في هذه الحال لضرب من القحة واللامّة ، واكثر ما يقع ذلك ممن لهم دالة عليك وحظوة عندك ، فانهم يطعمون في

كرمك وحلمك ويجسبونك كأنك موقوفٌ على خدمتهم . ولذلك يجمل باصحاب الندى والاريجية ان يزرعوا عوارفهم في ارض منباتٍ مخصاب تنمو فيها عواطف الشكر والعرفان فلا يضيع برهم ولا يُبلى في زوايا النسيان .

ومن المقرّر ان الفضل الأديبي هو اسمى من المادي لانه يتناول النفس والقلب والاخلاق ، فالذي يُثير ذهنك ويوسع نطاق افكارك ويهذب طباعك ويفرس في صدرك اكرم المزايا واشرف الخلال هو افضل بمن يجود عليك بالمال ، لان التهذيب يُعينك على العروج في مصاد المدينة ويُدنيك من غايات الفلاح ، ويُجهد لك عقبات العلاء . واما المال فاذا كنتَ جاهلاً لا يُجديك نفعاً وربما اوقعك في مهاوي الشقاء وعروضك لسهام البلاء . ولذلك يتعين عليك ان ترمى في فؤادك اجمل اثر للمحسنين اليك مُلهجاً بحامدهم في غدواتك وروحاتك ومردداً آيات فضلهم في كل متددى مع تصميمك على مكافأتهم لدى سرح الفرض . واننا نسوق النصح ولا سيما الى طلاب العلم ان يذكروا جميل رؤسائهم الافاضل واساتذتهم الامثال الذين هم محبّة هدام وأسّ نجاحهم ونبراس بصائرهم ودعامة سعدهم ، ولولا هم لتكاثفت غمام الجهل في اذهانهم وتراكت جرائم الفساد في الباهم واستوطنت الترهات عقولهم حتى اصبحوا من آفات المجتمع وعاهات الوطن .

وكذلك نحضّ الأبناء على ان ينطلقوا في ميدان الثناء على مكارم ابائهم الذين مهّدوا لهم عقبات الفلاح بما بذلوه في جنب تربيتههم من الهمة والغيرة، وما تحمّلوه من النفقات الباهظة على تعليمهم . وانما يقومون اليوم بهذا الواجب المقدس اذا شتموا عن ساعد الجد التقاطاً لدرر المعارف وفرائد الثمائل ، وبرهنوا بحسن مساعيهم انهم من اطوع البتّين واخضعهم لاوامر والديهم واحرصهم على مرضاتهم واغيّرهم على سعادتهم وراحتهم ، فان الشكر اصدقة ما كان مويّداً بالعمل ومقروناً بحسن الجزاء ، ولا خير في العرفان اذا كان مصدره اللسان لا الجنان ، وما اقبح الشكران اذا زال يزوال النعم وانقطع بانقطاع الاحسان .

الصحة

هي من أجل النعم التي من بها الله على الانسان ، اذ عليها مدار الراحة والهناء ، وبدونها لا يطيب عيش ولا يصفو بال . والمرء لا يعرف قيمتها الا متى فقدها ، فتنتابه العلل وتُذيقه الأمرين . فكم من ليلة يطويها الليل بدون ان تذوق عيناه طعم الرقاد ، لما يقاسيه من الآلام المبرحة التي يضيق معها الصدر وينغد الصبر . وكم من نهار يكون في عينيه اشد سواداً من خيمة الظلام ، لما يشب بين أضلعه من نيران الاجوع المذبية التي تُفقدته الرشد والصواب .

ولو دخلت الى فؤاد احد الموسرين بعد اعتلاله ، لرأيتَه يذوب حسرةً علي فقدانه صحته الغالية التي اصبحت في نظره اثن من الذهب الوهاج المُودع في خزائنه ، بحيث كان يؤثر ان يحسر ماله على ان يحسر صحته ، اذ عرف بالاختبار ان المال لا يُجديه أقل نفع بعد تضعع ركن عافيته . ولا تعجب اذا غبَّ المأثورون اهل البؤس الاصحاء الاجسام السليمة البنية ، ولو كان في طاقتهم ان يشترى صحتهم الناضرة بكل ما لديهم من النقود لعدوها صفقة رابحة . كيف لا وهم كلما ألقوا نظرة على ما لديهم من الاموال يتلهفون أي تلهف ، اذ لم يبق في مكتبتهم ان يصرفوها كما كانوا يصرفونها بالامس في سبيل ملذتهم وترفهم ، بل اضطرتهم الحال الى ان يتفقوها في التطب والتعالج وتناول الأدوية التي تنفر من مرارتها نفوسهم المعتلة وقلوبهم السقيمة . فالى جميع هذه المغبات نظر العقلاء بأذهانهم التفأذة فارتفعت منزلة الصحة في عيونهم واشتد حرصهم عليها . .

ومما يجب التنبه له أن العلل متى نهكت الاجسام ، وأوهنت القوى ، وأخرجت الصدور ، تسوء اخلاق الليل ، فيتجنب الناس معاشرته حتى اهله وخلأنه ، مما يزيد بهلاء على بلاء . وغماً على غم ، فيقضي أوقاته معتزلاً ، وما اصعب العزلة مع تباير العلة . واذا اراد ان يدفع وحشته بطلعة ما يؤنسُه ، فهيات ان يفهم ما يتصفحه ، لان العقل يعتل باعتلال الجسم ، ولذلك جاء في المثل المأثور : ان العقل السليم في الجسم السليم

واننا لنأسف أشدَّ الأسف على ان السواد الاعظم من اهل وطننا لا يوعى القواعد الصحيّة ، بل يُسرف عافيته كما يسرف المتلاف ماله بدون شفقة كأنّما لا قيمة لها . ومن الناس من يُتفقون هذا الكثر الثمين في ميدان أهوائهم ، ولا يصحّون من سكرتهم إلا بعد ان تكون قد حملت عليهم الاوصاب والأدواء بجيوشها الجّارة ، فتدخل اجسامهم الواهنة بدون ادنى معارضة وتفتك بها فتكاً ذريعاً .

ومنهم من ينكبُّ على حشد الاموال انكباباً مُجهداً ، فيجمع منها نصيباً كبيراً لا يلبث أن يُتفقه على مداواة العلل التي بطشت بجسمه ، بعد تجشّمه الأنصاب والمشقّات في سبيل الأصفر الرنّان ، حتى يصبح صفر الدين . وهبّ أنه لم يصرف كل ما جمعه على معالجة أدوائه ، فان التقود التي تبقّى في صندوقه لا تريده الا تفضّماً ، اذ يرى نفسه عاجزاً عن التمتّع بشمرة تعب الطويل . وأيّة غصّة أشدّ من هذه الغصّة بل أية نغصة أوجع من هذه النغصة .

ومنهم من يفقد صحّته في معاناة الاعمال العقلية على غير تبصّر بالعواقب ، فلا يُولي جسمه قسطة من الدّعة والراحة حتى ينزل به الداء فيقعده عن كل عمل ، ويجرّمه كلّ لذّة ، فيدفن معارفه في صدره ويقضي بقية ايامه بالعذاب والألم . ولو أنّ هذه الفئة راعت النظام المنطبق على الحكمة في ما زاوته من الاعمال الفكرية المذبية للدماغ لتسنّى لها ان تُفيد بلادها بمعارفها الغزيرة ومداركها الواسعة ، وما ذوّت أغصانها الناضرة في ربيع الحياة وميعة الشباب .

على أننا نرى عدداً كبيراً من المجاهدين في سبيل الله او خدمة بلادهم يُضخّون بصحتهم وراء ما يتوخّونه من نديل الغايات وشريف المقاصد . ومنهم من يجود بروحه دفاعاً عن شرف دينه او ذوداً عن حوزة وطنه ورفعاً لشأنه . فهؤلاء هم الجديرون بكل إطرأ وإعجاب ، بل الحرثيون بان يُجندّ ذكرهم على صفحات التاريخ حتى يقتص آثارهم ويقتفي معالمهم من يعقبهم من الاخلاف . وأية ضعيّة اعظم من ان يبذل المرء انفس ما عنده في ساحة الجهاد او في جنب مصلحة الجمهور .

ونحن نقف عند هذا الحد من البيان في هذا الموضوع الخطير لضيق المقام على امل ان نعود اليه ونوفيه حقه من الإسهاب في المقبل ، اذ لا يغرب عن بصيرة احد

ان الوطن لا يرقى الى رابية العز والمجد الا على سواعد الشبان الاقوياء البنية الناضري
العافية الصافي الذهن الناهضي الهمة . وبهذا التقدر غني للمستبصرين الالباء .



المدرسة

منبت الرجال العظام

المدرسة هي مقياس كل أمة من الحضارة والعمران ، وعنوانها من المجد والعز
والسودد والعرنان . فاذا بلغت حدّها من الترقى والكمال ، وأتحفت العالم بعدد كبير
من نوابغ الرجال ، أدركت الأمة المدى البعيد من الشهرة ، واستقرت قدمها على
قمة المجد والفلاح ، وعزّت جانبها في كل صقع ، ونظرت اليها الابصار بعين الاعجاب
والاحترام . ولنا بما ورد على صفحات التواريخ من تراجم العظماء الاعلام أعدل شاهد
على ما نحن بصدده . فان الغزاة الابطال الذين دوّخوا الارض وسادوا في الدنيا
وصالوا ، انما جنوا ثمرات النصر بفضل الدربة التي بلغوها ، والبسالة التي نشأوا عليها
في المعاهد العلمية . وكذا قلّ عن الجنود الانجاد البواسل ، فان الوطنية التي غرسها
اساتذتهم الأباة في صدورهم هي التي حبّبت اليهم تجرّع كأس المنيّة في ميادين
القتال ، ذوداً عن شرف بلادهم ودفاعاً عن ذمارها .

وبديهي أنّ لكل أمة مزيّة تمتاز بها عن سواها ، فان الفرنسيين مثلاً يشهد
لهم تاريخهم المجيد البطولة ومضاء العزيمة والجرأة والاستماتة في سبيل الشرف ، حتى
لقد يستصغرون المنون في هذه السبيل ، ولا يعابون بالاخطار والاهوال ، وذلك بفضل
الحميّة التي تجري في عروقهم والحماسة التي تتّرج بدماثهم ، مما توارثوه نسلاً فنسلاً حتى
اصبح من مزاياهم المميّزة . ولا مرية ان الذي انشأ فيهم هذه المناقب الفريدة انما
هو المدرسة التي من ثديها يرتضعون لبنان الإباء ، ومن معينها يستقون مكارم

الاخلاق . واذا رأينا في أمة اعوجاجاً في طباعها وخللاً في عاداتها وفساداً في تربيتهاء فانما منشأ ذلك المدرسة التي يتخرج فيها بنوها. ولذلك تبذل الدول الرشيدة قصارى مجهودها في اصلاح مدارسها اذا رأت فيها شوائب تشينها ومفاسد تُشَوِّه حِيَّاهَا وتكدر صفاتها ، فلا يمر زمن حتى تسد ثلمتها وتندارك علَّتْها وتصلح ما اختل من نظامها . ومن العلوم ان الامم الحية يكون مبلغها من التقدم بقدر صفاء مآهلها العلمية التي هي مرآة مدنيتهـا ومظهر احوالها . .

وانه ليروقنا ان نرى المعارف قد اخذت تتألق بدورها في سماء بلادنا من نصف قرن ونيف، فرأينا فيها المنشئين البلقاء ومصاقع الخطباء والعلماء المحققين والشعراء الفلقين وارباب الصحافة النابغين والمؤلفين المدققين الذين خلّفوا في خزائن العلم والآداب آثاراً رائعة تحدّث عن مقدرتهم العلمية عصرًا بعد عصر ، غير اننا مع ما عرفنا به من الذكاء الفطري لم نقو حتى اليوم على مجازاة الامم النجيبة التي حلّت في سماء الاختراعات ، فأحدثت فيها كل غريبة مدهشة بل كل معجزة تقف الاذهان عندها حيارى . ولقد رأينا الحرب العنوشم التي طويينا صفحاتها السوداء بأيدي مرتجفة بعض تلك الاكتشافات الغريبة التي يكاد لا يسلم بها العقل لولا ثقته بمقدرة العربي العجيبة الذي خرق ببصيرته الثفاذة حجب الحقائق ، وشق ستور الاسرار وحل رموز الطبيعة ، وكاد يأتيك بالآيات البينات فضلاً عما ابدعه من الاستباطات العصرية التي لم يكن يحلم بها العقل البشري قبل القرن العشرين الذهبي . وان المجال لأضيق من ان يستوعب تلك الغرائب التي انبثت فكرته المخصاب وهمته الناهضة ونفسه البعيدة المرامي . على انه اذا فالتنا معرفة جميعها فلم تقننا معرفة بعضها ، وهو كاف لان يجلب بصائرنا قبل ابصارنا حتى لا نتمالك عن ان ننظر الى اولئك المخترعين وهم من أبناء جنسنا ، كأنهم قد جُلبوا من غير طبيعتنا ، او أُوتوا من المواهب الفائقة ما لم نُوتّه نحن . ولو سبرنا غور عقولهم لرأينا في ربوعنا الشرقية من امثالها بل أثقب منها ، كيف لا والغربيون أنفسهم يشهدون لنا بالذكاء المتوقد ، وانما نحن تقوتنا الوسائط المتوفرة لديهم ، وأحسب العلم الذي بلغ عندهم ابعده مبلغ من الكمال ، في حين انه لا يزال عندنا في مهده . فاذا ربي الشرقي تحت سماء المغرب ، وارتضع افاقين

المعارف في كلياتها العالية بزّ الغربي ورجح عليه ، وكان بين اقارانه من المبرزين السباقين الذين لا يُشقُّ لهم غبار ، كما يؤيد ذلك كل من أُتيح لهم الحظ لأن يتلقوا العلوم والفنون في مدارس اوربا الراقية وهم اكثر من ان يُحصوا .

ومن الاسباب التي قضت علينا بالتقهقر والتخلف في ميدان العمران والمدنية الصحيحة ، وكان حائلاً بيننا وبين التبخر في مذاهب العلاء والعز والترقي الحقيقي ، انما هو الخلل البين الواقع في تربيتنا الاجتماعية الناشئ عن الخلل الذي زاه في تربيتنا المدرسية ، وهو الذي اورثنا تلك الادواء العضالة المتفجئة في اخلاقنا وعاداتنا واذواقنا وميولنا بحيث اصبحنا ، ونحن من وطن واحد ، شعباً شتى وأحزاباً متفرقة ، لا نُفكر إلا في خراب البلاد وتقويض دعائم الالفة والوثام فيها ، وإضرار نيران التحاسد والتباغض والتنافر بين اهليها ، حتى أمسينا وكأننا خارجون من برج بابل من عهد قريب ، لا تفهم الفنة من لغة الأخرى ، بل تأتي ان يقع فيما بينها التعارف الموجب للتآلف . ولا جرم ان الكوارث الدهماء التي تُعدُّ من الفجائع الموبقات ، انما حلت بنا بسبب التعصب الذمير الذي درج وترعرع في أحضان المذاهب الدينية ، بحيث ينظر ابناء كل مذهب الى أتباع المذهب الآخر كما ينظر العدو الى عدوه . وكيف تتآخي القلوب المتنافرة ، او تتعاقد الارواح المتصارمة ، أم كيف تتصافح تصافح الولاء والاخاء تلك الايدي التي تحرّكها عوامل الكره والحسد والعداء ، أم كيف تسعى الى المصلحة الوطنية العمومية تلك الأقدام التي تغلي في صدور اصحابها مراحل الغفرة والبغض من عهد عهيد .

ان الاصلاح في بلادنا هو في الوقت الحاضر من اسق الامور وأوعر العقبات ، ولا قيل به الا للمدارس التي يديرها رجال حكماء عقلاء ، قد استوفوا نصيبهم من الاختبار وربوا على بادئ الديمقراطية السليمة ، التي تعلّمهم كيف يبشون روح الاخاء بين طلائهم المختلفي المذاهب حتى ينشأوا ، وهم اخوان في الوطنية ، لا يشعرون بذهبهم الديني إلا في معابدهم وجوامعهم ، وليس لهم رابطة الا الوطن وحده . ومن العبث ان نرمي بأبصارنا الى هذه الغاية التي هي غاية الغايات ، بدون ان ننهج هذا المنهاج القويم ، نابذين من قلوبنا كل ما يدعو الى التفور والانقسام . ونحن الى الاتحاد

أحوجُ منا الى العلم ، لانه أية فائدة لنا من المعارف اذا وهت بيننا اسباب الولاة ، وانطوت احناء صدورنا على الشحناء والبغضاء ، أفلا يكون الجهل مع التحزب الديني الاعمى أولى من العلم وأخف ضرراً ، لأن المتحزب يتخذ من علمه سلاحاً يحارب به مَنْ يخالفه في المذهب الى ان يستحکم النزاع بينهما ويتطاير الشرر الى الرعاع ، وهنا الطامة الكبرى .

فاتقوا الله يا ارباب المعاهد في الناشئة الموكولة رعايتها اليكم ، واعلموا ان مهمتكم خطيرة يناقشكم الوطن عليها الحساب . فلقد دخلت البلاد اليوم في عهد جديد ، ومن الضرورة ان تُرونا ثابتة جديدة متخلقة بغير اخلاقنا ومترعة على غير عاداتنا وِخلالنا ، وإلاً فأفقلوا مدارسكم ، فلأن تُفقلوا خير من ان تُعرضوا للملامة العتلاء في أمتكم ، فينظروا اليكم نظرهـم الى الخونة المارقين . .

هذه هي نصيحتنا نسوقها الى رؤساء المدارس واساتذتها ومديريها ، لافتين اليها انظار خطباتنا وعلمانا وأرباب الصحافة فينا الذين هم قادة الرأي العام ، يتصرفون في أعنة الخواطر على ما يشاؤون . فاذا كانت المعاهد لا تربينا في صدر نهضتنا المخترعين والمكتشفين والمستنيطين ، فلا أقلّ من ان تُوحد قلوبنا وتؤلف عواطفنا ، وتجعل منا على اختلاف مذاهبنا وطبقاتنا وترعاتنا ، كتلة واحدة تعمل لخير الوطن وتعزيزه وانهاضه من دركات الجمول الى رابية الشهرة والنباهة . وما من شيء على ذوي المهـم السماء وارباب النخوة القومية بعزير .

المهنة

لا يكفي الوالد ان يعول بنيه على وجه لائق بتمامه موافق لحاله ، بل عليه ان يعلمهم من المهن ما يُعينهم على الارتاق والتعيش بطرق شريفة ويُقويهم في المستقبل على القيام ببنفقات عيالهم مما يستدرونه من المهنة التي اقتبسوها . ومهما بلغ المرء من بسطة اليد والحفص والسعة فلا مندوحة له عن ان يحبب الى بنيه العمل ويعودهم السعي وراء الرزق ، ولا عذر له في ما لو اغضى عن تعليمهم احدى الحرف التي تفتح في وجوههم ابواب الاكتساب اعتماداً على ما لديه من الاموال ، فان الله قد حتم على البشر جميعاً بالسعي وراء معيشتهم اذ قال لابينا الاول : بعرق جبينك تأكل خبزك .

وجميع الحكماء في الدنيا لا يدخرون وسعاً في حث بنينهم على النشاط والدأب في العمل علماً منهم بما ينجم عن ذلك من الفوائد الجليلة لهم ولاولادهم ، فضلاً عن انهم بهذه الطريقة يحثون لامر بنينهم بحيث اذا دارت عليهم الدوائر فأفقدتهم اموالهم لم تعلق في وجههم ابواب الارتاق بل ربما تمكّنوا بغض الحرف التي تعلموها من ان يستردوا الاموال التي خسروها ويسترجعوا المقام الذي كانوا عليه في المجتمع المدني . ولذلك زى على القوم بل الملوك والامراء وارباب الثروة العريضة يبذلون قصارى المجهود في ان يعلموا اولادهم الفنون الجميلة والمهن العالية حتى اذا قلب لهم الدهر ظهر المِجن لم يعدموا وسيلة يتسبون بها الى الارتاق خوفاً من ان يصبحوا على عاتق البشرية حملاً فادحاً او ينظر اليهم الشامتون بعين الازدراء . ولأن يكنن المرء ويدفن في ظلمات الرموس خيراً له من ان يحتاج الى غيره ولا سيما في الشؤون الماشية . وانه لياخذنا العجب العجيب من ان اغلب المثريين في بلادنا يتقاعدون عن تعليم بنينهم احدى الحرف حذراً من ان يُنسبوا الى البخل والطمع ، أو خوفاً من ان يقال عنهم انهم يزاحمون الطبقة العاملة في ميدان الكد والكسب ، وقد فات هذه النعمة النبوية ان العار كل العار في اهمال شأن اولادهم الى حد أن يشبوا اغراراً ولا شيء يشغلهم عن ملاحيتهم واهواتهم ، فيصرفون ايام الشبية في ما يُنزّل عليهم المعن

والشدائد ويكسبهم الحزى والوبال، وربما انفقوا ثروة آبائهم في سوق التعطل والبطالة، فيعيشون فقراء تطحنهم انياب الفاقة وتنهشهم مخالب العوز، ولا مورد لهم يرتقون منه ولا مهنة تدر عليهم، فيتضورون جوعاً، ثم يتقلبون على والديهم ويسدّون اليهم سهام التعبد والتبكيك لاغفالم تربيتهم في عهد حدائهم وصرف النظر عن امر مستقبلهم.

فأضرب هؤلاء الاغنياء لو علموا اولادهم في صغرهم مهنة ربما اضطرّوا الى الاستعانة بها في الايام المقبلة، اما يتحوطون بذلك لامرهم وبينون سداً منيعاً يحول بينهم وبين العدم والعسر. وهب انهم لا يقترون اليها فاي اذى يلحقهم من تعلمها. او يخفى عليهم ان الدهر لا يسلم احد من كوارثه معها علا مقامه وغزرت ثروته وتوطد عزه. فكف من بيت عريق في الحسب بعيد المدى في الغنى قد ذك في هذه البلاد من أسه لتخاضي اربابه عن تعلم الحرف، وكف من بيت كان الفقر مخيباً عليه والشقاء مكتوباً على جدرانته والحمول مشدود الاطناب في زواياه، قد احرز اهله بفضل المهن التي زاوولها ثروة لا تُحْد، وجاهاً بعيد المتناول ومقاماً باذخاً لا يُطاوَل. واذا كان المتمولون واصحاب اليسر لا يُعذرون في عدم تعليم بنينهم الحرف فما قولك في اهل الفاقة والعوز، وهم من احرج الناس اليها واشعرهم بفوائدها. فكف من الآباء السيئ الحال يتركون اولادهم في الازقة كالهمل التي لا راعي لها، فيتشرّبون من الرعاع سم الفساد ويرويون على المخازي ويتعرعون على الاخلاق اللئيمة والحلال الدنيئة. فاذا احوجهم الامر الى التعيش ضاقت في وجوههم الحيل فيلتجئون الى النهب والسلب او غيرهما من ضروب المنكرات، تؤسلاً الى المعيشة حتى تتساقط اللعنات عليهم وعلى آبائهم من كل فم. فاي اصلح لك ايها الوالد اتعلم ولدك حرفة تغنيه عن التسول وتكفي الناس مؤونة شره، ام اهمال امره حتى يعيش لصاً لثيماً شريراً ويموت ذليلاً خسيساً. روي ان حكياً مرّ بسلام بطل متعطل فقال له: يا هذا دع البطالة فان الله يحب من يعمل، وماتعطل احد قط الا ذاق من تعطله شر المصائب.

فاعتبروا ايها الاباء واخشوا سوء العواقب وارحموا صغاركم ومهدوا لهم اسباب الراحة والسعد في هذه الدنيا وذلك بتعليمهم مهنة توفر لهم اسباب المعيشة وتقيهم

غدرات الزمان وتقلبات الايام . ولأن تورثوهم مهنة ملائمة لحالتهم اصلح لكم ولم من ان تحلّفوا لهم مالاً لا بد من ان يبذروه في المحظورات آجلاً او عاجلاً اذا لم يكن عندهم مهنة تلهيهم عن المذاهب الموبقة والناسي المخجلة . فاذا انتصحتم جنيتم ثمرة الانتصاح والا حصدتم شوك الندم وذقم الحنظل . ولا اخالكم الا منتصحين رحمة لبلاد انتهى بها التواني الى شفير الذل والفقر، وانقلب بها الكسل اي منقلب حتى باتت تنظر الى هاوية التمس والاستعباد بطرف هياب وقلب خفاق .

وهنا لا بد لنا من كلمة نوجهها لكل والد لا تساعده حاله على تعليم بنيه العلوم العالية: ايها الوالد متى انهي ولدك دروسه في المدارس الابتدائية ولم يكن في وسعك ان تدخله المدارس الكلاسي لضييق ذات يدك، فابذل الجهد ان تعلمه مهنة يرتق منها في المستقبل وتوفقه لان يكسب لأسرته المقبلة ، وإلا تُذنب اليه ذنباً تشعر بظاعته عندما يصبح عيلاً عليك وعلى بلاده . وَايَاكَ ان تضعه في محل لا يتعلم فيه شيئاً يصلح حاله ويضمن له النجاح في المستقبل، كما يفعل بعض الآباء الاغرار الذين يُقيدون بنينهم بالخدمة في بعض البيوت او الفنادق طمعاً في اجرة زهيدة يُصيبنها في مقابلة عملهم ، فيقضون هنالك بضع سنوات حتى اذا بلغوا السنة الثامنة عشرة تعذر عليهم ان يحترفوا حرفة تفتح امامهم مذاهب الارتاق الفسيحة ، فيقضون عمرهم في الاستخدام بدون ثمرة ويعيشون في الضنك والتقتير . وهل من غباوة اعظم من غباوة الاب الذي يضيع اوقات ولده في مثل هذه الخدم الوضيعة . أو يليق به ان يصرف ولده ايام حداثته في ذلك المحل الذي تقيد بخدمته حيث يقضي نهاره بين كئسه ورفع النبار عن سلعه ، وبين استيفاء ديونه وقضاء اغراض لا فائدة له منها . . تلك حال اكثر الاولاد الفقراء في هذه البلاد فانهم ينخدعون بالبلغ الزهيد الذين يوَدّى لهم ولا ينتبهون لخطاهم الا حين لا ينفعهم الندم .

فاذا اردتم ايها الآباء ان تؤسسوا لبنيتكم مستقبلاً سعيداً فعلموهم من صغرهم حرفة تُغنيهم عن الالتجاء الى غيرهم ، وثقويهم على عيالة اسرة كبيرة يُربونها على طريقة تنفع وطنهم . ورب حُرقة اورثت صاحبها الشرف ودفعت عنه آفات العسر وأقصته عن مهاوي التلف .

اقسام المهنة والحكمة في اختيارها

المهنة قسمان يدوية وعقلية ، فاليدوية ما استلزمت مزاولتها عمل اليدين ، بل ما اشترك فيها العقل والجسم معاً من مثل فن التصوير والموسيقى والنحت والجراحة والصياغة والحياكة وغير ذلك من الحرف . واما العقلية فهي التي ينفرد بتعاطيها العقل كفن المحاماة والهندسة وعلم الفلك والفلسفة والرياضيات وما شاكل ذلك . وكلا القسمين لم يبلغ في بلادنا مبلغ الاتقان ، ولذلك نرى النجاح بطيئاً فيها والثروة زهيدة وارباب الاعمال يشككون من كساد تجارتهم وعدم الاقبال على مصنوعاتهم ومنسوجاتهم ، في حين ان الامم الراقية هي القابضة على اعنة التجارة وقد ذهبت في عالم الاختراع كل مذهب ، ونحن مقيّدون بالأساليب القديمة ، ينسج الولد في صناعته على منوال ابيه ولا يتقدمه خطوة في ميدان التفنن والتجود . وكان علينا بعد ان انتشرت المعارف في هذه الاصقاع ان نجاري الشعوب الناهضة في مجال التأنق والابداع ، ونحلّ ايدينا من أغلال المحاكاة المُقعدة عن التقدم ، ولكن تمسكنا بالقديم هو الذي اوقفنا عند هذا الحد حتى بننا نظراً الى الغربي بعين الدهشة وهو لا يفوقنا ذكاه ولا جلدًا . واذا تقصينا في البحث عن جمودنا تبين لنا ان هنالك ما عدا التشبه الأعمى اسباباً جمة اخصها عدم اتقان مهنتنا ، ودفع اولادنا الى تعلم المهن التي ليس لهم ميل اليها ، فيقبلون على تعلمها بكره ، وهم خالون من الاستعداد الفطري حتى لقد يقضون السنين الطوال في مزاولتها بدون ان يجروا شوطاً في ميدان النجاح . فاذا سألت احد الآباء ماذا يريد ان يزاوله بشوه الصغار عند بلوغهم سن الرشد اخذ يعين لكل مهنة على ميله هو ، ولا يلبث ان يُبرز عزمه الى حيز الفعل ، فيعلم هذا الطب وهو ميال للتصوير ، وذاك فن المحاماة مع رغبته في فن الموسيقى . واذا اتفق ان ساق احد اليه النسيحة ليرك كلاً من بنيه وسأنه ، فيختار المهنة التي له ككفها قابل نصحه بالازدراء .

على ان بعض الابناء الموسرين ينتهي بهم الحيق الى ان يحسبوا من الغضاضة

والمار ان يتعلموا احدى المهن تحوطاً لتتلبات الدهر ، فيصرفون أيام الصبا والشباب في اللهو معتمدين على ثروة آبائهم، حتى اذا انقلب عليهم الزمان ونسف بناء غناهم عضوا اصابعهم ندماً . ومن السيدات المثریات من يحملن الكبر على تنفيذ بناتهن من تعلم الحياطة وفن الطبخ والادارة المنزلية وعلم الاقتصاد اتكالاً على ان البائنة (الدوطة) التي يرثها عن والديهن تُغنيهن عن هذه الفنون التي لا غنى للمرأة عنها مهما اتسعت ثروتها ، فيترين لنفوسهن أنهم بالمال يُمكنهن ان يستخدمن من يشأن من الخدم والحاديات لقضاء حاجاتهن البيتية ، حتى اذا تزوجن وكن جاهلات للامور المنزلية، فيصرفن حياتهن بين آلات الطرب وفي اندية الانس متقاعداتٍ عن تدبير منازلهن ملقين تبعه ذلك على الخدم والحشم ، والله اعلم بما يكون وراء ذلك من سوء العواقب ولا سيما اذا غادرت السيدة منزلها وانصبت على موائد القمار تاركة الدار تنعى من بناها . . .

وكننا ننتنى لو انحصرت الكبرياء في نفوس هذه الطبقة الغنية ولكننا نرى كثيرين من الاباء الفقراء تترفع نفوسهم عن تعاليم بنينهم المهن اليدوية ، كأن هذه المهن تنقض من قدر اصحابها او تكسبهم عاراً ، فتدى الزرع يستنكف من ان يكون ولده مثله زرعاً ، فيعمل الليل والنهار في كسب الاموال حتى اذا تمها له مبلغ يستعين به على تعليم ولده في احدى المدارس العالية ووضعه فيها سنة او سنوات ، ثم يشعر من نفسه بالعجز عن القيام بالنفقات اللازمة لولده حتى يُتجزدروسه، فيُخرجه منها وهو لم يتلق من اللغات والعلوم ما يساعده على تحصيل معاشه ، فيضطر ان يُعيده الى الحقل، وهناك لا تسلم عما يقع بينهما من الخلاف اذ يتصور الولد انه اصبح ارقى معرفة من ابيه ، وان العلم الذي اذخره في صدره يُجله عن ان يُمسك بيده المولود ، فيقضي أيامه والحيزرانة تتهتر في يده ، ويمشي على الارض وهي تنث من وطأة كبريائه . فما ضر هذا الاب لو انفق الاموال التي اقتصدها على تعليم بنيه في احدى المدارس الزراعية حتى اذا اتقن علم الزراعة عاد اليه حاملاً من نتائج معارفه ما يُسمى زرعه وضرعه وقوتيه الارض ذهباً ونضاراً . ألا ترى القروي في الغرب كيف يستنبت حقوله على افضل الطرق الفنية مجتئياً منهارياً كبيراً ايضمن له ولبنه سعة العيش .

فاذا جلت في اصكواخ الترويين رأيت من حولها رياضاً غناء حافلة بانواع الطيور
 والمواشي ، وهم بجالة هنيئة يجسدهم عليها كبار الاغنياء . . . ومن اكبر آفاتنا اننا
 نتشبه في اقتباس المهن بسوانا الى حد يورثنا البلاء . فاذا رأينا احدنا قد نجح في
 دراسة فن الطب مثلاً نشط اكثرنا الى تعليم بنيه هذا الفن حتى تصبح البلاد وفي
 كل قرية منها اطباء ، والسعيد فيهم من قام بتفقات معاشه فيضطررون الى الجلاء
 عن اوطانهم . وكذا قل عن سائر الفنون التي كسدت أسواقها في انحائها بسبب اقبال
 الطلاب عليها . على اننا لا ننكر ان هذا التشبه طبيعي في البشر ، الذين دأبهم
 التنافس والتحدي ، ولكننا نحن نسيء التصرف فيه ، اذ نكتفي بأن نفتص آثار
 غيرنا بدون ان نتفكر ونتأق في المهنة التي انصبينا عليها ، فيحصل من هذا التراحم
 لجميع ارباب هذه المهنة أيبئ ضرر . أما الغربيون فاذا رأى احدهم تاجراً اصاب ثروة من
 الصنف الذي يتجربه ، و اراد ان يفتح محلاً للمساجرة في الصنف نفسه ، بذل
 مجهوده في مسابقة اخيه في تحسبه ، او اقتصر على جلب الصنف العالي في حين
 ان زميله يتاجر بالصنف العادي . فبدلاً من ان نتمسك نحن على هذه الطريقة المثلى ،
 نأخذ في التراحم حتى يشملنا الاذى جميعاً . وكان الأولى بنا لو كنا من العقلاء ، أن
 نبحث عن غير صنف او تزاوول فتأ جديداً ، فنصيب من ذلك ارباباً طائفة . وهكذا
 تعم الفنون في البلاد ، ويجزل المكسب بدون ان يُمس احدنا بأذى .

ومما يوجب الأسف الشديد ، ان كثيرين من الآباء الإشحاء يُقلعون عن تعليم
 بنينهم مهنة لائقة بمجالتهم ومقامهم ، ضناً بالدنانير التي في ايديهم ، فيكتفون بوضعهم
 في مكتب عادي ، حتى اذا ألشوا فيه ببعض العلوم اخرجوهم منه ، وهم عاجزون عن
 المتاجرة بما تلقنوه ، فيسدون في وجوههم باب الفلاح . فبئس المسلك الذي يسلكه
 هؤلاء الآباء ، فانه غاية في الخرق ومضاره أكثر من ان تُوصف . فلو كان عندهم
 شيء من الحكمة ، لبذلوا الاموال في تعليم بنينهم بكف ندية ، لانه خير للولد ان
 تورثه علماً من ان تورثه مالاً ، لان العلم يجلب المال والجهل يبده مها كان عزيزاً

فاذا كان في قلوبكم أيها الآباء شفقة على بنيكم فلا تتفاضوا عن تعليمهم
 مهناً توفر لهم اسباب الارتاق . وتكن هذه المهن موافقة لحالتكم ، ولا تبالوا

بالتفقات التي تُنتقونها في هذه السبيل ، فانهم اذا ترعروا وتزلوا الى ميدان العمل كالفؤك اضعافاً على ما كابدتم في جنبهم ، وذكروكم بالحمد والثناء ، واستتلوا عليكم بعد ممالككم غيوث الرحام . فان بلادنا يتعذر عليها ان تجاري بقية الامم النجبية بدون ان تُنتقن الفنون والمهن . فمسي ان نرى في فلكها بدر التقدم الوهاج ، بعد اهتمامكم بالناشئة الجديدة وتربيتكم اياها على طرق الشعوب النبيهة .

الزراعة حياة الامم

أولُ فنٍ اقبل عليه الانسان في ميدان هذه الحياة هو فن الزراعة ، لانه من الأزم الفنون للمعاش حتى لا يستقيم امره بدونه .

وقد كانت الارض في الدور الاول مخصباً ، توفى غلالاً غزيرة لآقل جهد يُصرف في سبيل تنبيتها ، فلما امت عرضة الآفات فسدت وقلّت محاصيلها ، واصبحت في حاجة الى مداومة العمل فيها وتعهدتها بالعلاجات الواقية من الجذب . ولا ريب ان الحكمة الإلهية انما قضت على الارض ان يعتمرها المحل مرة بعد مرة حتى يعلم الانسان انه لم يُخلق في هذه الدنيا الا للعمل والعناء . فلو كانت الارض تكفيه مؤونته كل حياته بدون نصب لاستغرق في سبات التواني وجنى من ثمرات الفراغ ما يُلقيه في مهارة التمس ووهدة البلاء . وما من نكير ان الزراعة هي من ارفع المهن واجدها بالاعتبار ، اذ عليها يتوقف نجاح الامم ، وبدونها لا يكون لأمة حياة . فهما اتسع نطاق التجارة ، وهما بلغت الصناعة من التقدم والإحكام ، فاذا لم يكن للزراعة شأنٌ ولا نصيب من العناية بأمرها ، أفضت الحال الى التأخر عاجلاً او آجلاً . ولا تعجب من ذلك ، فان التجارة تستقدم ساعها من المزروعات والمصنوعات ، واكثرُ المصنوعات تستخرج موادها من ثمرات الارض ومعادنها ، فاذا ماتت الزراعة ماتت الصناعة ، وبوتها تموت التجارة .

ومن هنا يُعرف قدرُ جهالة الذين لا يُعلِّقون على الزراعة اذنى اهمية ، حتى ينظرون الى الزَّرَاع بعين الازدراء ، كأنهم جُبلوا من غير جبلته . الا فليعلم هؤلاء ان الأمم القديمة ، كالفرعنة والفينيقيين والسكلدانيين والاشوريين واليونانيين والرومانيين لم ترفع اعلامها المهيبة في العمورة ، ولم يستتب لها الحكم قروناً الا لاهتمامها بالزراعة وتعزيز اربابها . وأماً الامم الحاضرة فان الزراعة عندها من الخطورة بأجل مكان ، حتى انها تنظر الى المحراث في يد الزَّرَاع كما تنظر الى السيف الماضي في يد الجندي ، والقلم السيال في يد العالم الشهيد ، والجوهرة الثمينة بين يدي الصانع الحاذق .

ولنبحث الآن عن اسباب انحطاط هذا الفن المفسد في وطننا المحبوب ، فهي ترجع الى الفقر وقلة الخبرة والتنشيط . أما الفقر فانه من اكبر البواعث الحائلة دون تقدم هذه الصناعة النافعة . ترى الزَّرَاع يعجز عن استحضار الادوات اللازمة لحراثة ارضه ، وتفتيتها ، وتسميدها ، وقطع نباتها ، وحصاد زرعها ، على الطرق المألوفة اليوم في البلاد الراقية . فاذا اراد ان يحراث قطعة ارض عنده لا تتجاوز مساحتها فدائماً ، صرف على ذلك اكثر من يوم بالمشقة ، ولم يشق من قلب الارض بمحراثه اكثر من ثلث ذراع . فلو كان لديه آلة للفلاحة كالآلات الحديثة الاختراع ، فلنح قطع ارضه في اقل من ساعة ، وتهدأ له ان يقلبها الى اعماق من ذراعين او اكثر

وأدأ قلّة الخبرة فهي مسببة عن جهل قواعد هذه الصناعة واسرارها الدقيقة . والجهل ناشئ عن الفقر ، لان الزَّرَاع لا يدخل له من ربيع ارضه ما يُرِي على نفقات معاشه ، مع انها لا تتجاوز حدود التقتير والاقتصاد المفرط . ولا يخفى ان الفلاح مهما اقبلت مواسمه ، ينوء أزره تحت اعباء النفقات التي يستلزمها تعليم اولاده في المدارس الزراعية . فما من احد يقوى الآن على سدّ هذه الثلثة ألا الحكومة ، وهو خير ما تصطنعه اليوم من الحسنيات الى بلادنا الخصبية البقاع المتسعة الاراضي . ومتى غزت مواد القروي في المُقبل ، يقوم هو بهذا العمل وحده ، ويكفيها مؤونة الاهتمام بشأنه . وما أجدرها أن تُعَيّن من الآن ، في جميع اعمالها وولاياتها ، رجالاً خُبراء بفن الزراعة ، يحول كل منهم في الناحية المعين لها ، حتى يُلقِي على القرويين دروساً تُرشدهم الى الحلل الواقع في مهنتهم ، واتخاذ الوسائط الفعّالة لتحسين اراضيهم ، وتهديتها للزراعة

على وجه يضمن لها الاقبال .

وأماً عدم التنشيط فلا نخاله الاعقبة في وجه هذه المهنة الحريّة بالتشجيع والالتفات ، فلا نرى احداً يعيدُ الى القروي يد المساعدة في جميع حاجاته ، وبعاصداف مع الخذلان امتهاناً لشأنه ، حتى يتملكه اليأس . فما ضراً الحكومة لو أسست مصرفاً يستدين منه القرويُّ عند مسيس الحاجة ، في حين انها قديرة ان تستوفي منه الدين لدى استغلال موسمه . وأيُّ أذى يلحق بها اذا تبرّعت لجواتر ، تجود بها على من يهبر رصفاءهُ بإتقان مهنته ، ويبرزُ أقرانه بالتأثق في حرفته . وأية خسارة تُصيها لوأعت الفلّاح بضع سنوات من الرسوم والضرائب الفادحة ، رغبةً في تنشيطه وترغيبه . بل أية مصيبة تنزل بها لو حثت الاغنيا . على تأليف شركات ، تُعنى بعاونة القرويين وتوفير اسباب ارتاقهم ، حتى يقف تيار المهاجرة ، الذي كادت بسببه تفرغ البلاد من السكّان والعمال . أترى يبقي عندنا مال اذا فقدنا العملة والصنّاع ، او يقوى الموسرون فينا على استثمار اموالهم واستغلال اراضيهم ، متى ترحت هذه الفئة اللناهضة النشيطة الى البلاد الاجنبية . فاذا كنتم لا تكترثون ، أيها الملاكون الثرون ، للفلّاح عن غيرة ومروءة ، فلا أقلّ من ان تستحيطوا في امره ضناً بمصالحكم ، وحرصاً على ثروتكم التي اذخرتموها من عرق جبينه . فأأنصفوه اذاً يا ابنا . الجدة والميدرة ، وتلافوا الطوارئ قبل حلولها .

شرف المحراث

إذا ملأت الحضر وسمت من الدر ، وكهرت ضوضاء المدن وجلبت سكانها ، فهياً الى المزارع والحقول وروح صدرك بنماتها اللطينة ونفحاتها الذكيّة ، وفكّه عينيك بتلك البسّط الخضراء التي نسجتها يد الطبيعة ويد الزّراع معاً . هنالك ترى السنابل تتمايل طرباً وترقص جذلاً كأنها نشوى بما في قلبها من البرّ الذي بدونه لا يحيا الانسان ، او كأنها هائمة بداعية النسيم وخرير الماء وثغاء الشاء ، أو كأنها تريد أن تشكر لمبدعها الذي أنبتها وتبرهن للفلاح الذي تعهدّها وربّها منذ كانت بذرةً الى أن صارت سنبلّةً على إقرارها بفضله وقدرها لأتباعه . .

وايُّ مشهدٍ اطيب للنفس وأقرّ للعين وأدعى الى الأُنس من ان ترى الترويين يتسائلون عند انبثاق الفجر الى حقولهم زرافاتٍ زرافاتٍ ، وعلى منكب كلّ منهم سِكّته ومعوله وفي يديه مهزنته ومزادته وخريطته ومزماره وقيثارته وامامه قطعانه وثيرانه ، وفي صدره همّة سماءٍ للدأب في العمل ، وفي فواده املٌ كبير بان موسمه سيكون مقبلاً كل الاقبال بعد اتكاله على مولاه الجوّاد وتحويله هو على نشاطه وكده . وحينئذٍ يقوى على عيالة اهله الذين يُعينونه صغاراً وكباراً على حراثة أرضه وزرعها . .

يمرّ النهار ولا شاغل يشغله عن عمله ولا همّ يُقلق باله ، وضميره مطمئنٌ لم يلوّث بدنيته ولا بال حرام ، ونفسه ساكنة شريفة لا تطمح الى المناصب والمراتب العالية ، ولا تُحدّثه الا بأن يعمل في حقله حتى يستغني عن الناس ، واكره الاشياء اليه ان يطمع في مال غيره ، او يحسده على نعمته ، او يُزاحمه على رُتبته ، او يغيبه في بيع مزروعاته ، او يبيعه الحليب مشوباً بالمال . . وابتغى الرذائل الى قلبه ان يثلم عرض قريبه ، او يُبطن له المقت ، او يضره الشر ، او يُجتال عليه ، او يكرهه الى ما هنالك من المفاسد التي يتنزّه عنها ، وربما لا يعرفها ، لانها من مقترحات المدنيّة ولا أثر لها في العيشة الحقلية . .

هذه هي السعادة بعينها ، وما اقلّ المتستعين بها ، ولا سيما في المدن حيث تسود المطامع وتجول المخابث وتكثر الافتراءات وتتوالى الحيات ، وحيث ترى الضائر ساجدة في بحر المنكرات والمخزيات على غير مبالاة ، وحيث تنازع البقاء معقود غبارهُ ، والحسد مشبوبة نيرانه والاثثار هائج بركانه ، والجور موطدة اركانها ، وحيث لا يطيب للتاجر الا الخداع والغبن ، وللمستخدم الا الخيانة والمكبر ، وللحاكم الا الحيف والضغط ، وللقاضي الا الرشوة والظلم ، وحيث لا يحلو للزوج الا ان يخرق حرمة الزواج ، وللشاب إلا ان يتمرغ في الحلمات ، ويسبح في بحر الشهوات ، وللفتاة إلا ان تذهب في ميدان التهنك كل مذهب خالعة إزار الحياء ، موارية العفاف في نعش القحة بعد ان نسجت له كفنًا صفيقًا من الاستهتار .

فبئس الحياة المدنية ونعم العيشة البدوية ، فاذا راقك أن ينعم عيشك ويهنؤ طعامك وتطيب حياتك ويطول عمرك ، وأن تطوي آياك بالشرف والتزاهة والإباء والاستقامة ، فعليك بالحياة الحقلية فهي منزهة عن شوائب المجتمع وخالصة عن العيوب اللاصقة بنفوس اهل الحضر . .

وما اجهل الذين ينظرون الى المحراث نظرة ازدراء ، حتى كأن الزراعة مهنة وضعة زرية وكان الفلاح هو من نفاية الناس ورعاع القوم . ولا ريب ان الذين يذهبون هذا المذهب هم جديرون بالامتهان ، لانهم يدهنون عن قصر نظر وضعف رأي في الحقائق ، فلا ينظرون الى الجوهر ، ولا الى النفع الحقيقي ، بل تُعصي بصائرهم الظواهر الخداعة فينبون حكمهم على الزخارف الختالة والمحاسن الغرارة ويعلقون بالأوهام . كيف لا وهم يزعمون ان المرء قام شرهه بمنصب رفيع يُسند اليه ، او برتبة سامية يتالها ، او بثروة طائلة يرثها من أويبه او يفوز بها مجده ، او بحسن طالعه الى ماهالك من المزاعم التي لا تنطبق على الحقيقة . والذي زاه ويراها كل عاقل أن اجدر الناس بالاحترام من كان أنفعهم لبلاده . والزراع هو في نظر الحكماء اجدى من السياسي والتاجر والمثري ، لان يده العاملة تُتزل على البلاد الخيرات ، ومحراثه الحديدية الذي يهزق به قلب الارض يلقي بين يديها الكنوز الذهبية . فلولا الزراعة لسّلت يد الصناعة وكسدت سوق التجارة . والله درُّ من قال ، وهو من اكبر فلاسفة

هذا العصر « ان أداة الغنى الحقيقية هي المحراث ، والبلاد التي تعتمد على ذهبها بدون ان تعتني بجرث ارضها وزرعها وإتمام أغراسها، يتعدّر عليها ان تُطعم سُكّانها» وقال احد علماء الفرنسيين من امدٍ غير بعيد « يجب على الحكومة ان تُمدّ الفلّاحين بجميع ما لديها من الذرائع حتى يتسنى لهم ان يستخرجوا من ارضنا ما نحن في أمسّ الحاجة اليه ، فنستغني عن استيراده من البلاد الاجنبية . ومامن واسطة المنج من هذه الواسطة لرفع منزلتنا المالية وتحسين حالتنا الاقتصادية ومقاومة اعدائنا الذين يجردون ايّ جدّ في ان يتقصوا من قدر اوراقنا النقدية حتى يزغزوا دعائم ثروتنا ويُضعفوا ثقة الاغيار بنا . »

وان روكفلر ذلك المثري الاميركاني الشهير بعد ان ساح في اوربا بضعة اشهر عاد الى بلاده ، فسأله اصدقاؤه عما رأى في رحلته من المشاهد الجديدة بالعجب والاعجاب ، فقال على النور « ان اعظم مشهد رآته عيني هو رويتي القرويين الفرنسيين يعملون من الشفق الى الغسق مجدّ لا يعرف الملل حتى يصلحوا اراضيهم ويُرَبِّموا منازلهم التي خربتها الحرب الكونية . ولا جرم ان هذا العزم المعروف به الشعب الفرنسي هو الذي جعل فرنسا في المقام الذي نراها فيه . »

فلو زار روكفلر او غيره من السّياح هذه البلاد وتفقّد بيوتها التي لا تزال حتى الان خربة ، ورأى حقولها الجرداء ، وارضها الجلحاء ، وانقاضها البالية ، واطلاها الباكية ، ودرّمها الدامية ، لرثى حالتنا ، ورقّ لجمودنا وخمولنا ، وعاد الى وطنه وفي نفسه اسوأ أثر . فابن الصبر الذي عُرف به الشعب اللبناني ، واين الهمة التي رافقت آباءنا واجدادنا حتى تقروا الصخور ، وحفروا الجبال ، وجعلوا من تلك الاراضي الصلدة حقولاً خصيبة ، ومن تلك الآكام الغامرة قرى عامرة ، ومن تلك المستنقعات حدائق غنّاء . فكان السواعد القروية في وطننا العزيز قد اعترها الشكل حتى تركت الشبيبة ارزاقها يواراً ، وتزحت عن هذه الديار الى المهاجر حيث تذوق المراتز ، وهنا الضربة القاضية والطامة الكبرى . .

ألا التفاتة الى هذه البلاد المنكودة ، فان الحراب تهددها من كل جانب . أو ما كفاها ما قاسته من البلايا الفادحات في تلك الحرب الظالمة القاسية حتى تنكأوا

اليوم فُرحتها بجلائكم عنها . . تأملوا ايها الشبان الاحباء بسوء مصيركم وأقلعوا عن مهاجرة اراضيكم كما كان شأنكم قبل الحرب . واحرثوا بقاعكم حتى تعود الى حالها الاولى ، فتكفيكم مؤونة الهجرة المرة ، والا جنيم عليها وعلى نفوسكم جناية لا يفرها لكم حقدتكم . وانتم ايها الاغنياء ساعدوا الزرّاعين على احياء أملاككم وأنجدوهم بالمال واعطفوا عليهم حتى تُحيوا بقية الأمل الضئيلة الباقية في صدورهم ، فيبقوا من حولكم يعملون في سبيل مصلحتهم ومصلحتكم معا . فانتم لا تستغنون عنهم وهم لا يستغنون عنكم ، والنجاحُ مضمون بالتضافر والتناصر ، والفشل واقع مع التواكل والتخاذل . وما اسعدَ الزرّاع الذي يُعول على زرعه وضرعه ، ويعتمد في معاشه على المولى الرزاق ثم على عرق جيئه ومثانة ساعده ونضارة عافيته ، ولا يتشكل الا على رأس معوله ونفاذ محرثه وقوة فدّانه .

الشفقة البشرية

اشرف عاطفة تلبت في فؤاد الانسان أن يشفق على ابناء جنسه الذين عَضَّهم الدهر بنابه وحكم سيفه الماضي في رقابهم ، ولا سلاح لهم الا الصبر على مقاساة المحنة وهيئات يكونون من الصابرين ، وهم يتقبلون على احرام من الجمر وأحد من شوك القتاد . فاذا لم تمس الرحمة قلوب اخوانهم في البشرية باتوا يصعدون الزفرات ويُذرفون العبرات ، وعميونهم شاخصة الى السماء تلتمس منها فرجاً ، وتبتغي سلواناً . فما اجمل الشفقة وما احمدمساعيها ، وما اغزر منافعها واعذب مجاريها ، فانها تُعرب عما في الصدر من مكارم الاخلاق ورقة الشعور ، وعما في النفس من التجرد والصبر والنشاط ، وبعده الهمة وكال مروءة والغيرة . ولذلك اتزولها من الفضائل بمنزلة الواسطة من القدر وعدوها بين المحاسن كالجوهر الفرد . كيف لا وهي الدرّة اليتيمة التي لها في اندية الانسانية ارفع مقام ، والوردة الذكية التي تارّجت المجالس بشذاها ورُوّحت الصدور

بطيب ريارها ، حتى كانت لجراح المنكوبين مرهماً ، وقروح المصابين بلسماً ، وفي حماها لقي المدمون ملاذاً والاعلاء ملجأً والمنكوبون عياداً ، وفي مساكنها ربي اليتامى واللقطاء ، وفي ساحتها ابصر العميان نور العزاء ، وفي مستشفياتها صادف المسلولون فرجاً ، والمويثون شفقةً ، والمطعونون راحةً ، والمقعدون أنساً ، والحزانى تغزيةً . فهي اكبر معين على خطوب الزمان ، واقوى نصير على الكوارث والحدثان ، واصفى مورد لابناء العسر ، واعذب منهل لأصحاب البلاء . ومن مزايها انها لاتنزل صدرها خشنت عواطفه ولوئمت طباعه ، ولا تأوي الى قلب خبثت طويته وسفلت خلاله ، ولا تقازج خلقاً شرساً ، ولا تألف الدناءة والحسد والطمع والبخل ، ولا تلامس نفساً اعماها الاستئثار ودب بها الحقد ، وتورطت في الحيانة والمكر ، ومالت الى التعنيف والظلم ، ولا تؤاخي العجب والكبرياء ، ولا تصاحب عشاق الترفه والتنعم ، ولا تُرافق طلاب العظمة والمجد ورؤاد المدح والجزاء الدنيوي . وانما هي نعمة علوية يُوتبها الله من يتوخمى وجهه الكريم في أعماله ، ويُفيضها على النفوس التي أعرضت عن الدنيا طمعاً في مرضاته ، وقطعت عن ملاذها حرصاً على ثوابه ، وتجرّدت عن جميع الاهواء ، وتفرغت للعبادات والحسنات ، ولم يكن لها من مقصد سوى أن تذخر الصالحات ليوم المعاد .

أجل ما من شيء أدل على كمال المرء ورسوخ فضيلة الرحمة في فؤاده مثل ان يحنو على من تربطه بهم روابط الانسانية ، مما يميل للعيون ما انطوى عليه لبه الشفيق من الشواعر الرقيقة، وتقافيه عن الاخلاق الحيوانية التي لا تعرف للعطف . سلكاً ولا للبر منهاجاً . واي امرى اعظم فضلاً من الذي يتجرّد لمواساة اخيه المنكوب تخفيفاً لبلاياه وتسكيناً لآلامه المبرحة ، حتى انه لا يبالي بما يقاسيه في هذه السبيل من المشقات الناصبة ، ولا يلتفت الى دعتة وراحته ، ولا يُشفق على مقتلته من طول السهاد ، ولا على قدميه من شدة العناء ، ولا على نفسه ان يسومها جهد البلاء ، وانما يطيب له ان يجهد جسده ليريح غيره ، وان يضيع نفسه رغبةً في ان يفرج النعم عن المتضايقين من اخوانه ، وأن يخفف الألم عن الاعلاء من ابناء نوعه على ان الشفقة الطبيعية بالتمام ما بلغت لا يكون لها ما للشفقة المجردة من سمو

المتزلة وشدّة التأثير في القلوب ، اذ يندفع صاحبها بعوامل فطرية تكاد تكون قسرية أي اضطرابية ، وذلك كما لو اقدمت الأم على تمريض ولدها المصاب بعلّة وبائية وبيلة ، فان الحنوّ الوالدي يتغلّب اذ ذاك على ارادتها ، فيدفعها الى تحمّل جميع المكارّه والتعرّض لأشدّ المخاطر ، حرصاً على حياة ابنها الذي هو بضعة من جسمها ، وفلذة من كبدها وقطعة من روحها . ولهذا السبب لا يرى الناس بعين العجب والدهش ماتعانيه الأمّهات من الأنصاب المذبية في خدمة بنيهنّ ومعالجة السقام منهم ، واذا يتعجّبون اذا قصرن في هذا الواجب الطبيعيّ ويرموهنّ بسهام الملامة الحادّة .

والشفقة البشرية لاتعدّم في كل بلد جنوداً بسلاء ، يرفعون منارها ، ويحمّلون لواءها ، ويخوضون غمارها . واقصد اذا شئت أحد المستشفيات الحافل ببضع مئات من الموبوتين والمشوّهين بعماهات عديدة ، مما تتقرّز عن منظرة النفوس ، وتشتمر من دمامته العيون ، فهناك تتجلّى لك ملائكة المحبة ، مُلقية عليك بحورساً كبيرة لا تتلقّها على غير أيديهنّ . تراهنّ واقفات الى جانب الميؤء يغسلن جراحه التي يسيل منها الصديد ، ولا تفارق الابتسامة ثغورهنّ ، ولا تمحى البشاشة من صفحات وجوههنّ ، حتى كأنهنّ إزاء حديقة غنّاء ، لا إزاء اجساد تنبعث منها الروائح الكريهة ، ولا تجاه قروح تتأفّف منها النفس وينقبض الصدر . ومع ان تلك المرصّات الفاضلات تسري الى اكثرهنّ العدوى ، وأغلبهنّ يموت في ربيع الحياة ، ومعاً في خدمتهنّ هذه من النصب والضمّ وقمع النفس وإفناء الذات ، فلا يزال عددهنّ في نموّ مطرد ، بحيث لا تقال المنيّة احداهنّ حتى يحلّ غيرها في محلّها بطيبة خاطر ، على حدّ مايقع للجنود في ساحة الهيجاء ، فكلماً حصدت المدافع منهم صفّاً يخلفهم من يسدّ مسدّهم . ولكن شتان ما بين هؤلاء ، وأولئك ، فان ابن الحرب ربما اندفع مُكرهاً لا مُخيّراً ، وغايته أن يقتل اخاه وهي شرّ الغايات . وأمّا بنات الرحمة فانهنّ يتجنّدن بمهزّة نفس ولا يقصدن الا مجد الله ، ولا همّ لهنّ الا أن ينقذن المرضى من مخالب المتون ، أو ان يلبطنّ اوجاعهم ، ويسكّن آلامهم ، عملاً يفترض البشرية التي هي من اسمى الفضائل واجدها بالمشوبة وأحراها بالاعجاب .

ولا جرم ان الذي يدفع أولئك الورعات الى ذلك المعترك الهائل ، المحفوف

بالمعاطب والمهالك ، انما هو امرٌ علويٌ ، ليست الدنيا في شيءٍ بالقياس اليه ، ونعني به الجزء العظيم المعدّ في دار الخلد لمن يخدم اخوانه ، ولا سيما اذا كانوا من اهل البؤس والشقاء ، ويُرَضُّ مَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ بِالْأُوبِئَةِ الْقَتَالَةَ . ولا فرق بين مَنْ يهرق دمه على مذبح الاستشهاد ، وَمَنْ يُذِيبُ جَسَدَهُ وَيُذْوِي زَهْرَةَ صَبَاهُ فِي مِيدَانِ الْجِهَادِ . بل ان الشهداء انما يتجرعون كأس العذاب المرّة مرة واحدة ، وأما تلك المجاهدات فانهن يقاسين المكاره كل يوم مراراً ، حتى ان حياتهن هي ولا ريب سلسلة من المراتز ، بل استشهادات متتاليات .

وحسبك أن تتعهد مستشفيات الأوبئة وتلقي نظرة على البرص والسلولين والمطعونين والمجدورين ، والمصابين بالهَيْضَةَ وَحَمَى التيفوس ، وغيرهم من المسمومين بالامراض الوبائية ، حتى تعرف فضل أولئك البطّلات الباسلات اللواتي يُسِينُ الْعَلِيلَ أَلَمَهُ بِطَلَاقَةِ وَجُوهِهِنَّ ، وابتسامات ثغورهن ، الناطقة بماهن عليه من مزيد الارتياح الى قضاء مُهْتَمَّتِنَّ الشَّاقَّةَ .

ومن ثم أفأحقّ للانسانية وكل من يحنو على المنكوبين من بنينا ان يتباهوا بأولئك الجنود الابطال ، الذين يتطوعون في خدمة الميوثيين المتجسّسة فيهم الشقاوة البشرية ، وهم لا يرون لهم موثلاً يلتجئون اليه غير حمى الرحمة . وكمن ذي مروءة يُقَدِّمُ عَلَى الْمَخَاطِرِ قِيَاماً بِوَأَجِبَاتِ النَّخْوَةِ وَالرَّافَةِ ، فيعود المرضى المصابين بالأوبئة المعدية ، وكثيراً ما يذهب ضحية غيرته فيموت شهيد الواجب ، وما احلى الاستشهاد في هذه السبيل . كافأ الله هذه الفئة الفاضلة وأكثر من امثالها وابقاها خير قدوة للشفقة والرحمة ، واقوى عضد لمن لا عضد له من ابناء البشرية . . .

هذا واذا كنا نحن لا نبلغ في ميدان الشفقة الى هذا الحد فلا اقل من ان غداً للمتضايقين يد المعونة حتى نفتح لهم ابواب الفرج وننقذهم من نيران العذاب . ولا يحسب احد ان اختلاف المذاهب او المواطن يهد له العذر في التناضي عن مناصرتهم . فان الشفقة تقحم كل الحواجز وتحرق كل الحوائل ، فلا يقف في وجهها بعد المسافة ، ولا يصدها عن مجراها غرض من الاغراض ، ولا حاجز من الحواجز ، وانما تسكب سحائبها على جميع اطراف المعمور حتى تُثَبِّتِي بِهَا النُّفُوسَ الْكَثِيبَةَ ، وَالْقُلُوبَ الْمَكْلُوبَةَ ،

والصدور المتقدمة ، والجوانح المحترقة ، فلا يقر لها قرار ما لم تواسِ البائسين ، وترفع
الاتقال الباهظة عن عواتق التبعين .

واليوم مجالٌ واسع لأصحاب الشعور الرقيق للانطلاق في ميدان الشفقة لمساعدة
أخوانهم الذين نُكبوا في هذه البلاد فذهبوا ضحايا النفاظة والقساوة ودُكَّت
منازلهم ونُهبت أموالهم ، ولم يبقَ منهم الا شيوخ يندبون الأطلال ، وارامل يُنصن
على من فقدن من الرجال ، ووثاكل يبكين على اولادهم ، وصغاراً يتفطرون اسفاً
على فجعهم في آباؤهم ، وقد عَصَّهم الجوع وأذابهم الحزن ، وهم اليوم يستغيثون بالاسخياء
الرُحماء ، مستهينين لمناصرتهم بما تسمح به نفوسهم الكريمة . فنستحسبكم يا ابناء
الارضية ان تُقبلوا على نجدتهم بما يكشف عنهم القمّة ويلطّف البلية ، والله لا
يُضيع لكم أجراً .

ولابد لنا هنا من ان نُفتِّح على بعض النساء قسوتنّ على بعولهنّ يومَ يُصابون بمرض
مستكروم ، او داء مُزمنٍ مُقعد ، فانهنّ يُظهرنّ لهم من التبرُّم والتأقّف ما يضاعف
أوجاعهم ويجهز على صبرهم . وكثيراً ما يدعّتهم يتسلمون على فراش الألم منطلقاتٍ
الى مجتمعات الأُنس ، غير مُبالياتٍ بتقصيرهنّ في تريضهم ، ولا حافلات بما يسعته
من الملامة في تقاعدهنّ عن خدمتهم وتخلّفنّ عن مساعدتهم في محتهم . ولا يلقين
احداً في الطريق الا يُصارحنّه بهنّ وشكواهنّ ونفاد صبرهنّ ، ويشرحنّ له
ما هنّ عليه من سوء الحال وضيق الصدر . افا تحجل هؤلاء النساء ان يتبرّمنّ من
مكابدة بعض العناء في خدمة ازواجهنّ الاعلاء ، او ما يحفنّ ان يبلاهنّ الله يوماً
بداء عضال ، ويحرمهنّ كلّ نصير وكلّ مؤسّر . او ما يوجهنّ ضميرهنّ على تفريطهنّ
في اقدس واجب . واكثر الناس انما يتروّجون على امل ان تُفَرِّج نساوهم القمّ عنهم
وتخفّف عذابهم وتلطّف الامهم في اسقامهم ، ولولا ذلك لاقلّع اغلبهم عن الزواج
وأبوا أن يضعوا في اعناقهم هذا النير الثقيل .

وما عسى ان تكون حالُ هؤلاء النساء القاسيات القلوب يومَ يمثلنّ بين يدي
القاضي العادل ويسمعنّ منه اقسى كلمات السخط على توانيهنّ في خدمة ازواجهنّ
السقام ، وما يدور في خلدنّ اذا حضرنّ يوماً الى احد المستشفيات ورأينّ مئات من

«المرّضات المتطوعات الى جانب أسرة المويّنين ، والبشير يتلأأ على جبينهنّ
والابتسامة لا تقارق ثغورهنّ» . فأغن للروية ، واين الحنو ، واين الإخلاص ، واين
الأمانة . أوقات هولاء السيدات انهنّ لو أصبنّ بأعضلّ الأذواء وابعثها على النفور
والاستمزاز لا يتردد ازواجهنّ عن أن يوقروا هنّ جميعاً للأسباب التي ترميهنّ
وتُعين على شفائهنّ . وكيف يكون موقفنّ أمامهم إذا أبرأهم الله من ضنّاهم ، ألم
كيف تكون احوالهنّ اذا اضتهنّ احدى العليل الكريمة ، أو يحسرنّ يومئذ ان
يطلبنّ منهم أقلّ مدد . ونحن نعرف غير واحدة من أمثال هولاء «الزوجات اللواتي
بلغنّ منهنّ اللوم الى ان يجذلنّ ازواجهنّ في مرضهم المُقعّد ، مع انهم كانوا قبل انقيايه
لهم من اسخى الرجال على نساتهم ، وأوفرهم عناية براحتهنّ . ولكن « قتل الانسان
ما أكفره »

وإنه يُشجينا ان نرى التسوة مُخَيبةً في قلوب بعض السادة الاغنياء ، حتى لقد
يُعرضون عن خدمهم أيّ إعراض ، يومَ تدهمهم علةٌ ، أو تُساورهم محنة . فينسون اذ ذاك
ما لهم في جنبهم من الخدم الكبيرة ، ويطوون كل حسناتهم ، وكثيراً ما يكون
هولاء الخدم قد قضاوا الشطر الاكبر من حياتهم في خدمة مواليهم ، وقد برهنوا في
كل موقف وفي كل ساعة عن صدق في العمل ونشاط اليه ، وحرص شديد على مصالح
من تقيّدوا بخدمتهم . أو يلبق بأولئك السادة أن يُهملوا شأن مستخدميهم ويعضوا
الطرف عنهم في إبان ضيقتهم ، أو يذكروهم ان يُخفقوا من صدورهم روح الأمل ،
وهم في آخر خريف حياتهم . وكيف يُقدم غيرهم على خدمتهم ، متى رأى منهم هذه
الجفوة ، لن وقف عمره على السعي في سبيل منافعهم . فاذا كانوا لا يُطبقون ان يكون
مستخدموهم العجزة في منازلهم فلا أقلّ من أن يُدخلوهم احد المستشفيات ، او
يُدوهم ببلغ من المال يُعينهم على التداوي . . هذا ما تقتضي به النخوة البشرية ، وما
أندرَ بنيتها ونصرائها في هذه الايام .

وليؤتجه ، هولاء السادة الثّساء ، انظروهم الكليلة الى البلاد المتتمدّنة ، حيث
يتسابق الموالي في ميادين المكافآت ، فلا يتصرون على انصاف مستخدميهم في اجورهم
بل يزيدونها سنة فسنة تشجيعاً لهم ، وربما جعلوهم شركاءهم في بيوتهم التجارية .

ومتى انتهوا الى العمر الذي يفتقرون فيه الى السكينة والدعة يُفنونهم من العمل ،
 و يُؤدُّون لهم جُمالة راضية تضمن لهم ان يعيشوا هم وأهلهم بيسر وسعة ما بقي من
 أيام حياتهم . و اذا أصيبوا في غضون الخدمة بضرر او عاهة ، او بلية او علة وما
 اشبه ذلك ، حتى عجزوا عن الارتاق ، كانوا من اسبق الناس الى مؤاساتهم وتعزيتهم
 مكافأة لهم على خدَمهم السالفة الصادقة .

ألا حياً الله ارباب الحمية والشفقة ، و حياً بلاداً تُنبت من اشباه هؤلاء
 الرجال العظام الرقاق الشهور الكبار النفوس ، واكثر من امثالهم في هذه الربوع
 التي لا تزورها الشفقة الاً يلاماً ، ولا يعرف أهلها النصفة ما هي ، و اذا عرفوها كان
 من أكره الامور اليهم ان يستنوا بسننّها و يتقيدوا بقيودها . ولذلك يندُر عندنا
 الخدّام الأوفياء . و العاملون الأمانا ، و هيات ان نرى بين السيد و المَسود صلة متينة
 تُشعر كهمافي المصلحة بحيث يُصيب احدهما ما يُصيب الآخر نفعاً كان أو ضرراً .

و كنا نتمنى لو يكون عندنا من العطف على إخواننا في الوطنية و الانسانية ما عند
 أولئك القوم منه على العجاوات ، فنكون من اسعد الناس حظاً و أرقهم شعوراً .
 و أي امرئ في بلادهم ، مهما كان عليه من الغلاظة و الفظاظة ، يجرو أن يُؤذي او
 يُعذب بهياً ، و إن يكن البهيم أجنب حروناً . و الخوذثيون في هذه الديار اذا حرن جواد
 عجلتهم يسلقونه بسياطهم الحشنة ، و اذا عجز عن أن يجرّ المركبات الثقيلة برحوابه
 أي تبريح ، و عتفوه كل التعنيف ، ولا ينفكون يضربونه حتى يكشطوا جلده او
 يذعوا روحه من صدره . و كيف تأمل ان يكون لهؤلاء الأجلاف الجفافة ادنى رافة
 بالناس ، وهم اغلظ كبداً و اقوى قلباً من الخنّاس .

فمتى نرى الشفقة سارية في عروقنا ، مُخيمّة بصدورنا ، راسخة في قلوبنا ، متجلية
 في عيوننا ، بادية على وجوهنا ، بحيث لا يقع نظرنا على يتيم ذليل حتى تنهل العبرات من
 مآقينا ، و لا نبصر فقيراً حتى نُخفّ الى سدر عوزه ، و لا نسمع صوت مستصرخ
 متألم حتى نسرع الى إنجاده و تخفيف كربه ، و لا يبلغنا خبر عن عليل مهجور حتى نبادر
 الى قريضه او تلطيف آلامه ، و لا ينتهي الينا نبال عن منكوبٍ ملهوف حتى نُمدّه
 بما ينقّس عنه الكربة و يفرج الغم . و أية فائدة من انسان لا يعين اخاه على بلاياه ،

ولا يرقُّ له في رزاياه . وأشقى الناسَ مَنْ يخذل الناسَ في المِجَن ، لأنهم يخذلونه ويشتمون به إذا توالى عليه الغيرُ ، ويجعلونه عبدةً لمن اعتبر . والأمة التي لا يكون فيها جيشٌ جرَّارٌ من المتطوِّعين لتسميرِض الموبوتين ، واسعاف البائسين ، وإغاثة المتضايقين ، وإعانة العجزة الرازحين ، وعيالة المُقعدين المفجوعين ، وخدمة المرضى المخدولين ، هي ولا ريب من أتعس الأمم وأجدرها بالانقراض .

فلنغرس إذاً عواطف المروءة والرقَّة والحنان في قلوب صغارنا وأحداثنا ، حتى يتعلَّموا منذ طراوة سنِّهم ان يرفقوا بالضعيف ، ويحثُّوا على الفقير ، ويعطفوا على العجبي ، ويجدبوا على السقيم ، ويعرفوا كيف ينصرون المظلوم ويرقون لتفقات المصدور ، وكيف يفرجون الغمَّ عن الممسوم ويخففون الألم عن الموجوع ، وكيف يؤسسون المرزوء ويعزِّون المفجوع .

ولنا كلُّ الامل بأرباب اليسار في البلاد أن يُلقوا على العامة دروساً عمليَّة يُلقِّنونهم بها مبادئ الشفقة والرحمة ، وذلك بأن يتفقَّدوا بأعينهم المياثم ودور العجزة وملاجئ الفقراء ، موزعين عليهم الملابس التي خاطتها لهم عقائلهم بأيديهنَّ النديَّة . ولا بأس ان يُعيَّنوا في السنة يوماً او أكثر يُقيمون لهم فيه المآدب في بيوتهم الحقيرة ، او يدعون بعضهم الى منازلهم أنفسهم لتناول الطعام على أحوالهم وموائدهم . فان الأشراف في البلدان المتحصِّرة يجرون على هذه الخطَّة الحميدة ، ولا يستنكفون من أن يوأكلوا المُعدمين ، ويُجالسوا المُدقعين ، ويُنادموا المُتربِّين ، وهم يحسبونهم اخواناً لهم وعالةً عليهم ، ويسرُّهم ان ينهضوا بهذا المقترض البشري المقدس ، وتطيب نفوسهم وتشرح صدورهم ، وتنبسط قلوبهم ، وتقرَّ عيونهم ، يوم يُطربون هذه الطبقة التَّسَّسة ، التي ليس بكثير على أرباب السعة في البلاد ان يُذيقوها لذَّة الحياة مرَّةً في العام ، في حين انهم يتدبَّرون ويتلذَّذون ويتدبَّرون ويتنعمون مراراً في اليوم ، ولا يجرمون نفوسهم شيئاً من اطايب الدنيا وملاذها ومباهجها وزخارفها ، حتى كأنها خُلقت لهم وخُلِقوا لها . واسعدُ الناسَ أحنُّهم على الفئة المتألِّمة واكثرهم إشفاقاً على من هم في حاجة الى الرحمة والشفقة ، واشقى الناسَ اقساهم قلباً واغظهم كبداً ، وأنبأهم عن الفقير عيناً وانفرُّهم من الفجيع صدراً .

الاقتصاد

هو امتان اس رسخت عليه قواعد الفلاح واليسر ، وآمن مرفأ لاذت به الحكماء فراراً من عواصف البوس والعسر ، وأضيقت دائرة انحصار فيها العقلاء فكانت لهم من اوسع منافذ الفرج ، وافسح مدارج الثراء ، بل هو الحد الاوسط الذي لا يقف عنده الا المجرَّبون ، ولا يحمده الا المحنَّكون ، بل المزية الجميلة التي تقني صاحبها تبعات الاسراف والتقتير ، وتضمن له الراحة والسكينة ، وتُفزيه باسباب السعد والهنا ، بل السود المنيع الذي لا تقحمه جيوش الفاقة ، ولا تحترقه نوابس الدهر والاقتصاد فن يشتمل مثل سائر الفنون على أصول مبنية على طول التجربة والاختبار ، ومنطبقة على اصول الحكمة والسداد ، ولا بد لمن كان له كلف بالدعة والسعة في دنياه ان يراها بعزير التدقيق والعناية . وقد افرد لها العلماء مجلِّدات ضخمة اشبعوا فيها الكلام على جميع انواع الاقتصاد ، وفاضوا في ذكر الاسباب التي تصون الانسانية من غوائل الاسراف ، وواضعوا المناهج التي تؤدي المرء الى مايرمي اليه من الغنى واليسار حتى احاطوا بجميع اطراف هذا الموضوع ، ولم يدعوا زيادة لمستزيد . وكنا نود ان نلخص للقراء شيئاً مما كتبوه بهذا الشأن توسيماً لنطاق مداركهم الاقتصادية ، ولكن المقام اضيق من ان يستوعبه ، فارجأنا تفصيله الى وقت آخر اذ يفسح لنا المجال لايراده على التتابع في مقالات متوالية . اما الان فاننا نجتزئى على ذكر فوائد الاقتصاد حقاً للنهوس على اتباع مسالكه القويمية حتى لا تفوتها ثمراته اللذيذة وعواقبه الحلوة .

لا يخفى ان النفس هما كانت عليه من القناعة لا تزال تائقة الى اطايب الحياة ولذاها وزخارفها ومباهجها ، ولا تبرح طامحة الى العز والمجد نازعة الى الظهور يظهر الكبرياء ، والتزول في منازل العظام . ولذلك لا تفتأ تتقاضى الانسان ما يُفيدها بجميع أمانيتها ويُظفرها بكل احوالها . فاذا انقاد الى مطالبيها الفضولية ، واندفع الى قضاء رغائبها جرّت عليه الويل والحراب ، وعرضته لبلايا الاسراف التي تشد

عن الاحصاء حتى تتقوض مباني سعده ، وتُسَدَّ ابواب فرجه ، وتتداعى اسوار عزه وراحته . والاغنياء الجهال هم الذين يطلقون لنفوسهم الأعتة في ميدان الاهواء ، فلا يجسبون لدوائر الدهر حساباً . واما الحكماء المستبصرون فانهم يُقَيِّدُونها بسلاسل الاعتدال تحرُّزاً من التهور ، ويذهبون بها في مسالك الاقتصاد فراراً من اضرار التبذير .

وحسب الاقتصاد فضلاً أنه يدفع القم الافر من هموم الحياة ويخفف عن صاحبه اثقال المعيشة بحيث لا يخشى ضيقاً ، ولا يخاف أزمة . لانه يُعَلِّمه كيف يدخر الذخائر ويُعَدُّ المدد لوقت الشدة ، وكيف يُسَكِّ نفسه عن الانطلاق في ميدان التنعم والتأنق ، حتى اذا قصرها على الضروريات ، وردعها عن بذل الاموال في غير الحاجات ، كان بما من من العوز والفقير وتهدياً له ان يعيش عزيزاً سعيداً لا يتذلل للغني ولا يلتجئ الى لثيم .

كيف لا وان المقتصد لا يتعدى طاقته في المأكل والملبس ولا يبذد امواله على موائد المقامرة والمسكرات ، ولا يبذلها في الوجوه المحظورة ، ولا في طرق التفتن في المعاش ، ولا يتشبه في ملامه بمن كان اوسع منه حالاً ، واوفر مالاً واعلى مقاماً ، وانما يقف عند حده مقتصرأ من النفقات على ما تسمح به حاله بدون توسع وترثه . ولعل بعض الغافلين لا يبالون ببعض ذريهمات يصرفونها في غير ضرورة زعمأ منهم أنها لا تزيدهم غناء ولا بؤساً اذا حرصوا عليها او بذروها . فلو تأملوا في المجموع الذي تنتهي اليه ، وهو جدير بالالتفات والاعتبار ، لعلموا انهم على ضلال . بين . فكف من فقير افضى به الاقتصاد الى اعلى مراتب الثروة ، وكف من موسر غفل عن تقلبات الدهر وحدثانه فبدد باسرافه كل ما جمعه بعرق جبينه . وكف من متوسط الحال اعتدل في نفقات معاشه حتى اجتمع لديه من المال ما اعانه على تعليم بنيه في المدارس الكبرى ، حيث انصبوا على اقتساب المعارف والآداب والفنون الرائعة فبدروا بها وفاقوا اقرانهم الاغنياء ، وحرصوا فيما بعد مقاماً ادبياً رفيعاً ، وكانوا سبباً في إعلاء شأن اسرتهم ، والسمو بها الى ذروة النباهة . وقلب نظرك في صفحات التاريخ تر عدداً غير قليل ممن سمّت بهم معارفهم من حضيض الذل والشقاء ، الى صهوات

العز والسعد ، واغلبهم من المخترعين والمكتشفين والمصنّفين والمؤلفين الذين نبغوا في قومهم ونالوا شهرة عريضة ، وادّوا للانسانية خدماً جسيمة لا تزال هي لهذا العهد تستعج بجلائل منافعها . فلو ان اباهم ممن لا يقدرون قدر العلم لتوسّعوا في نفقاتهم الى حدّ أعجزهم عن إثارة اذهان بنبيهم بالمعارف حتى حرّموا البشرية ما جنته من ثمرات ذكائهم واجتهادهم .

فيا حبذا أن يقتدي بهم رجال بلادنا الذين هم على اوسط او ادنى حال ، فانهم وان عجزوا عن ادخال بنبيهم في المعاهد الكبرى لا يصعب عليهم مع الاعتدال في نفقاتهم ان يعلّموهم في المكاتب الصغرى ، حيث يتلقّون من العلوم ما يصدّ عنهم على الاقل مضار الجهالة . وكفى بذلك خيراً لهم ولبلادهم .

ان فن الاقتصاد مع عظم اهميته وكثرة فوائده نكاد لا نرى في هذه البلاد من يتمّ بامرّه ، او يحفل بالسلوك على منهاجه ، او يُعنى بمطالعة كتبه وتدريسها لاسرته حتى لقد يتفق ارباب المنازل اموالهم على غير روية وتقدير ، فلا يعلمون ماذا يصرفون ، وما ينبغي ان ينقصوا عنه الى ما هو اكثر مناسبةً لحالهم . فنحن ننصح لمثل هؤلاء ان يضعوا في جيبهم دفترًا يرقون فيه كل ما يصرفونه ، ويفردوا في المساء وقتاً من اوقات فراغهم يبحثون فيه عن الاشياء التي ابتاعوها حتى اذا كانوا في غنى عن بعضها تجبّوا شراؤه في المستقبل . وهكذا فلا يغرّ عليهم وقت وجيز حتى يعدلوا عن النفقات الفضولية الى الضرورية ويذخروا لهم من الاموال ما يتكفّل بعبطهم ورفاهية عيشهم مدى الحياة .

وافضل وسيلة الى تعديل النفقة الاشتراك في الشركات الاقتصادية ، فان اربابها سهّلوا مداخلها على جميع الطبقات حتى لا يُجرّم احد فوائدها . وقد وضعوا لها قوانين تضمن للمشاركين الثبات في خطّتهم المعتدلة . فقد فرضوا مثلاً على كل من يتأخر عن تادية ما عليه للشركة في حينه ان يدفع لها مبلغاً من المال قصاصاً له على تخلفه في الدفع ، فان المشتركين اذا لم يكرتوا على سعة اضطروا الى الاعراض عن النفقات الفضولية تحلّصاً من ذلك العقاب ، واذا كانوا من اصحاب الثروة كان الاشتراك امتن حاجز بينهم وبين الاسراف ، لأنهم لو لم يدفعوا للشركة المبلغ الذي عليهم لكانوا

بذروه بدون فائدة وذهب ضياعاً .

ولاجل زيادة الاحتياط والتحفظ ننصح للآباء كلما رزقوا ولداً ان يختصوه بسهم او اكثر من اسهم هذه الشركات ، فان المبلغ الذي يدفعونه عنه بدلاً من هذا السهم يكادون لا يشعرون به اذ يؤدونه اقساطاً ، فضلاً عن كونه من ثمرات اقتصادهم ، فلا يبلغ ولداهم سن الرشد حتى يجتمع له عند الشركة مبلغ كافٍ لتعليمه ، فيعلمونه بدون عناء وتقدير . اما اذا لم يتمسكوا بهذه الاسباب الاحتياطية فانهم يبذرون ما يفضل عن نفقات معيشتهم على غير طائسل ، حتى اذا كبر اولادهم قصرت يدهم عن تحمّل نفقات تعليمهم ، فيتركونهم في عداد الجهلاء . ويسحقونهم تحت انياب العسر والشقاء ، وهنا البلاء الاعظم والضرر الاكبر .

وغيرُ خافٍ ان في بلادنا عادات جمّة نتخطى بها حدود الاقتصاد كالمبالغ الباهظة التي نصرّفها في الاعراس على الولايم الانيقة والمرطبات والتبغ والشموع وانكحول على اختلاف انواعها ، والتي نبذلها على اطلاق الرصاص كلما عن لنا اطلاقه ، والتي نُثقفها على الرياض والانات وساتر مرفهات الحياة ، كالاقبال على شراء الفاكهة الجديدة باخش الاثمان ، والارتداء بالالبسة الحريرية الفاخرة ، ودفع اثوابنا العادية الى الخياطات ، وكاستخدام عدة غلمان او فتيات في منزلنا ، في حين ان حاجتنا لا تستلزم اكثر من خادم او اثنين اذا مدّت ربة البيت يدها الى بعض الاشغال ، ولكن اغلب السيدات حتى المتوسطات الحال يتقاعدن عن كل عمل تؤهمن ان ذلك يحط من قدرهن او يدل على بخلهن . ولذلك يعولن في جميع امورهن على الخدم والخاديات حتى يتفرغن هن للهحادثات والزيارات ، وربما استكفن من خدمة صغارهن وتدير ادارة منزلهن بل ربما قتلن الاوقات متلاهيات عن واجباتهن بما تمسك القلم عن التصريح به خجلاً وحياء . ولا يذهب عن البصائر ما يتجم من الاضرار الادبية والمادية عن تفويض الادارة والشؤون المنزلية الى اناس اجانب لا يُنتظر منهم ان يصرفوا العناية التي تصرفها الامهات نحو تهذيب بنين ، واحسان تدبير بيوتهن ، مهما كان مبلغهم من الاخلاص والنشاط والغيرة . زد على ذلك ان المزايا التي تستدعيها هذه المهمة تفوت في الغالب هذه الطبقة الجاهلة . وبهذا التدر كفاية لمن كان في قلبه حثان على بنيه

وحرص على سعادتهم .

وتعلم الأمهات انهن اخرج الى الاقتصاد من ازواجهن ، لأن عليهن مدار الادارة المزلية التي تستلزم من العناية والدراية والفتنة ما لا تجهله الوالدات الحكيمات . فليحترزن من التأني في الملابس ومجاورة حدودهن فيه حتى يشددن على بعوهن الحنّاق . وليعدلن عن الازياء التي تقتضي نفقات يعجز ازواجهن عن بذلها حتى يبرهن على ان العرق الذي يتصبّب من جبينهم في سبيل الارتاق هو مقدّس عندهن ، لا يحلّ اهراقه الا لمنفعة او حاجة بيتية لا غنى عنها . فاذا سلكن هذه الطريقة القوية صلحت احوالنا وذهبنا في ساحات الفلاح الى امد بعيد ، والا تبأنت بنا علة الاسراف وزادتنا شقاء على شقاء .

وأحرّ بالنساء الموسرات ان يكنّ في ذلك أسوة فعالة لمن دونهن حتى اذا اقلن عن هذه العادة السيئة اشتغلن بما فيه نفع لهن ولبلادهن ، وذلك على حد ما هو جارّه عند النساء الرقيقات اللواتي يمتهدن في تزيين نفوسهن قبل تزيين اجسادهن حتى اصبح لهن في الاندية المدنية اعطر ذكر واجلّ مقام ، وأتّين من الاعمال المبرورة ما جعلهن في مصاف الفضلاء والمحسنين على البشرية . وهن اليوم اكر عضد واقوى سند لذوي البرّس والعاهات ، يكسون العراة من صنع ايديهن ويُطعمن الحياح بما يقتصدنه من نفقاتهن ، ويُلطفن نواب المشكوبين بما يوقرن من الدراهم التي يقطن نفوسهن عن بذلها في غير ضرورياتهن .

واما الاقتصاد في سائر الامور المزلية فان الاختبار أهدي دليل الى طرائقه ، ولا سيما اذا وضعت رنة المنزل نصب عينها ان المال الذي تُفنيه سدى يمكنها لو حرصت عليه ان تؤسس به لبنيها مستقبلاً سعيداً . فلا تحترقن الحسارة الطفيفة التي تحصل لها من إيقاد عدة مصاييح ، على حين انها في حاجة الى اشعال مصباح واحد ، ولا تستخفن بفتات الخبز الذي يبدده صغارها على المائدة ولا بفضلات الطبخ التي تذهب بدون جدوى ، ولا تتهاونن بمرعاة قاعدة الاعتدال في اصناف المطاعم والاقتصاد في التأنيق فيها على قدر ما تتحكّمه الحال . فجميع ذلك وغيره من امثاله ، وان يكن من الامور الثانوية ، فاذا روعي فيه وجه الاقتصاد يُخفف حمل النفقات على قرينها ، بحيث يستطيع ان

يبدله في ما يكون أجدى لاسرته ، كأن يعلمَ بثاقه العلوم التي ترقى افكارهٗن او يضع اولاده في المدارس المشهورة بدلاً من المدارس الوسطى ، او يلقنهم الفنون الجميلة في احد المعاهد الاوربية كفن الهندسة ، او التصوير ، او الحقوق ، او الطب ، او الزراعة ، او غير ذلك مما يتوسع به دوائر سعدهم وفلاحهم .

فانهجوا ايها الآباء المناهج الاقتصادية في جميع احوال معاشكم تذاخروا لكم ما يُعينكم على نُوبِ الزمان وآفاته ويساعدكم على التحصن من جيوش الشقاوة ، والتدرع بما يقيكم سهام العوز والفقر ، وتفتحوا لبنيكم ابواب الغبطة واليسر ، وتقصوهم عن مهاوي التبذير الذي لا يُعقب الا الاسف ولا يورث غير الخسران والحمران . ومتى أُلِف جميع افراد الأمة عادة الاقتصاد ، وساروا على سبيله بعناية وتحفظ ، بلغوا ابعد مبالغ النجاح ، واستخرجوا لهم من معدنه اثن الكنوز . وكفى بالأمة الافرنسية المعدلة في نفقاتها اوضح بيّنة للاقتناع بمتافع هذا الفن ، فانها لم تصل الى اقصى حدود الثراء والسعة الا عن طريق الاعتدال في نفقاتها ، وهي الان من اغنى الشعوب واكثرها اقتصاداً وافرهما مالا .

الاسراف

ما من امرئٍ رزى نصيباً من الحكمة واختبر صروف الدهر وتقلباته، وجرب أخلاق الناس وعرف الصعوبات التي يعانيتها المرء في جمع الاموال ، إلا لزم جانب الاقتصاد في نفقاته ، فلا يصرف الأموال الا عند الضرورة او في الوجود المحموده ، خوفاً من ان تقصر يده عنها لدى مسيس الحاجة اليها ، فيبيت اذا نابته محنة على أسوأ حال ، ويصبح بين مطالب التواذب مستسلماً للجزع واليأس ، لا يصادف اذا استصرخ نصيراً ، ولا يرى اذا استنجد مجيراً ، اذ كان على حالة كان يمكنه لولا اسرافه ان يجيأ معها بهتاً ، ويعيش بأمن من كل شدة ، فأذنب الى نفسه ذنباً جسيماً لا يستأهل معه

الشفقة والاتفات ، وكان عليه ، لو كان من العقلاء ، ان يدخر له ذخراً يقيه بلايا
الزمان كما تفعل الحكما ، فتناقل عن ذلك اطاعةً لنفسه الميالة الى الملاهي ، فتجاوز
الحدود ، وخطي خطأ لا ينعف معه الندم ولا يُعقبه الا الحرمان . وأية حالة اتعس
من هذه الحالة ، أم أية مصيبة اعظم من ان يفتقر المرء الى غيره في سدّ ضرورياته
وقضاء حاجات معيشته ، بعد ان كان في غنى عن الاستعفاف وفي سعةٍ عن ذلّ الطلب
والسؤال . وأي عار اقبح من ان ينكب الرجل عياله ويُعرضهم للمهانة والفاقة
ويُقَلِّسهم على مواعد الشقاء . وأي شرّ اكبر من ان يحرم بنيه فوائد العلم ومنافع
التهذيب اشباعاً لشهوته ، واتباعاً لأهواء نفسه النهمة الطمّاعة ، فلا يرب انه لا يعرف
مقدار هذا الذنب الا من شعر بنتائج الجهل ، ودرى بعواقب سوء التربية ، وشاهد
العذاب الذي يقاسيه الهابطون من رابية الرخاء الى هدة البؤس والعوز ، ونظر الى
البلايا التي تتاب المسرفين وأُسرهم ، وابصر التلاقل والمهوم التي تلازم منازلهم
وتشغل افكارهم .

ومن المحال ان يكون المرء على حظّ من العقل والدين وهو يرضى لنفسه ان
تتلطّخ بهذه الحلّة الشنماء التي تهدّ اركان المجتمع وتزرع الضغائن وتُفسد الاخلاق
وتجعلها شرسة لا تُطاق ، وتحمل على ارتكاب الدنيايا والمنكرات ، وتُتعمد عن
الواجبات ، وتُفقد الراحة والسكينة ، وتُعدم كل لذة ، وتَحطّ من قدر صاحبها ،
وتكبله بقيود الذل ، وتجعل فواده اقسى من الصخر . أما العقل فانه يحظر على
الانسان ان ينزل الصرر بنفسه ويُلقيا في هاوية الفقر والعُدْم ويجعلها غرضاً للمذمة
والاستخفاف ، بل يأمره ان يحوطها كل الحياطة ويتندرّع بجميع الوسائل التي تصون
مقامه وتحفظ كرامته ، وتضمن راحته وتتي سمعته العظيمة ، وتتكفل لشيخوخته
بالرغد ونعومة البال . فاذا خالف حكم عقله كان ممن استعبدهم الهوى حتى بعثهم
على خنق نفوسهم ، واي ضلال اعظم من هذا الضلال ، بل أية عماية شرّ من هذه
العماية . واما الدين فانه ينهي المرء عن ان يُوقع الضرر بغيره ولا سيما اذا كان من
اسرته التي يتعمّم عليه الجدّ في انجاحها وتوفير دواعي سعادها . فاذا بدّد امواله يُسيء اليها
ويكدر صفاء عيشها ، ويُلبّ في فوادها نيران الاسى والأهف ، ويسدّ في وجهها

لبواب الفرج ، ويضيق دائرة آمالها ويكون مع الدهر عوناً عليها . وأية قساوة اشدّ من ان يعامل الرجل عياله هذه المعاملة العنيفة ، التي ينفر منها كل من في قلبه اثر للرأفة والحنان .

وما تكون منزلة هذا المسرف عند اهله اذا ابصروه يهدم اركان سعدهم ، ويحرق بالهموم قلوبهم ، ويرميهم الى ساحات التجارب والعذاب . وما يكون موقعه في صدورهم اذا تحمقوا انه ذئب خاطف يفتس ثروتهم ، وعدو مبغض ينجس عيشهم ويسجس افكارهم ، وكيف يمكنهم ان يعاشروه او يجادثوه وهو اخون لهم من الدهر واقسى عليهم فؤاداً من الوحش الضاري ، ام كيف يطيقون ان يخدموه ويمرضوه وقد عقل عنهم في آونة اليسر ، وجعلهم اهدافاً لاشد بلايا العسر ، وكيف يسعهم ان يؤاكلوه وهم كلما نظروا اليه انهملت من عيونهم العبرات ، واذا كلّموه تتابعت من صدورهم الزفرات ، واذا ذكروه ذموا اخلاقه السيئة وقبحوا افعاله الذميمة ، وربما خجلوا من ذكره ونفروا من صحته وتقرّزوا من روئيته ، وهل من مصير اسوأ من هذا المصير . ألا فامدد نظرك الى أسرة نشأت على مهد النعمة والدلال وحقت بمواكب الترف واليسار ، وكانت على اوفى نصيب من الثروة ، لا يلقى لها نال ولا يواثبها هم ولا يعلق بنفسها شجن ، تطوي ايامها بالانس والطرب ، وتبسم لها السعادة باسطة امامها احمل الآمال ، ويُجديتها المستقبل بأعزر موارد الهناء ، وأعذب مناهل السعة والنعاء ، ولها في العيون اسى منزلة وفي الصدور اعلى مرتبة . ثم سوأت النفس لربها او زعيمها ان يتطرف في نفقاته ويتمادى في تبذير امواله ، فكان يسرفها تارة في سبل اهوائه وطوراً على موائد المقامرة واحياناً في وجوه تتبرأ منها الحكمة ويأبأها الشرف ، حتى اصبح صفر اليدين فارغ الجيب ، يحف حولة بنوه الصغار وقدمصّهم الجوع واجهدتهم الناقة ، وايس لديه ما يدفع تضوّرهم . وهل من أسرة اتقس من أسرة هذا الوالد المسرف ، الذي نغص عيشه وعيش اهله بإسرافه الفاحش ، حتى ندم على اضاعه امواله في تلك الطرق الذميمة . وكيف تكون حاله اذا وجّه نظره الى مستقبلهم ورأى الدهر مكثراً لهم عن انيابه ، والشقاء فاتحاً موآته ليقذفهم فيها ، والذلّ ضارباً خيامه في منزلهم ، والدنيا مكفرة الجوّ في عيونهم . انما يتفتت فؤاده

لهفًا وأسفًا ويذوب صدره همًّا وغمًّا ، حتى يقضي بين الحشرات والتأوهات ، لاجياً يوماً زلت فيه قدمه من ذروة الاعتدال الى وهدة الاسراف ، ومن رابية العز الى وادي الهوان . فلو كان من المعتدين في نفاقته لما تورط هذا التورط وانتهى الى هذا المتقلب الرائع .

فليعتبر المسرفون اذا كانوا من اهل الاعتبار ، وليتعت جميع الآباء بتبعات التبذير ، والحكيم من يجعل نفقته على قدر طاقته ، ويذخر له ولبنيه ما يستعينون به على الثواب ، لتلا يصيبهم من فجاجع الاسراف ما يجعلهم اردع عبرة وازجر موعظة .



التقير

ما من شائبة ادل على الخرق وأجلب للهم وأدعى الى المذمة والمهانة كأن يُقير المرء على نفسه او على عياله ، فان التقير من خلال النفوس الوضيعة اللثيمة التي تأصل فيها البخل وسهل عليها مقاساة المشقات والضيقات ، حرصاً على المال الذي اتخذته الهاً معبوداً ، وكلفاً بالدنيا التي اعتبرتها داراً خالدة حتى تمسكت بها تمسكاً صدها عن التمتع بنجاتها بل كفتها عن سد حاجاتها . وطبيعي ان المرء انما يبذل مجهوده في حشد الاموال ليستعين بها على توفير دواعي سعده وهنائه وصد هيجات البؤس والشقاء عنه وعن عياله . فاذا كان عاقلاً لا يحرم نفسه مطالبيها العادلة ولا يمنعا ان تنفق في سبيل راحتها وتعزيرها كل ما يسمح به الشرع ويرخص فيه العقل مما تستلزمه الحال ويستوجبها المقام ، علماً منه ان الدنيا انما خلقت للانسان حتى يستثمرها ويستخدمها في مصالحه ومتافع ابنا جنسه . فاذا ضن على نفسه بما لا يُثبته في تلك الوجوه المحمودة فقد ظلمها ونجسها حقاً وحصرها في دائرة ضيقة لا ينال معها املاً ولا يدرك بغية ، فيقضي العمر في الشدائد واللوعات والقلاقل والهوم ويُعاني من لواذع الذم ومُخجلات الذل ما لا يتحمّله إلا الاتام الأذنياء النفوس . وما شبه

المقتر بمن كثر كذا ولم يدعه الحرص يس شيئاً مما فيه ، فيكون حكمه مع عدم الانتفاع به حكم المعدم البائس الذي يُقَلب نظره في نفائس الدنيا ومباهجها واطايبها ويده قاصرة عن تناولها والتشبع بها ، فيأسف على حرمانه اياها ، ويود لو لم يقع عليها بصره فيكون انعم بالاً واقنع حالاً . ولا ريب ان اصحاب البؤس هم اسعد حفظاً واعلى منزلةً وأسكن قلباً من المقترين الموسرين ، لخلو خزائنتهم من الاموال التي تستدعي شديد التعهد والرعاية حذراً من ان تقع عليها ايدي اللصوص ، زد على ذلك ان الناس ترق للبائيس وتنظر اليهم بلاحظة الحنان اذا رأته عليهم اثواباً رثة او أبصرتهم في شظف من العيش . وأما الاغنياء الذين سلكوا مسلك التقدير فان الابصار نطاق عليهم ، تستخف بهم كلما شاهدتهم في ملابس لا توافق مقامهم ، والعقلاء يزدرون بهم ويلومونهم كلما بلغهم شيء عن مجلهم .

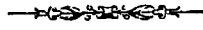
وقلما يكون الرجل على سلامة في عقله وصحة في دينه وهو ينخرط في سلك اشقاء النفوس الذين يؤذون نفوسهم حرصاً على الدينار ، ويتعرضون للمخاطر والعلل والعناء والعذاب ضئلاً بالدراهم ان يُنفقوها في الطرق التي تريحهم وتُسعدهم . فاذا دهمهم داء تلمسوا على فراش الأوجاع ، ولم تجد نفوسهم الشحيحة ببعض دراهم لشراء عقاقير او استدعاء طبيب يُعينهم على الشفاء ، فيذهبون فريسة التقدير ويُخلفون اموالهم لمن بعدهم غنيسة باردة . واذا سمعوا بنبيهم يُعولون من الجوع والفاقة سدوا آذانهم قسوةً واغضوا عيونهم فظالةً ، واذا طلبوا منهم شيئاً من الملابس تجلوا به عليهم ولا يبالبون بما يلحقهم من الخزي والعار ، ولا يحتفلون بما يسمعون من عبارات التنديد والاطعن ، ولا بما يصيرون اليه من غضاضة القدر . واذا كانوا يشخون على بنبيهم بما يُسك رمقهم ويستعراهم أفسخون بالنفقات الطائلة على تعليمهم . وما يكون نصيب هؤلاء الاولاد من الشقاء بعد ان يُجرموا الجالس الى موائد العلم والتهديب ، وما تكون منزلة والدهم عندهم ، بعد اذ رأوا منه هذا التقدير وتلك القسوة ، وما عساها ان تكون معاملتهم له اذا وقع يوماً في بلية او ساورته محنة ، وما يكون مبلغ أسفهم اذا شبوا على العباوة وقابلوا نفوسهم العمياء بنفوس ابناء وطنهم البصيرة . ومما يؤيده الاختبار ان الاولاد اذا ضيق عليهم آباؤهم وهم صغار يصبحون من اكبر

المبذرين عندما يستولون على اموال آبايهم ، فلا يلبثون ان يبذروا ما ورثوه بدون اكترات ، حتى اذا فرغت ايديهم منه لعنوا والديهم الذين قترّوا عليهم في حياتهم تقتيراً حَسَبَ اليهم بعد وفاتهم التبذير والاسراف . واذا كان المقترون ينتهون الى هذا الحد من التضيق على أسرهم واقاربهم ، فهل يُرجى منهم للاجانب نفع ، وهل يرمّل منهم ان يعملوا شيئاً مفيداً لبلادهم وللمجتمع . ومتى تعرّى المرء من اهله ولم ينفع ابناء وطنه نبذوه من مجالسهم وسلقوه بقوارص اسانهم ، حتى يعيش وحيداً ذليلاً مهانئاً ، لا نصير له في التواب ولا ظهير في الكوارث . وهذا هو الموت الاحمر والشقاء بعينه .

على أن التقتير لا تقف بلاياه عند هذا الأمد ، بل تتخطأ الى أمدٍ ابعد خيراً للانسان ان يُدفن في الرمس من ان ينتهي اليه . ولا بأس من ان توسع دائرة الموضوع توسيعاً ربما حصل عنه ما زجوه من الفوائد لمن ابتلوا بهذه الشائبة الشّواه . ألا فليعلم الآباء أنهم بتقتيرهم على بنينهم يجعلونهم لصوصاً ، وبتضييقهم على نسايتهم يجعلونهم على التبدّل والتهتك والتهور والاستهتار ، حتى يُصبحن من العواهر السواقط . وأية جريمة افظع من ان يُلجى المرء اهله الى اللصوصية والفجور لشجّه عليهم ومُعاسرتِهِ لهم ، ولو كان هذا النبيّ الاحق قد راعى جانب الحكمة وسار على نهج الاقتصاد في نفقاته على عياله ، لكفى نفسه مؤونة العار ، ووقى عائلته تلك الغوائل الجسيمة التي هي اعظم من ان يصبر عليها كل من فيه بقية من الإباء والشرف ، وذرة من العقل والإحساس . أو ما كان الأولى بهذا الوالد اللئيم الأحمق ان يصون عرضه وسعة أسرته ببعض ذريهات يُنفقها عليها حتى لا يضطرّها الى التلصص وخلع العذار . أو ما كان الاصلح لذلك الغنيّ الشحيح ان يتمتّع هو واهله بما اذخره من الاموال ، بدلاً من ان يجلسهم ويجلس نفسه في حياته عنه ، حتى يرثوه بعد وفاته ويُبذروه بدون مبالاة . ثم هم لا يترحمون عليه ولا يذكرونه بخير ، وربما فرحوا بمماته وشتموا به واغرقوا في ذمه كما كانوا في حياته يتعجّون عليه بخله وينتظرون الساعة التي يرحل فيها عنهم .

ان التقتير لمن اشع الخلال ، يُنزل بالمرء ما لا يُحصى من المضار ، ويغلّ يده ،

ويمنع نفسه عن الانتفاع بما يملكه ، ويُفقد الراحة والسكينة ، ويذهب بجلاوة عيشه ويحطُّ من قدره ، ويولد في صدره الخوف ويقطع عنه كل موارد الانس والبهجة . وما هو إلا سليل الجهل والنظم والتساوة واللوم . ومن ثمراته العار والفضيحة والعذاب والذلّ وإهانة الذكر . فتنصح لكل من كان موصوماً به ان يقلعه من نفسه ، حرصاً على حياته ان تفتك بها جيوش الرزايا والمكاره ، وإشفاقاً على اهله ان يُقاسوا من اصناف العذاب ما لا يتَّسع معه مجال الصبر . والمائل من وقف عند النصيحة وأتَّعظ بالعبء .



المدنية العصرية

كل من فيه بقية من النيرة الوطنية لا يتالك عن ان يقف وقفة الآسف المتلطف ازاء الانقلاب العظيم الذي طرأ على العادات والأخلاق في هذه الربوع التي قدستها اقدام الأنبياء ، حتى لو نشر الله من طوتهم الرموس من اجدادنا الآباة الافاضل ، وعانينا ما اصبحنا عليه من الزيفان عن المرشد والانحراف عن الصراط القويم ، وما صرنا اليه من الإمعان في الأضاليل ، والإيغال في مجاهل التهتك والاستهتار ، لتتسقا الضعاء وأنوا انين الشكالى وتفتججوا تفتجج الأيامى ، وآثروا ان يعودوا الى ظلمات اجداتهم على ان يمجوا بين اعقاب نصبوا للمال انصاباً يعبدونها وجعلوا للشهوات اصناماً يسجدون لها ، واعرضوا عن مبدعهم الأزلي وتجنَّدوا للخناس الرجيم يتلقون عنه الوسوس والترهات والمبادئ السافلة ، ويروجون سلعة الخلابة بين قوم عرفوا بنفوسهم السليمة وسرازم الثقية .

فاين نحن من اولئك الآباء الانقياء الحكماء الذين عاشوا في حمى العفة اوضح من زنابق الحقل عرفاً . وبعد أن ارجوا الآفاق برياً فضائلهم الفواحة وانفاس احاديثهم الذكية ماتوا على فراش النزاهة تندیهم الأنفة وترثيهم الحمية ، وخلفوا

من التذكارات الشميئة والآثار الرائعة ما ينطق بفضلهم إبداء الدهر ، وبقي أخلافهم من بعدهم يتباهون بالتمسك العصري الذي نسجت ثوبه البراق يدُ الخالعة والضلالة حتى صار يخلب العيون بسحته اللماعة وطلانه الحدّاع ، ولكنه يُذيب القلوب ويُدمي الابصار بما ينطوي عليه من المخابث والحباث ، وما يجرّه وراءه من اذيال العار وما يورث صاحبه من الأذى والخسار . وإننا لنعجب للشيبة كيف تنهافت على رداءه يروق مظهرأ ويسوء مخبرأ مؤثرة إياه على ثوب الآباء القديم ذلك الثوب الذي سديته الحشمة ، ولحمته العفاف ، وحاشيته الأنفة والمروءة .

أجل كنا فيما سلف ، قبل دخول المدنية المصرية الى بلادنا ، نرى الآداب الصحيحة متجلية في اخلاقنا وعاداتنا وبادية في احاديثنا وهيأتنا ، وساطعة من نظراتنا وحرركاتنا ومتلألئة في ملابسنا وازيائنا ومتألقة في مجالسنا وحفلاتنا ، بحيث كانت الأرجاء تتأرجح من رياء رصانتنا ، والاقطار تتضوع بشذا رزانتنا ، والعيون ترمقنا بالتكريم ، والألسنة تتحدث عنا بالاعجاب والتعظيم ، ناقلة عنا اجمل المآثورات واشرف التذكارات . وكان لنا في القلوب ارفع المنازل واكرم المراتب ، لما كنا عليه من عفة اللسان ، وتزاهة الطوية ، وسمو القصد ، وعزة النفس ، والترفع عن الدنيا ، واباءة الضيم ، والصدق في المعاملة ، الى غير ذلك من الخلق الرائعة ، والحصال الباهرة التي كانت تُلزم في الغالب الأكواخ وتطوف حول الحقول ، وتنزل في النفوس الساذجة وتستقر في صدور القرويين ، حيث تجدها تربة مخضبة ومغرساً صالحاً للنشو والنماء ، لخلوها من اشواك الفساد والطمع والاحتيال . فلما اشرفت في سائنا شمس التمدن الحديث أفلت تلك الصفات الزاهية الزاهرة ، وخبّت نجومها من الالباب حتى انقلبتنا شر منقلب وصار بعضنا الى اسوأ مصير ، فاصبحت ديارنا محطاً للملئق والزنا والحب ، ومعنداً للمصانعة الخداعة والمجاملة الخالابة وشركا للإغواء ، واحبولة لإفساد الاخلاق والإغراء ، بل لجة تضيع فيها جواهر شرفنا وكنوز أنفتنا ، ومهواة تذهب في اغوارها ينييع ثروتنا ، بل صخرة تصدم تقدمنا وتسحق حريتنا ، وعاصفة تقلع اصول ادابنا ، وفاسا تقطع عروق ديانتنا واستقامتنا ، ووناق يقيد اقدمنا وايدينا ، وحاكم غشوم يستعبد خواطرننا ويعبث براحتنا ، ويقلق ضمائرنا

ويسيطر على قلوبنا برحانا .

فإن تلك النِظَر السليمة والطباع الكريمة والنفوس الأبية والافئدة القويمة الرشيدة ، وابن اولئك الشيوخ اصحاب الخبرة والحكمة والثخوة الذين كان يزين محافلهم الوقاد ويجري على سنتهم الصدق ، وتتسَلَّل في حديثهم الغيرة وتقرن أعمالهم بالضبط والإحكام ، وتسير امامهم المهابة ايناساروا كأنها تيار يصدُّ الشبان الجبال عن ارتكاب المعاصي واجتراح المخازي . وابن اولئك الحكماء الذين كانوا يُحْتَلون بالمجتمعات بمعادناتهم الادبية ونصائحهم الناجمة ويُعْطَرُونَ الأندية بفتحات شمائلهم ، ويُجَيِّون في قلوب الاحداث عواطف الحمية والبسالة والشمم ، بما يَقْضُونَهُ عليهم من الروايات الحاسية والأبناء المنشطة التي ترقى اذهانهم وتولد فيهم ميلاً الى المعالي والعز وشوقاً الى التحلي بالكمالات البشرية .

وابن اولئك الأطبَاء الاجتماعيون الذين كانوا يُعَالجون العلل الادبية المتفشية في الوطن ليجعلوه سليم البناء ، نقياً من جراثيم الخلاعة والفساد ، مُزَهَّهاً عن مناقع اللامة والدناءة ، بعيداً عن مَهَاوي الكفر مُترَفِعاً عن مهابط الذل . وابن تلك الوردات الصانفات السليقة الزاهيات الخلال ، اللواتي لم يكن لهن شغلٌ عن تربية بنينهن وإدارة منازلهن وإتقان اعمالهن ، وكنن اذا فرغن من الاشغال البيتية يمددن الى الحياكة او الخياطة او التطريز ، وما اشبهها من الامور النافعة التي تُفصِّهن عن الملاهي والوساوس وهواجس السوء ، وهن مع ذلك ساهرات على اولادهن يُراقبن حركات بناتهن مراقبةً تضمن لهن التصوُّن والتحرُّز من سموم الأهواء والوقوع في مكاييد الخالعين لعذار الحياء . وأين تلك الأوانس العفيفات ذوات الحدر والحجاب ، اللواتي كان يُضْرَب بتحصنهن المثل ، وكان العفاف متجسماً فيهن ومتميّلاً في لحظاتهم ، فقد اصبح بعضهن اليوم مضغّة في افواه الاوغاد وقنينة في اشراك السفلة . ولا ريب ان الذي ذهب بجاه وجوهن وجرهن للتهنك والاستهتار انما هو التفريط في تأديبهن وارخاء العنان لهن في الاختلاط بعشراء السوء ، ومطالعة الروايات الغرامية ، وتهادي احاديث الصباية ، ورسائل الشوق والولاء ، وحضور المراقص والمتزّهات والمشاهد المفسدة للآداب المشوهة للأخلاق حتى هوين في اعرق وهدة من العار

والشقاء . فلو لبثَ وراءَ الحجاب ، لاعلى المشارف والمنافذ ، لبقينَ على قدرهنَّ كاللآلى . اليتيمة في اصدافها وخفْنَنَ عن البلاد تلك الأوقار الفادحة التي أنقلت عاتقها خزيًا وملأت آفاقها هوانًا .

كان اجدادنا اذا عادوا من الحقول الى منازلهم مساء لا يُجدثون بنبيهم الا الأحاديث التي تُنمي فيهم روح الحماسة والورع والبروة والإباء ، فاذا تناولوا وإيأهم طعام العشاء أحيوا سهراتهم في المذاكرات المفيدة والمسامرات المهذبة للنفس المقومة للطبع ، وختموا نهارهم بما يُبيض وجه ليلهم . اما اليوم فان شباننا المتحصّرين يطرون ليلهم في المطارحات الهيامية ، والمناسبات الغزلية ، والمباحثات المجونية ، وربما قضاها بين تزييق أعراض وتلويث سمعات ، ومعاقرة بنت الحان ، وسماع غناء القيان ، او في دُور التمثيل الخلاعي حيث تُعرض الأشباح القَدِّعة والصور البذينة التي تُفسد الآداب ، وتُحدِّر الضمائر وتُتيج الخواطر وتُثير الالهواء ، وتُختق الغفاب وتُذوي الحياء ، فاذا تهور الليل عادوا الى منازلهم وناموا على أسرتهم الوثيرة بعيون قورية ، كأنهم لم يأتوا امراً إذا يُقلق البال ، ولم يجترحوا منكراً يجرُّ وراءه الأهوال .

كان الشاب في ذلك العهد اذا تردّد في امثال اوامر والديه يشعر في باطنه كأنه ارتكب احدى الفظائع ، فلا يلبث ان يعود اليهما ويتراعى على اقدامهما يستغفرهما ذنبه . امّا اليوم فانه يعفهما على غير مبالاة ويزدري بهما بكل جسارة ، وربما أهانها واغلظ معاملتهما وحدثته القحة التي ليس بعدها حقة الى ان يضرهما في شيخوختهما ، غيرَ حذرٍ من سخطهما الذي يُنزل عليه لعنات السماء ويجرمه بركات الارض .

كان العامل في تلك الايام الميمونة ينصح العمل ويُخلص الخدمة ، ناهضاً بما عليه من الواجبات بكل امانة ونشاط ، غيرَ مضجعٍ شيئاً من اوقات شغله المقدّسة لاعتقاده ان هذه الاوقات ليست له بل لمولاه الذي استخدمه على ان يستقلّ بشمرات عمله في جمالة يؤديها له . وكان اذا قصر في الخدمة اقلّ تقصير ، او اضاع شطراً من وقته سدى ، او لم يُحْكَمْ عمله ولم يثان فيه حتى يُحتلّ ، يلذعه ضميرهُ بمنخسه الحادّ ميكتاً اياه على اخذه مالا حراماً لاحق له فيه ، وحينئذٍ يُضطرّ إما ان يردّ لمولاه

المال كأنه مسلوبٌ أو معصوبٌ ، أو يعوّضه منه بمضاعفة عمله والجدّ فيه والمضام عليه . واما اليوم فإن العمّلة يُصرفون الجانب الأعظم من ساعات عملهم ولا يكتثرون ، وربما تعلّموا ان مواليتهم هم من اليسر بحيث لا يُؤثّر فيهم مثل هذه الحسارة الطفيفة ، أو أنهم لا يدفعون لهم اجرة توازي عناءهم وتعادل مهارتهم ، وقد فات هؤلاء العمّلة أنهم يقبولهم هذه الاجرة طوعاً على غير اكراه تعيّن عليهم أن يُحضوا العمل ويُحسنوه كأنهم يعملون لأنفسهم .

كانت النساء في ذلك العهد المبارك يلزم من جانب الاحتشام في ملابسنهنّ وازيائهنّ واحاديثهنّ ، اعتباراً أن المرأة يحمل بها أينما كانت أن تنشر اريج الطهر والاباء ، وتتفتّح بقناع الحياء حتى يكون لها حرمة في القلوب . وكُنّ اذا اخلن أقلّ إخلال بالحشمة سواء كان في ازيائهنّ أو في حركاتهنّ أو في حديثهنّ ينجبن أيّ خجل ويمتدّرن نفوسهنّ كأنهنّ جنين أكبر جنابة . اما اليوم فلم يبق في الكسبي والأزياء اقل فرق بين العقائل المثريات والنساء الفقيرات البطرات ، وبين السيدات الشريفات والخدمات الخفيفات الطائشات ، بل ربّما رأيت التصوّن بأبهى مظاهره بين النبيلات الصميات ، والتهتك بأقبح هياته بين الوضعيات اللثيمات .

كان الآباء من قبل لا يفسحون لبنيتهم في مطالعة ما فيه اقلّ خطر على آدابهم واخلاقهم من الكتب الآسنة والروايات الجبيشة العفنة ، وكانوا يحظرون عليهم أن تطأ اقدامهم ساحات الملاهي والمجتمعات المضرة ، وأن يحضروا المناظر التي تسمّ دهمهم وتختق الفضيلة في صدورهم ، وكانوا يمنعونهم من ملابسة قرناء السوء حتى يقوم المعائر . واما اليوم فإن الفتيات والأوانس يصرفون اوقات الفراغ في تصفّح الروايات المضلّة والأفسار الوبيثة ، ويشهدون المحافل الخلاعية ، وآبأولهم متعاضون عنهم حتى كأنهم مرتاحون الى ما يعملون راضون عما يقرأون . وخلاصة الكلام أن الروح قد انقلب في هذا العصر عصر المفاسد ، ولا تزال الضمائر مع ذلك مطمئنة ايّ اطمئنان ازاء تلك النظائع التي تقشعرّ منها الابدان ، فيا للمصير الهائل والمنقلب المخيف . . . على اننا كيفنا قلبنا الأبصار في هياتنا الاجتماعية ومدنيّتنا العصرية ، يبدو لنا من تحت ظواهرها الغرارة كثيرٌ من الشوائب والمفاسد ، بما لم يكن له اثر في وطننا

على عهد اجدادنا الحكماء الأعماء . وكنا نودّ لو نبتي على خشونة جاهليتنا ولا نفقد شيئاً من كنوزنا الادبية ، ومحاسننا الفطرية ، واخلاتنا الحميدة ، وعاداتنا السديده ، لأنه أي نفع لنا من مدنية يعجبنا رواؤها الكذاب وغشاؤها الخلاب ، ويُشجينا بُباها المرّ وقلبا المدخول ، وأية فائدة جئناها من مُلابستنا لمن لابستناهم من سفلة الأعاجم معرضين عن كرامهم ، وكثير ما هم ، أو يقوى احدنا ، مهما بلغ من ذلاقة اللسان وقوة البرهان ، أن يُقنعنا بان اجدادنا لم يكونوا مع جهلهم المُطبق ، اسعد منا حالاً واحسن مآلاً واهناً عيشاً وارفع مقاماً . فلا كانت مدنية ، التهتك من ثراتها المرّة ، والتطرف من نتائجها الوخيمة ، ولا كان علم يُجيب الينا الرذيلة ويُنقِرنا من الفضيلة ، ولا كان مال يُعرضنا لأجسم الاخطار ويُلبسنا ثوب الهوان وَيَسِمنا عيسم العار .

ان المدينة العصرية برونقها القَتان لأشبه شيء بجثة ننته عليها كفن قشيب انيق ، فاذا كسفته عنها غضضت طرفك وزويت صدرك وسددت انفك ، وادبرت عنها هرباً من خُبث رائحتها وسماجة هيئتها . ولا اخالك تعود اليها بعد أن ترَكْت في فؤادك هذه التأثيرات المنقورة . وكأني بالعقلاء الذين احكمتهم التجارب حتى عرفوا من الأيام طوها ومرّها ، ينظرون الى مدنيّتنا الخداعة كما ينظرون الى المقاذر والمنازق ، ويتأسفون أشدّ التأسف على ما فقدناه من تلك الكنوز الثمينة التي كانت لأبائنا اعظم ثروة ، بها يُغالون ويُطاولون حتى الأمم العريقة في الحضارة المستبحرة في المعارف المتبسطة في الفنون والاختراعات ، ولم نعرف نحن قيمتها ولذلك اعتضنا عنها مدنية مُبرقشة اغترت ابصارنا ببريقها الغرّار ، فهربناها كما يهوى الشاب الغرّ الفتاة المشوهة الموهمة . ومع ذلك فلم نشعر بعدُ بما أنزلت على بلادنا من الصواعق القاتلة ، وما جرّته علينا من المِحن الهائلة والنجائع القاسية ، ولم نُفِق من سكرتنا التي كانت ولا تزال تلعب بعقولنا السريعة الانخداع ، ولم ننتبه لآفاتنا الجسيمة ومعيباتها الوخيمة حتى كأنّ على بصائرنا وابصارنا من التورور غشاوات فوق غشاوات . وكيف يُبصر المكافيف النور أم كيف يرى الغواة العُماة فجر الحقائق الوضّاح

ومن مضارّ هذه المدينة الغرّارة أنّها ، فضلاً عن استئصالها من صدور شبّاننا

العفة وذهاها بجيا عائلنا وفتياتنا ، لم تُبق في قلوبنا هيبةً للشيخ ، ولا احتراماً للآباء ، ولا مكانةً للروساء ، ولا كرامةً لأصحاب الفضل . وتغلب على طباعنا الفساد وسرى الى نيّاتنا سوء الظنون ، ودبت في سرائرنا المخابث ونارت في ضلوعنا الأضغان ، ورخصت في عيوننا الارواح وكثرت حوادث الانتحار ، وظهرت علام المدمار وأندرتنا الدهر بالفوائل الموبقات والكوارث المجهفات ، حتى امسينا على سفير النعس والبوار ، نُغذّي نفوسنا بالمكر وعقولنا بالغوايات ودخاننا بالمفاسد وضائرنا بالمطامع ، ونُطعم ألسنتنا العنث والبهتان ، فتدس السموم وتنثف الاراحيف وتغذف المطاعن وتضرم نيران الفتى ، وتولد الحزازات والمشاحنات والمنازعات . فتفاقت الشرور ، وتضاعفت الجنايات ، وضاعت الثقة ، واضطرب الأمن ، وانفصمت عرى الوثام ، وذبشت الثورات : وأيُّ فؤاد لا يتفتت كمدأ ولا يذوب لهفاً على هذا المآل الوبيل والانحطاط المخجل والتأخر المذآل . وأيُّ امرئٍ فيه مسكةٌ من العقل لا يقبح علينا هذه المعاييب التي أشربتها نفوسنا بعد مُخالطتنا لمن مال عن سواء السبيل من أولئك القوم الضلال ، الذين لا تجارة لهم في الدنيا سوى نشر المبادئ الساقطة وترويج سلع الاهواء طمعاً بالمال الذي يستحلون معه كل المخازي ، ويستصغرون افضح المنكرات وأهول المعاصي . وكان علينا ، لو كنا من المستبصرين ، ان ندع ماعتهم من الشوائب ونأخذ عنهم محاسنهم العديدة وحلامهم الجميلة ، ونفضه الى ما لدينا من المناقب الفريدة التي ورثناها عن اجدادنا الحكماء . فلو فطنا لألقنا من المدنيّة الغربية النقيّة مدنية شرقية لا عُبار عليها ولا مغزٍ فيها ، وكنا من ابعده الأهم مدنى في الكمالات البشرية ، وأرسخها قدماً في الآداب النادرة والفضائل الباهرة ، واشرفها اخلاقاً وأسامها مبادئ وسلائق ، واطببها سراير وأسلمها ضائر ، وأكلفها بالمعالي واحرصها على نباهة الذكر ورفعة القدر . ولكننا ضللنا في التشبه والاقتداء فكان ضلالتنا وبالاً علينا وعلى ذرارينا من بعدنا .

ولا يسعنا ان نقف عند هذا الحد من الإجمال في هذا الموضوع الشاسع المجال . وإلا أخللنا بأقدس الفروض ، وقصرنا تقصيراً يربأ بنا عنه ما نكثه من الاخلاص لأمتنا العزيزة والحرص على حسن سمعتها . ومتى سردنا للقراء ما عند أولئك الاعاجم

مَنْ حَسَنَاتٍ أَعْرَضْنَا عَنْهَا وَسَيِّئَاتٍ أَقْبَلْنَا عَلَيْهَا ، ثُمَّ بَسَطْنَا لَهُمْ مَا دَفَنَّا مِنْ مَحَاسِنِهَا وَأَبْقَيْنَاهُ مِنْ مَسَاوِينِهَا ، ظَهَرَ خَطَاؤُنَا وَشَعَرْنَا بِغُرُورِنَا وَاسْفَنَّا عَلَى سُوءِ اخْتِيَارِنَا حَتَّى تَقَسَّى فِينَا مِنَ الْأَدْوَاءِ وَالْآفَاتِ مَا يُعْجِزُ أَمْرَ الْأَطِبَّاءِ . وَيُعْيِي أَحْكَمَ الْحُكَمَاءِ .

أَمَّا مَحَاسِنُهُمُ الَّتِي يُغَيِّطُونَ عَلَيْهَا فَأَهْمُهَا مَا وَرَدَ فِي مَقَالَتِنَا الَّتِي عَنَوْنَاهُ « أَرْكَانُ النِّجَاحِ » فَهَنَّاكَ يُدَقِّقُونَ فِي مَا يَعْمَلُونَ وَفِي مَا يَقُولُونَ تَدْقِيقًا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ لِمُسْتَرِيدٍ ، وَيَتَرَوْنَ فِيهِ وَيَتَأْتُونَ حَتَّى يَأْتِيَ آيَةٌ فِي الْأَحْكَامِ وَالْإِيدَاعِ . وَهَمَّ حِرَاصُ أَشَدِّ الْحِرَاصِ عَلَى وَقْتِهِمُ الشَّيْنِ فَلَا يُضَيِّعُونَ مِنْهُ دَقِيقَةً وَاحِدَةً . وَيَعْرِفُونَ كَيْفَ يُرَوِّجُونَ ثَمَرَهُمُ الْعَقْلِيَّةَ وَالْأَدَبِيَّةَ كَمَا يُرَوِّجُونَ غِلَاظَهُمُ الطَّبِيعِيَّةَ وَمَصْنُوعَاتِهِمُ الْيَدَوِيَّةَ . وَلَهُمْ عَلَى شَرَفِ أَوْطَانِهِمْ غَيْرَةُ لَا تُتْجَارَى وَحِمِيَّةٌ لَا تُبَارَى ، حَتَّى لَقَدْ يَهْرَقُونَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنْهَا وَلَا يَبَالُونَ ، وَيَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ فِي جَنْبِ تَعَزُّزِهَا وَإِعْلَاءِ شَأْنِهَا وَلَا يَشْفَقُونَ . وَمَهْمَا تَنَازَعُوا وَتَشَاحَنُوا وَتَحَزَّبُوا وَتَقَرَّبُوا فَانْتَهَبُوا يَكُونُونَ عَلَى الْعُدُوِّ حَزْمَةً وَاحِدَةً إِذَا اتَّزَلَّ بِيَلَادِهِمْ شَرٌّ أَوْ مَسٌّ ذِيلَ شَرَفِهَا ، أَوْ عَرَضٌ بِهَا أَوْ تَحَامُلٌ عَلَى أَحَدِ عَظَمَائِهَا ، الَّذِينَ طَوَّتَهُمُ الرَّمُوسُ وَلَوْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ أَحْزَابِهِمْ . وَيَتَنَافَسُونَ فِي الْمَعَالِي وَالْمَفَاخِرِ ، وَيَتَسَابَقُونَ فِي كُلِّ مَضَارٍ ، وَلَا تُؤَثِّرُ عِنْدَهُمْ لِلْحَسَدِ بَلِ يَسَارِي أَحَدَهُمْ زَمِيلُهُ فِي إِتْقَانِ مِهْنَتِهِ ، وَبِهَذِهِ الْمَنَافَسَاتِ يُفْلِحُونَ . كَذَا فَلْتَكُنِ الْوَطَنِيَّةُ وَكَذَا فَلْتَكُنِ الشُّعُوبُ . .

وَمِنْ مَزَايِمِهِمُ الْفَرِيدَةِ أَنَّهُمْ يَرَاعُونَ فِي نَفَقَاتِهِمُ الْاِقْتِصَادَ الْمَبْنِيَّ عَلَى الْحِكْمَةِ وَحَسْنَ الْإِدَارَةِ ، وَالْمُتَدَّءَ عَنِ الْبُخْلِ الذَّمِيمِ وَالتَّقْتِيرِ الْمُضِرِّ . أَلَّا أَنَّهُمْ يَبْذُلُونَ الْأَمْوَالَ بِكُلِّ سَعْيٍ وَأَرْيَحِيَّةٍ فِي وَجْهِ الْبِرِّ وَطُرُقِ الْإِصْلَاحِ . وَمَا أَبْرَعَهُمْ فِي مَنَاصِرَةِ الْمَشَارِيعِ الْحَيْرِيَّةِ وَتَعَزُّزِ هَيَأَتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . تَرَى السِّدَاتِ هُنَاكَ حَتَّى الْمَوْسِرَاتِ يَقْضِينَ أَوْقَاتَ فَرَغَتِهِنَّ فِي خِيَاطَةِ مَلَابِسِ الْفُقَرَاءِ الْعَجِزَةِ وَذَوِي الْعَاهَاتِ ، يَتَبَرَّعْنَ بِهَا عَلَيْهِمْ بِطَرِيقَةٍ سَرِيَّةٍ لَا يَشْعُرُ بِهَا إِلَّا الَّذِينَ يَهْتَمُونَ بِشَوْئِهِمْ وَيَقُومُونَ بِعَاشِهِمْ . وَكَأَنَّ الْمَلَاجِيَّ وَالْمَيَاتِمَ وَالْمُسْتَشْفِيَّاتِ وَالْمُسْتَوْصَفَاتِ وَالْمُصْحَفَاتِ يُنْفِقُ عَلَيْهَا ذَوُو الْمَهْرَاتِ وَالْإِرْيَاحِيَّاتِ مِنْ فَضَلَاتِ مَا يَقْتَصِدُونَهُ ، فَيَكْفُونَ حُكُومَاتِهِمْ مَوْزُونَ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا وَيَحْفَقُونَ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ الْمُعْسِرَةِ وَطَأَةَ الْبَلَاءِ وَعَبَاءِ الشَّقَاءِ .

ولهم حنكة غريبة في تأليف الشركات وترغيب قومهم على اختلاف طبقاتهم في شراء أسهمها . واكثرُ رساميلها من اموال العُمال الذين يذخرون كل يوم من جعائلهم مبلغاً زهيداً يضعونه في المصارف الاقتصادية بفائدة طفيفه ، فلا تمر عليهم سنوات حتى يربو ما لهم ويصبحون في يسر وسعة . والأمة الفرنسية هي في طبيعة الامم ثروة وقوياً من حيث مجموعها لا آحادها ، والفضل في هذه الثروة للاقتصاد والحكمة في توفير المال وإغائه بالمشآت الكبيرة التي يُقدمون عليها بكل جرأة وثقة وطمانينة . وكثيراً ما ينتقل سهم الشركات عندهم بوجه الإرث من جيل الى جيل ، وما ذلك الا لرسوخ ثقتهم ببعضهم بعض . .

ومن مناقبهم الجديرة بالتأسي والاقتداء أنهم يسهرون على مصالحهم اشدّ السهر ، فيراقبون ادارات شؤونهم بكل اهتمام حتى لا يقع فيها ادنى اختلال ، ويتصقحون اعمالهم ويُدقّقون فيها ابلغ تدقيق تقادياً من السهر والحظو . ولترتيب عندهم المقام الأول ، بحيث لا ترى اقل ارتباك او بلبلة في جميع أمورهم ، ولك أن تتحقّق ذلك من الخطط الهندسية التي تشاهدها في مُدنها وشوارعهم ومعابدهم وطرقهم ، حتى لقد يهدمون الوفاً من المنازل بدون أدنى شفقة مراعاة للفنّ الهندسي واحتفاظاً بالنظام .

وأما ذوقهم السليم في محاضرهم ومجتمعاتهم وأحاديثهم وحركاتهم فهو اكبر من أن يوصف . والفرنسيس هم من أشهر الشعوب في الكياسة والاناقة والمرونة والسلاسة والملاطفة والمجاملة ، ولذلك لا يطيب للملوك الاموال ، في العالمين القديم والحديث ، ألا ان يقضوا كل سنة شهراً او شهرين في باريس عروس الدنيا الثمّانة بل مرآة الثبّة الزرقاء على هذه الخضراء ، ومجتمع المحاسن الطبيعية والفنية والادبية واليدوية .

ومن مزاياهم الخطيرة التي عُرست في نفوسهم ، بعد انطلاقتهم في ميدان الحرية والاستقلال الفكري ، وبعد تنشئتهم على المبادئ الديمقراطية واخلالهم من أكبال الاروروتقراطية ، أنهم لا ينامون على ضيم ولا يطيقون الذلّ والعسف ، ولا قدر عندهم الا لدساتيرهم القوية وشرائعهم العادلة ، فاذا اتى القابضون على أعنة شؤونهم حتى ملوكهم ، أمراً لا ينطبق على الصواب ، او حكموا حكماً يخالف الانصاف ، أو

زاغوا عن طريق الرشاد ، قبحوا عليهم ما انكروه فيهم وربما عيروهم فيه وجاهاً ، وكانت صحفهم الجريئة الحرة في طليعتهم ، ترشق من جعبها سهام التنديد والانتقاد . وبهذا التحوط يسلمون من تهورات رؤسائهم وأحكامهم الاستبدادية ، ومظالمهم وغضاضاتهم وشوائبهم ، وينجون من مزالقيهم وغفلاتهم ويوادر السننهم . وكيف يتجرأ الحاكم ، والشعب واقف له بالمرصاد ، ان ينزل بأحدٍ سوءاً ، أو يُبرم حكماً يميل به عن جادة الحق والرشاد ، أو يأتي امرأ يلحق ببلاده اقلّ اذى . وكَم من عرش تقوّضت اركانه لمظلمة اقرّفتها ربه ، وكَم من كرسي حُطّمت قوائمه تحت الجالس عليه لرسوة تلتطخ بها أو خيانة اجترحها . ولا ريب ان المتساقطين على الشعوب اذا رأوا فيهم الجرأة والحرية والشمم والانتباه والمراقبة والاتحاد تهيّبوا أيّ تهيّب وتحرزوا كل التحرز ، واذا ابصروا فيهم الجبن والاعضاء على الضيم وتشتت الكلمة احتكموا فيهم ما شاؤوا بدون ادنى حذر .

واماً سنناتهم التي سرت ائينا عدواها عن طريق الملابس والمعاشرة او عن طريق الاقتداء الاعمى والتشبه الذميمة فأكثر من ان يستوعبها هذا المقال ، ونحن نقتصر هنا على ايراد بعضها تنبيها للمخاطر الساهية والعيون العالفة .

وأول ما نتناوله من تلك العيوب اندفاعهم في ميدان التهتك اندفاعاً قوياً حتى اصبحوا معه الى البهيمية اقرب منهم الى البشرية . وهذه ناريس التي هي مرآة الحضارة ومقياس الذوق ، بل جنة الكرة الارضية ، قد تفنّن فيها الفؤاد في أساليب الخلاعة تفنّن العبقريين من هذه الأمة التنجسية في ضروب الاختراع . حتى لا تكاد تلج ردهة من ردهات التمثيل الشبهي والتطقي في تلك القاعدة الخالصة حتى تنبو عينك عن المشاهد المستقدرة ، التي تُذكي في الصدور أجيح الشهوات ، وتُميت من النفوس أرقّ العاطفات ، وحتى تجمّ أذنك ما يقع فيها من الكلمات البذيئة والعبارات السفهية الجامعة لكل ماخطته يد الفحش في معجم الفحش ، ومايفوه به غلمان الازقة وعباد الالهواء الاوغاد . واذا أجلت النظر في بعض كتبهم السافلة ورواياتهم الساقطة تحسب نفسك كأنك في مرحاض او في جبانة . وقد قذفوا الى بلادنا من هذه السلع الفاسدة ما تهاقت شباننا العماة على شرائه حتى اضاعوا آدابهم ، وفقدوا حياءهم ،

وخسروا عفافهم ، ولا يزالون مع ذلك عاكفين على تلك الموارد الوبيثة كأنها من اعذب الموارد ، وهم لو كانوا من المستبصرين لأيقنوا ان جميع الآفات التي تولت ببلادنا ، وكل الملمات التي اصابتها وسحقت عظامها ، انما انقضت علينا من ذلك الجور الربوي .

اما الشائبة الثانية التي اخذناها عنهم فهي الوأرع بالأزياء ، حتى اصبح اكبر المؤسرين في بلادنا يثنون من المبالغ الباهظة التي يُنفقونها على ملابس عقائلهم وزريهن التي تتجاوزن فيها كل حد ، بحيث اوشكت ثروة البلاد ان تغور في تلك الفوهات الواسعة بل المهاري العميقة . وان الشبان المخمئين ليسوا باقل هياماً بالتبرُّج من سيداتنا المتبرجات ، مما جرأ الجنس اللطيف على ان يتماذى في غيِّه ويُفرط في تزيينه . والله اعلم بما يكون من مصيرنا اذا دامت الحال على هذا المنوال . . .

واما الشائبة الثالثة التي سرت جرثومتها القتالة من تلك الربوع الى بلادنا وفتكت باجسامنا فتكها الهائل فهي المضاربة والمقامرة . فكم من بيت كانت السعادة ساطعة الأشعة في سمانه والثروة مخبئة في فئانه ، قد دُكَّت جدارته وتداعت اركانه لتزول ربه او ربته الى ميدان المضاربة وانكبابهما على موائد المقامرة . ونحن نعرف أسراً عديدة كان يُغبطها كبار الناس على ما هي عليه من اليسر والسعة ، فأصبحت تُغبط اصغر الناس على حسن حالهم بالنسبة الى الحال المعززة التي صارت اليها بعد تبذير اموالها في اسواق المضاربات وفي المقامر المتلفات . . .

هذا وقد بقي غير شوائب ليست بأقل اهمية من التي ذكرناها كالبراز والانتحار والاستهتار وما الى ذلك مما يضيِّق عنه نطاق هذه المقالة . فلنتقف الآن عند هذا الحد ولعل في ما اوردناه ما يتنع الغلة ويحث ابناء الوطن على الاعتبار والاستبصار ، ويوقنهم على الخطأ الجسيم الذي ارتكبهوا بجلعهم ثوب آدابهم الشرقي الرائع وترديهم بالرداء الغربي الذي تبدو عليه مسحة من الرونق الخداع والبهساء الكذّاب ، وفي حواسيه وطياته مغامر ومفاسد لا تخفى على الحكيم البصير . ولذلك عرضوا نفوسهم وبلادهم لنبال التعيير والامتهان ، وباتوا على سفير الفاقة والإفلاس . ولقد كثر اسوء الحظ عدد المتشبهين في اولئك القوم من كلا الجنسين في هذه البلاد ، ولا سيما حيث

نشر التمدُّن بساطه وضرب العمران خيامه وشدَّ العلم اطنابه وبنى اليُسْر قبابه ،
وربما سرى هذا الداء العضال في الدساكر والمزارع وتسرَّت جراثيمه في الأرياف
والأرباض بل في الأخبثة والأكواخ ، ولذلك لم يبقَ من سبيل الى الاستهجان
والتمبيح والقدح والتعير ، فكُلُّنا في المصيبة سواء .

فيا ايها الزعماء العقلاء والروساء الحكماء عطفًا على هذه الأمة التي تتوالى عليها
النكبات من كل حدبٍ وصوبٍ ، ورفقًا ببلاد تنقضُ على بنيتها الصواعق من كل
أفق وجوّ ، فلقد بلغ السيلُ الرُّبى وطهى طرفان الشتاء حتى غشَّى الرُّبى ، فاذا لم
تتداركوا وطنكم زاد خراباً على خرابٍ وضيقتاً على ضيقٍ ، وتعدَّز على أمر الأُساءة
ان يُبرئوه من دائه العيَاء ، وعجز أحكم الحكماء عن ان يُنعشوه من عثرة البلاد .
وكتنا نودّ لو ييسع لنا النطاق لاستيفاء مضارّ المدينة الحديثة واستقصاء مفاسدها
وآفاتها ، ردعاً للنفوس الكلفيّة بطلاوة الحديد عن ان يستورطوا في مخابثها ويتسرَّعوا
في حمات قبائحها ويُغربوا في ميدانها ويتوغَّلوا في مذاهبها . ولكننا اجترأنا الآن
بهذا القدر اليسير ولله كافٍ للتبصرة والتذكير . وسنعود الى تفصيل هذا المُجمل في
مقالات مترادفة متناسقة نُشبع فيها الكلام على كل ما انتقل اليُنا من المساويء
وألفناه من العادات الذميمة وتطبَّعنا به من الطباع اللثيمة ، بعد تهاقمتنا على تلك المراتع
وإقبالنا على تلك المناهل والمشارع ، حتى اذا شعرنا بوباءتها واطَّلعنا على وبالها
ووخامتها اقلعنا عنها وانقذنا البلاد من غوائلها ودواهيها ، ومسحنا عن جبهاتنا عارها
وكفينا نفوسنا مخازيها . .



الاتقياد الاعمي

ان هذه الآفة من أعرق الآفات في ربوعنا اللبنيّة واجسمها ضرراً ، وأداتها
على ضعف الارادة وقصر النظر ، وتقييد الحرّيّة وتسخير الضمير ، وأحراها بالذلّ
والغضاضة والامتهان ، لأنها تُعرب عن حساسة في النفس وسفالة في الأخلاق ،
وتُفصح عن توغُّل في ميدان الجهالة والعبادة ، وتنبئ عن إغراق في الاستسلام

وإعراق في الرقّ والعبودية .

واننا لنعجب من رجل أنفث في السماء ورأسه لا يُفنيق من سكرة الخيلاء كيف يُسَلِّمُ الى زعيمه زمامه كما يُسَلِّمُ الفرس الى فارسه عنانه ، ، مو مع ذلك يثبي مشية الطاوس ويتثنى تثنى الأغصان ، فكأنه يمدّ من المفاخر ان ينضوي الى وجيه ، او يتطوّر لخدمة كبير ، واقفاً نفسه على تنفيذ مقاصده ، حتى اذا ظفر مولاه ببغيته تركه وشأنه ، وهنا الثمالة والمار . .

وحسبك ان تقي ساعة في ساحة الشهداء يومَ انتخاب الاعضاء للمجالس البلدية او النيابة حتى ترى كيف يكون الانقياد الأعمى والتطوُّع المدهش والاستدراق المخزي . هناك تذاحم الاقدام وتحتك المناكب وتسابق السيارات والمجلات مشحونة بالصيادين المكروّة الدهاة والقناصين الماهرين ، والى جوانبهم الطرائد التي اصطادوها والأسماك التي علقت في شباكهم .

هناك تُبصر ما يُدمي العيون ويُقرّز النفوس : اناساً يشترتون الضمائر بالدنانير ، ويفرّون الخواطر بالأصفر البراق . هناك ترى الدلائل الختالين ، والعبيد المُستسلمين ، ومن حواليهم زعماء الأحزاب ورجالهم يموجون ويمردون عصاباتٍ عصاباتٍ مترقبين سوانح الفرص لاستهواء مندوبي الشعب ، وهم بين طُروبِ جذلان تتلألأ على اساور جبهته اشعة الأمل بالفوز وتلوح على محياه امانر الغلبة والانتصار ، وجزوع فيشل يانس كاسف البال كلوح الوجه ، يتطاير شررُ الغضب من عينيه ، وتتمدّ جذوة الحقد فوق شفثية ، وهو مع ذلك لا يزال يُشدّد قواه الخائرة ويشحذ عزيمته النابية لعمّاه يفوز بأمنيته .

فما الذي حمل تلك الزرافات التي تتسوّج وتضطرب في الشوارع كأنها قطعة من غاب على ان تعاد ربوعها الهادئة الأمانة ، وتقبل على ساحات المدينة الفسيحة حتى تريدها جبلية على جبلية ، وضوضاء على وضوضاء . وما الذي بعث المرشّحين نفوسهم للعضوية النيابية على ان يجولوا تلك الجولات في ميدان السياسة ويكرّوا تلك الكرات العدائية على اقرانهم الزاحمين لهم ، وما الذي حدا المتجمهرين الى موالاته الاجتماعات وتجاذب الأحاديث وقطع العهود وتغليظ اليمين . وما الذي دعاهم الى تأليف

الاحزاب وجمع الأشتات وضمّ القوى ، بل اي شيء يريدون بهذه المعركة العنيفة والى آية غاية يرمون .

فاذا كانت مصلحة الوطن هي التي أنطقتهم بما نطقوا ، وأنقضتهم لما له نهضوا فلله درهم ودرّ الغرض الذي اجتمعوا له ، لان منصب النيابة من اجل المناصب وأوسعها مجالاً لخدمة الأمة واكثرها تحميصاً للرجال واجلاها للقيم والأقدار ، ومتى كان المرء على اوفى قسط من المعارف والمدارك واعظم جانب من الخبرة والدهاء وجودة النظر فخرام عليه ان يعتزل كرسي النيابة ويجرم أمتة ثمرات غيرته وحكمته وذكائه . واما اذا كانت مصلحتهم الذاتية هي التي استزلتهم الى الميدان فما كان أحراماً ألاّ يخيطوا لنفوسهم هذا الثوب الغليظ من الخيانة والهوان .

وانه ليؤلمنا ايّ إيلام أن يتقاد الشعب الى هؤلاء السادات انقياداً اعمى ويُنهبهم على نيل بُغيتهم ويُهد لهم السبيل الي الفوز بنصب لم يُخلق لهم ولم يُخلقوا له ، وكان على زعماء الأمة وعقلائها ان يعقدوا الاجتماعات ويتبادلوا الآراء ، ويوالوا المفاوضات حتى يردعوا العامة عن الاستئمانه الى جميع الذين تتبرأ منهم الوطنية حتى يحولوا بينهم وبين المنصب النبالي الشريف .

ونحن لاننكر ان عشاق المناصب يشذون عن الاحصاء في البلاد العريقة في المدنية ، واكثرهم من اعيان أمهم وهن ضيابة الشرف وأقطاب العلم والسياسة فيها ، ولكنهم لا يقصدون بترشيح نفوسهم لمثل هذه المناصب السامية الا أن يُخدموا بلادهم بكل ما أوتوه من المواهب الفريدة والمناقب الحميدة ، لا أن يبيعوها في سوق النخاسة ويميلوا عليها كلما رأوا في الميل منفعة لهم . .

ولنعد الآن الى اوائك المتحزبين الذين يخوضون الميدان السياسي ويجاهدون ذلك الجهاد الحراسي رغبة في ان يُحرز زعيمهم النصر ويفوز بما تطمح اليه نفسه ، أترام يعرفون ثقل المهمة الملقاة على عواتقهم ، أو يخطر في بالهم ان الموقف الذي هم فيه من أهيب المواقف واحتمها بالاهتمام ، أو يشعرون بخطورة تبعيتهم وعظم مسؤوليتهم امام الله والوطن والشعب الذي عهد اليهم ان يمثّلوه في انتخاب خير الرجال لخير المناصب ، أو يفتكرون أن العيون ترصدهم من كل جانب ترى أثم من المخلصين

ام من الحائنين ، وأن النفوس نطاقٌ عليهم ، والأعناق مشرّبة اليهم ، والقلوب ترفٌ فوق رؤوسهم ناظرة بنافذ الصبر الى ساعة الاقتراع ونتيجته . أو يجولون أن التاريخ فاتحٌ صفحاته الخالدة لِيُسَطِّرَ فيها آثار أمانتهم او خيانتهم ، وأن الأمة التي استأمتهم على ان يُحضرها الخدمة ترعاهم بعين يقظي حتى اذا برؤوا في قولهم وانجزوا ما عاهدوها عليه نقشت مبرّتهم على جبة فؤادها ، ولألا استزلت عليهم مساخط السماء ولعناتها . أو يرفعون ابصارهم في تلك الساعة الرهيبة الى العرش العلوي حتى يتهيّبوا الموقف ويتحاشوا عن إتباع الهوى وينفروا من الانقياد العبدي ويترفّعوا عن الحسائس . أو ينظرون اذذاك الى ما يجول في خواطرهم ويتشكّل في ضمائرهم من الحقائق ، فلا ينطقوا الا بما يوجيه اليهم الوجدان وتقليه عليهم المصلحة الوطنية . فلو كانوا يفعلون ذلك لما رأينا من اكثرهم ما يضحك ويُبكي بما يلقي على الوطن أثقل عبء من العار ، ويؤول الى الحراب والبوار ، وكان مجلسنا النيابي من أجمع المجالس للرجال الأتماء الزهراء ، وكان المفروض البلدي حافلاً بالأعضاء الصادقين الاوفياء .

ولقد مررنا مرّة في ساحة الشهداء وشهدنا المعركة الانتخابية ، وسمعنا بأذنيننا ما آثرنا معه الصّمم ورأينا بقلبتنا ما حبّب الينا العمى . . رجالٌ أميون لا حظّ لهم من العلم والسياسة ولا نصيب من الخبرة والكياسة ، ولا إلمام بالواجبات الوطنية ، ولا لهم على شي . من الاخلاق الأبية والشائيل الشريفة ، واقفون في تلك الرّجة الفسيحة كأنهم قنائل جامدة او جلاميد ناطقة ، فسألناهم عن السبب الذي يسوقهم الى ترشيح فلان لمنصب النيابة ، فكان بعضهم يقول : إن يداً قوية تضطرني ان انحاز اليه ، « ولعلّ تلك اليد هي الاصفر البراق » وقال آخر : إن له عليّ أيادي بيضاء ، وهذه هي الساعة التي يُمكنني ان أكافئه فيها . وقال غيره : إنه اقرب اليّ في الجوار من سواه ، فضلاً عن كونه من مِلّتي ومن مذهبي . وقال غيره : هو من حزبنا ومن اشدّ الاعداء لمن يُضمر لنا البغضاء ويجاهرنا بالمداء . الى غير ذلك من التعليقات الواهنة التي تبهرن على أن أولئك المندوبين الذين سيلقون الفرعة لم يفقهوا خطورة المهمّة التي انتدبتهم لها الأمة .

ولقد كنتُ مُنمّده لهذه الفئحة العذر لو وقفت عندهذا الحدّ ، ولكنها تطلّخت في دنايا

تغضّ دونها عيون الشرف والزهارة والشّمم ، وتأبأها الوطنية الأبية والحمية القومية . كيف لا وقد كنتَ هناك كأنك في سوق رائجة تُعرّض فيها الضمائر ويُباع الوطن وتُداس الغبرة والاستقامة ، وما أكثر البائعين والمُبتاعين . كنت ترى ميزاناً منصوباً في احدى كَفْتَيْهِ المصلحةُ العمومية ، وفي الاخرى الذهب الوهّاج الذي كانت ترجح كَفْتَهُ على تلك رِجْحانَ الجبل على الحمل . كنت ترى الامانة متسليّة مرتديّة بثياب الحداد ، والحياة تحطّر رافعة لواءها على رؤوس الأشهاد . كنت ترى الدُهاة المكرة ينفخون في ابواب التعصب ناصبين حباتلهم ليصطادوا بها تلك النفوس العمياء . فما كان اقبجه منظرًا وأخزاه مشهداً يُقْتَت الاكباد ويصدع الالباب ، ويمرح الضمائر الحرّة والصدور التزيهة .

أجل لقد شئت يومئذٍ بين الاحزاب حرب سياسية ضروس ابن منها حرب البسوس ، وذكرتنا مجرب الوردتين التي هزّت الحافقين . ولكن ليس في هذه الحرب السافلة من سلاح سوى مكرٍ مُستباح ، ولم يكن الظفرُ فيها الا لا يذلل المرشّحين مالا واكثرهم احتيالا . وكنت تسمع في ذلك الفضاء صياحاً كاد يشقّ حجاب السماء ، حتى تظلم خاطر الليل الهادي من الضجيج ، وتألّم من يريق الدنانير الذي كان يترق ثوبه المخملي ويُفقد روعته وهيبته . ولعله خجل كل الخجل من الافعال الدنيئة التي أتاها الخائثون تحت جناحه ، وقد بدت لكل ذي عينين كأنها وقعت والشمسُ في كبدها .

فأي جرم أهول من أن يبيع المرء وطنه ببضعة دنانير ، وأية خيانة أفضح من أن يُعرّض أمته للتعمير والتفريع ، وأية جناية اكبر من أن يُضحّي بشرفه وشرف قومه على مذابح السفالة والطمع ، وأن يعصي خالقه ويخالف حكم ضميره تشيعاً لأميده ، وأية خلة اقبح من ان يصعد عشاق المناصب وخطّاب المجد على سلام الرشوة والحدّاع ومرّاق التذلل والترئّف ، وأي عار أجسم من أن تنحني رؤوس أولئك السادة الصيّد أمام هولاء العبيد ، هارقين ماء وجوههم على أعتاب الحكّام ، غير مبالين بما يجرون وراءهم من أذبال الحزبي ، ولا عابئين بما يُجْلّفونه في صدور العقلاء من قبيح الأثر وفي بلادهم من سوء السمعة . وهل توازي اللذة التي يذوقونها عند جلوسهم

على المقعد النيابي ما يسمعونه من كل فم، ويتصفّحونه في كل جريدة من انهم ارتقوا الى تلك الذروة على اكتاف الأذئاب، بعد أن أعموا بصائرهم بندرات الذهب، واطمعا أبصارهم بالبرق الحلب، وبعد إذ داروهم بحقن مُخدر الضائر وتُسكن الخواطر . . ألا قاتل الله المناصب ما أفرها للهاثمين بالمراتب، وتزّهنّا عن مساوى تُسود صفحات تاريخنا وتغصّ من اقدارنا عند اصحاب الأنفة والزهارة والعفاف .

على اننا لا نستغرب الجهد الذي أفرغه المرشّحون استهواء للمندوبين واستمالة للزعماء واستعطافاً للمتسلطين، وانما نأنف من الذرائع التي تدرّع بها بعضهم ادراكاً لغايته ونياً لبغيته . ولم نكن نعهد للرشوة من اثر في مثل هذه الترشيحات النيابية والبلدية الا من ربح قرن، وقد لعبت اهمّ ادوارها في السنين الاخيرة . ولعلّ الضغط من اصحاب الوجاهة والمكانة والسيادة على النفوس الضعيفة، هو الذي استدرجها الى التلطّخ بما تلطّخت به، فاصبح المرشّح الذي تُعارضه السلطة وتحول دون أمنيته، مضطراً الى تأليف حزبٍ له ينضمّ تحت لوائه بما ينفحه به من الدنانير الثمّارة، وما من شيء أصيدت لقلوب السفلة من المال، فانهم يوترونه على رضى الزعماء والوجهاء والعظام والرؤساء، بل على نفوسهم وضايرهم ووطنهم وأمتهم . فتدار كالألحاح وفراراً من هذا الداء الويل، نستهم الحكومة ان تُشرك الشعب كلّه في الاقتراع حتى يألف الحرية والاستقلال، ولا يتلوّث بالحسائس والمخازي التي تفسد سمعته . لانه مهما تدققت ثروة المرشّح وتناهى كرمه يميز عن ان يستميل اليه بما له الوفا في ألوف من ابناء ولايته، وانما يسهل عليه ان يستدرج بنقوده مئة اومئتين من المندوبين كما هي الحال في ايامنا هذه . ولو كانت الأموال التي تُبدل في هذه السبيل تذهب من خزانة المرشّح لهانت البلية، ولكنه لا يلبث ان يتصّدّم الشعب بطرق جائرة وحيل مستعربة ودهاء مدهش، حتى يضمّ الى ما أنفقه في تلك السبيل اكداً من المال، وهذا على ما زجج من ادعى الدواعي الى التهاوت على المناصب . فعسى ان يُقلع اعياننا وانبيأنا عن هذا المورد الذي لا يخلو احياناً من المراثر والمكاره، وعسى ان ينشأ ابناءنا على الاستقلال الفكري، والترفع عن الدنيا، وإيثار المصلحة العمومية على كل مصلحة، حتى زرع عن ظهر الأمة أوقاراً ثقيلة رزحت تحتها وكادت تسحقها .

المداهنة

من أخصب الأدواء الاجتماعية وأجراها على الالسنه وابعدها انتشاراً أن يُخالف المرء حكم ضميره في حديثه ومقاله . ولا يخفى ما في ذلك من المكر واللوم ، لان صاحب هذه التقيصه لا يرى له ذريعه يستميل بها القلوب اليه إلا ما ينسجه من عبارات الملق والمدالسه ، فينثر على عشرينه أزهار الثناء على مزيه لا يظننها فيه ، حتى اذا تنشئ رباها بطييه خاطر زاده اطراء الى ان يسكر فواده بسلافة المدح الكاذب ، فيشغله عن اصلاح نفسه بما يسمعه إياه من كلمات التقريظ ، حتى لقد يتوهم القبح فيه حسناً والتقص كمالاً ، فيقع في لجة الصلف والزهو ويتطوَّح تطوَّحاً يعقب الحرمان والفشل ويورث الملامه والهلف .

ولقد تفشَّت هذه الشائسه في بلادنا حتى يكاد لا يخلو منها طبع ولا يشطاماها لسان . وانما سؤل للنفوس العلق بها توهُمها أننا في عصر لا يحمل بنا فيه أن نبرز جميع مكنونات صدورنا خوفاً من ان تصيب موقعاً سئناً في قلب السامع ، فيتكدر صفاء طبعه ويتقلص ظل أنسه . ومن المعلوم انه اذا سارت في الرأس سورة الخيلاء راجت عند المتعجرفين سلعة المداهنة ، وآثروها على لهجة الصدق والنصح ، وراعوا لصاحبها جميلاً كبيراً كلاً اثنى على مآثره لم يأتوها او عزا اليهم فضيلة لم يتجملوا بها ، او كبر في عيونهم عملاً لا يستحق عند العقلاء ذكراً ، او لطف عليهم ذنباً اقترفوه فهد له عندهم عذراء الى ما هنالك مما يسدل على البصائر غشاوة من الاعتذار ويُثير في الاذهان غمامة من الغواية والضلال .

على ان المداهنة لا يكون لها نصيب من الهزة والارتياح عند اصحاب العقول الراجحة والرأي الصائب ، اذ يخرقون بداركهم النافذة سرائر المداهنتين ويُبصرون بلواحظهم الحادة ما لهم في صدورهم من المذلة . حتى اذا مدحهم بما ليس فيهم ، او رفعهم الى مرتبة هم ادنى منها ، لقموهم حجراً او أشعروهم على الأقل انهم ارفع من ان يُخدعوا ، وابعد من ان تقطعهم المداهنات عن تهذيب نفوسهم وتقويم اخلاقهم ،

بل أجلُّ من ان تتَمَوَّه لهم الحقائق واسمى من ان يتعاطوا خمرة يخبُّها ذوقهم السليم .
ولذلك ينجحون من ان يُطَلَّب في مدحهم ويُبالغ في وصفهم ، ويُنجحون من داهنهم
بأطراح ما نسبة اليهم وهو مخالف لظنِّه فيهم وظنهم في انفسهم . وهيات ان يعود
ارباب هذه التجارة الى عرض سلعمهم على من نبذها لهم نبذ النواة ، وانما يبسطونها
امام الجهلاء ويهدونها اليهم طُرْفَةً ثميثة تصادف عندهم مقاماً رفيعاً وتستوجب مزيد
شكرهم وجيليل حدم . ولا ريب ان المدالسين اذا انسوا على بضاعتهم اقبالاً
ازدادوا بها اِتِّجاراً ورغوا في عرضها طمعاً في ان يخطبوا مودَّة من يتمتقون له ويتألَّفون
منه وربما لم يكن لصدائقه عندهم شأنٌ يحملهم على ان يتودَّدوا له ويصانعوه ، وانما
غرَضهم ان يزدروا به ويستخفوا بعقله الذي يستفزُّه الثناء الأباغ حتى يُعَمِّيه الغرور .
فاذا غادروا مجلسه انبأوا اصدقاءهم بسرعة مهزته للاطراء وشدَّة اغتراره به ،
وسهولة اصطياده بشباك المداهنة والدهاء .

وايُّ عار اعظم من ان يسخر الناس بالمرء وهو يتوهم أنهم يُكرِّمونه
ويُجَّاونه ، وأن يلبسوه ثوب الضعة والمهانة وهو يظنُّه من حلال الملوك ومطارف
الأمراء . وايُّ عيب افضح من ان يُجْلَع على نفسه رداء تسع على جسمه اذياناً ،
وأن يترياً بزي ليس عند الناس ولا عند نفسه معروفاً به . ومن العجَب ان يرضى بان
يُعزى اليه ما لا يعرفه هو في نفسه ، فكأن هياماً بالثناء يحمله على قبول ما استعير
له ، وربما اهتزَّ به طرباً بل رجا نسب الى محدثه العداء اذا لم يسمعه أبلغ عبارات
الاطراء ، او لم يكرِّرها عليه كلما التقى به حتى كأنها حلية من حلاه او سمة
من سماته .

وبديهي ان المداهنة تشين كل امرئ وتخط من مقامه عند ارباب الأنفة
والصدق ، لانها من مولدات الكذب والنش والحيانة . ويقبُح بكل رجل ان
يتلطَّخ بها ولا سياً اذا كان من عليَّة قومه ، او ممن يترتب عليهم الاصلاح والنصح .
فاذا داهن الرئيس مروثوسيه والاب ولده والمولى خادمه اتسعت ثلثة عيوبهم
وازدادوا تهاقناً على المنكرات وقادياً في الشر . وما من شيء أضرَّ بالانسان من ان
يكنتم عنه اصحابه ما فيه من الشوائب ، فان النفس قلباً تشعر بنقائصها لشدة ميلها

الى المدح ، ولذلك تراها كثيرة الانخداع ، فاذا لم يكن لها ناصح يُعِثُّهَا وَيُوقِفُهَا عَلَى صِيوبِهَا رَضِيَتْ بِجَاهِهَا مِنَ النِّقْصِ ، وَلَا يَجْنِي مَا فِي ذَلِكَ مِنْ سُوءِ النَّتَاجِ .

على ان الضرر يكون اشدّ وابلغ اذا كان حول الرئيس او الحاكم قومٌ ذابهم المداهنة والملق والاطراء ، فانهم بداهناتهم يخونون زعيمهم ويُعَرِّضُونَهُ لِلْمَلَامَةِ وَالذَّمِّ ، اذ يُقْصُونَ عَنْ بَصِيرَتِهِ نَوْرَ الْحَقَائِقِ حَتَّى يَسْتَمْسِكَ بِالْبَطْلِ وَيَزْدَادُ تَصَلُّباً بِرَأْيِهِ وَاعْتِبَاباً بِنَفْسِهِ وَثِقَةً بِصَلَاحِهِ وَكَهَالَهُ ، فَيُظَلَمُ مِنْ حَيْثُ لَا يَقْصِدُ الظُّلْمَ وَيُفْسِدُ مِنْ حَيْثُ لَا يُرِيدُ الْاِفْسَادَ ، وَيَسْلُكُ فِي سِيَاسَتِهِ مَسْلُكاً مَعُوجاً يُنْقِرُ مِنْهُ الْقُلُوبَ حَتَّى يَصِيرَ بَغِيضاً إِلَى مَرْؤُوسِيهِ مُحْتَقِراً لِدَيْهِمْ ، وَهَذَا الطَّائِمَةُ الْكَبِيرَى . فَلَوْ كَانَتْ بَطَانَةُ الرَّئِيسِ مُخْلِصَةً لَهُ امِينَةً فِي حَقِّهِ لِأَوْقَاتِهِ عَلَى كُنْهِ الْأُمُورِ وَأَطْلَعْتَهُ عَلَى عِيُوبِ نَفْسِهِ ، رِعَايَةً لِسُنَّةِ الْوَفَاءِ . وَلَا بَدَأَ إِذَا كَانَ مِنَ الْعُقُلَاءِ مِنْ أَنْ يُجَلَّ نَصَائِحُهُمْ مَحَلَّهَا مِنَ الْاِعْتِبَارِ وَيَعْمَلُ بِمُوجِبِهَا . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْمَعْجِبِينَ بِنَفْسِهِمْ فَانَّهُ لَا يُعِيدُ كَلَامَ النَّاصِحِينَ أَذْناً وَاعِيَةً ، بَلْ يَفْعَلُ بِحَسَبِ مَا تَرَى لَهُ النَّفْسُ ، وَالنَّفْسُ أُمَامَةٌ بِالسُّوءِ وَكثيرة الاغترار ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَقَعُ اللُّومُ الْاَعْلِيَهُ .

ونحن لا ننكر ان المهابة تتسلك عادةً المقربين من الرؤساء وتمنعهم عن ان يُخْلِصُوا الرُّؤَسَاءَ الْقَوْلَ حَرِصاً عَلَى مَنَاصِبِهِمْ أَنْ تَرْعِزَهَا الْحَرِيَّةُ فِي الْكَلَامِ وَيَهْدِمَهَا النَّصِيحُ . فَلَا أَنْ يَعْتَرِلَ الْمَرْءَ مَنَصِبُهُ قِيَاماً بِوَجِبِ الْاِمَانَةِ أَوْلَى مِنْ أَنْ يَبْقَى فِيهِ بِالْمَكْرِ وَالرَّنَاءِ وَالْهَيْتَانِ .

ولا ريب ان الصحافة لا يُغْتَفَرُ ذَنْبُهَا إِذَا تَلَوَّثَتْ بِأَدْرَانِ الْمَدَاهِنَةِ وَعَمِدَتْ إِلَى التَّمْثِيلِ وَالتَّسْلِيَةِ ، فَانَمَا أَسْتَاذُ الشَّعْبِ وَدَلِيلُهُ وَمُصْبِحُ هَدَاهِ . فَإِذَا كَتَمَتْ عَنْهُ عِيُوبَهُ وَحَسَّنَتْ لَدَيْهِ عَادَاتِهِ السَّيِّئَةَ بَقِيَ عَلَى جِهَلِهِ وَضَلَالِهِ . وَابِيَةَ خِيَانَتِهِ أَفْطَحَ مِنْ خِيَانَةِ شَعْبِ بَرَمَتِهِ ، لَا يُؤْتِرُ فِيهِ شَيْءٌ تَأْتِيهِ الصَّحَافَةُ . وَلَا هَذَا لِأَحْدَانِيَا إِذَا تَقَاعَدَ مِنَ النُّطْقِ بِالْحَقِيقَةِ مَهْمَا نَالَهُ مِنَ الْحُسَاثِ الْمَادِيَةِ ، فَإِنْ اَصْلَحَ عَيْبٌ فِي الْأُمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ وَكُنُوزِهَا . هَذَا اللَّهُ جَمِيعاً سِوَا السَّبِيلِ وَوَقَفْنَا إِلَى خِدْمَةِ السَّلَادِ بِصَدَقِ وَاِمَانَةِ وَاخْلَاصِ .

التزلف الذمير

فشت هذه العلة المضجعة في البلاد حتى لم تسلم من جرائمها طبقة من الطبقات ، ولا خلقٌ من الاخلاق ، ولا سيما طلاب المناصب فانها متأصلة فيهم حتى نكاد لا نرى لهم دواء ناجحاً ولا علاجاً شافياً ، واذا اهتدينا الى معالجتهم فهم لا يُجِبُّون أن يتدأوا خوفاً من أن تفارق العلة ابدانهم فيكونوا بفراقها اكثر اعتلالاً منهم ببقائها ، وهنا الشرّ الاكبر ..

يُريد عُشاقُ المناصب ان يستروا على كرسي السيادة إما تلذذاً بسكرة السوِّدود ونشوة العز ، أو تسلياً الى الانتقام من عدوٍ يطلبون قهره ويتغنون عسفة ، او طمعاً في المنافع المادية والمكاسب الدنيوية التي يُصَيِّبونها من وظائفهم او من وجوه محظورة عليهم . وأكثرُهم يسمي اليها بالتزلف والتذلل والاستعطاف والاسترحام وما شاكل من ضروب الهوان ، حتى اذا قَبِضَ له يُنُّ الطالع ان يظفر بأمنيته جرّ أذيال الخيلاء وسبح في جوّ التيه والعُجب ، حتى كأنه افتتح حصناً منيعاً أو شيدَ لوطنه من المجد صرحاً شامخاً .

فلو كانت المناصب لا تُسند إلا الى ارباب الجدارة والعفاف لما كان من سبيل الى طلبها بطرق مخزية ، ولما بطر الفاتزون بها هذا البطر المضحك . ولو كانت الحكومة تزيهه والرئيس جزوماً مهيباً منصفاً لما جرؤ احد على الارتشاء والايثار والاستبداد بعباد الله والتلاعب بحقوقهم والعسث بدعاويهم . فاتقوا الله يا رجال القضاء . ان التزلف حلة شنعاء لا يألُفها الأنوف الأبيّ ، لانه يترفع عن الاستكانة والصغاره وتأبى نفسه الحرّة ان يسعى الى الخظوة عند الحكّام عن طريق التملق والمصانعة ، وهو أجلُّ من ان يكون عبداً رقيقاً طمعاً في منصب او رغبة في نيل رتبة او ادراك مطلب ، بل يوثر ان يستمرّ بين قومه نسيّاً خاملاً وهو حرٌّ تزيهه شريف ، على ان يقبض على نواصي المجد ويجلس على عرش السلطة بالخنوع والتخاشع . اما الرجل اللثيم فلا يُهتبه ان يُجرّ على اقدام ذوي السوِّدود ، ويعقر الجبين عند اعتاب اصحاب

الكلمة النافذة للفوز برغائبه ، فاذا نال منصباً بطر وشمخ بانفه وطمى وبغى شأنَ
الوضيع الخسيس اذا ظفر بنعمة وهو غير اهل لها فلا يبرح يتبختر ويختال حتى يفقدها
والتألف لا يكون حرّاً الضمير ولا أميناً ولا صادقاً ولا نصيحاً ، لأنه يلجأ في
الغالب الى المداجاة والمرابطة والمدح الكاذب والملق ، حتى يتسنى له ان يتقرب من
يتوقّع منه فضلاً او مقاماً ، فاذا رأى عيباً في خلال مولاه صورّه في عينه كالأب ،
واذا ساء خلق من اخلاقه أو همّه أنه من محاسن الطباع ومكارمها ، واذا اتى فعلاً
ذمياً مثله له مكرمة رائعة ومأثرة باهرة ، واذا اقرّف زلّة عدّها له من المناقب
الثريدة والحصال الممتازة ، فضلاً عما يُلقق له من الاحاديث ويُزخرف من الاقاول ،
ويتقل له من التخرّصات على من يُبطن لهم العداة ويضمر البغضاء ، قصد ان يبت
اسباب الولاء فيما بينه وبينهم ، حتى اذا صفا له الجوّ بإيعادهم عنه شفى غليله وبلغ
مدى امانيه ، وهما الحيانة بعينها ، والعياذ بالله من اهلها السفلة الساقطين

ويا حبالو وقف المترّفون عند هذا القدر من المكر والمخاتلة ، ولكنهم كثيراً
ما يتعدّونه الى خيانة أمتهم ووطنهم بضروب يتنزّه القلم عن ايرادها ، وهي في
عرفهم من اساليب الدهاء والسياسة ، وما اقبح السياسة اذا ادّت الى الغدر بالوطن
ونقض الذمام . ولعمرك الحق اننا لا نعجب من هذه الفئة الخدّاعة ان تملك
نفوسها الدناءة ويغريها الطمع في المناصب حتى تقترف هذا المنكر الفظيع ، مثلما
نعجب ممن يُعيرونها آذاناً واعية ويحملون كلامها محل الاخلاص . وكيف يمكن
ان يكون المداهنون من الصادقين المخلصين لمن يحاولون التألف منهم ، مع انهم
لا يخلصون الحبّ بلادهم التي احببتهم بنسيبها البليل ومائها النير .

ان التألف لا يكون مع المقدرة والجدارة ، ولا يقترن بالزاهة وحسن القصد ،
وانما يهيم به العاجز الضعيف الذي لا يرى له وجهاً للتقدّم والارتقاء الا من ابوابه الواسعة
ومذاهبه الفسيحة ، ويتوخّاه ذو الطويّة المتلوية والسريرة الخبيثة ، لان صاحب
الاهليّة المعروف ببسطة معارفه ، وسعة مداركه ، ولطف تدبيره ، واستقامة سيرته ،
انما تبعد عنه المناصب والعالي وتجرى وراءه مواكب المجد والعزّ ، بحيث لا يفتقر
الى خطبتها بالتألف والتودّد والتذلل والتخضع ، كما يفعل القاصرون الجهال . ومن

المحال ان يحاول المرء مقاماً تقصر عنه طاقته وهو يقصد به خدمة المصلحة العامة ، ولكنه يُريد .صلحة نفسه وهيات ان يدركها مع هذا العجز ، واذا انتفع فانما يكون انتفاعه الى زمن يسير . وحسبُ ما يصادف من المهانة والاذدراء لترديته بشوب ضفت عليه اذياله . واذا سكنت عنه الألسنة حيناً ولم تسلقه بقوارصها اللاذعة فالقلوب لا تسكت عنه بل تسقطه الى أحطّ الدرجات ، على حين ان غيره من ارباب المعرفة الواسعة نازلٌ من الابواب في اعلى مراتب الكرامة ، ولو لم يكن له منصبٌ يرفعه في عيون الاغبياء .

فالى المترفين الذين يبيعون نفوسهم وضمايرهم في سوق التذالة نسوق النصيحة حتى يعيشوا اعزّاء النفوس ، ويكونوا بين اهل وطنهم من أباة الضيم وُسْم الأئوف . واذا راقهم الترف فليكن بالاعمال القوية والمآثر المشكورة والمساعي المحموده التي يخدمون بها بلادهم والانسانية معاً . وما اشهى يوماً نرى الحكّام في هذه الربوع يتألّفون من علمائنا وفقهائنا واعياننا حتى يقبلوا المناصب التي يعرضونها عليهم . فحينئذ تكون البلاد قد بلغت الشوط الاقصى من التقدم والاستقلال . وحبذا أن يكون هذا اليوم قريباً المهدي حتى يحقّ لنا ان نقول مع من قال : أطلق يا رب نفس عبدك بسلام .

التهور والاستهتار

التهورون هم من اسوأ الناس حالاً وانكدهم عيشاً ، والمستهترون من أزيغهم بصيرةً وأكلهم نظراً واصلبهم وجهاً واخلمهم عذاراً . واين هم من البهيم الذي لا عقل له ، فانهم اكثر تعرضاً منه للأخطار والأسواء . يرون الشرّ ازاء عيونهم ولا يتقونه ، ويتصدّون للموبقات ولا يباليون ، ويؤثجون بنفوسهم في أثون الاهواء ويجوضون غمرات القبايح ويجنطون في حنادس الاضاليل وهم حيارى عيهون . واما البهيم فانه بقوة الغريزة المركب عليها يشعر بما يضره فيتحاماه ، وتقع عينه على سفا

هاوية فيتلافاه . ولذلك ترى الناس معها كانوا عليه من الرقة والحنان لا يرثون للستهور ولا يجديون على المستهتر . وربما مرّ جلف بجيوان يسلقه احد الساقاة القساء بسياطه الحديدية ، فيشفق عليه كل الإشفاق ، ثم هو لا يعطف ادنى عطف على من يقتحم المهالك ويعتسف المخاطر ويلقي نفسه بين اشراك الشهوات . .

فا شبه التهور بطفل غبي قاصر يرى النار امامه مندلعاً لسانها متطايراً اشراها فيقحمها حتى تلذذه فيسلاً البيت عويلاً ونحياً إلى ان يحفّ اليه من يرق له ويخفف عذابه وألمه . والطفل من حيث قصوره وجهله معذور بتعرضه لما يؤذيه ، واما البالغ المدرك فاذا تهور فما الى معذرتيه من سبيل ، واذا استهتر فما له من نصير ولا شفيع ، اذ يُقدم على المعاطب والهوى قائده ويرمي بنفسه في المتالف ومعه عقله او بعض عقله . ولهذا السبب لا يهرع احد الى نجدته اذا ارتطم ، ولا يحنو عليه حانر متى ارتبك ، بل يشتم به العدو كلما هوى في مغواة ، ويخذله حتى الصديق ولو رآه في اعماق مهاوي الضيق .

ومعلوم ان المبدع الازلي السامي قد منّ على الانسان بعقل يميّزه عن العجاوات ويرفعه على سائر الكائنات ، فجاءت الشهوة تُكدر مرآة نفسه الصافية النقيسة ، فأسبلت على محيّاها من الغبار سدلاً كثيفاً حجب عنها نور الحقائق حتى ركبت مطية الأهواء وامعت في مجاهل النعي ، فاسترقّتها الملكات السافلة واستعبدها العادات الذميمة وعصفت عليها الشهوات من جميع الجنّات ، فلعبت بارادتها الخائرة كما تلعب الريح العصف بالسنن الخفيفة الواهنة . فاذا لم يقوَ المرء على كبح نفسه الجبوح ولم يلجم ارادته الشّمس ولم يجمع هواه الثائر في صدره ، بات بين يدي الرذائل والأهواء اذلّ من العبد المكبل واطوّع من البعير الدلول المشكّل ، وامسى في قبضة الميخن أخور من العصفور بين مناسر النسور . وإنك لترى ممسوساً قد خولط في عقله وذهب الحنون برشده حتى بات يهذي هذياناً كأنه في بُجران ، فلا تتالك عن ارتلّه لبلاواه وتتفجع لمحتته . وتبصر الثّواة يركبون مراكب الشطط ويمضون على وجوههم حتى تصرعهم الاهواء شرّ مصرع وتطرحهم في اسفل وهدة ، ومع ذلك فلا ينجق لهم فؤادك ولا يلتاع صدرك ، بل ربما اندفعت في تاريهم

وتقربهم ، ثم لقلبت عنهم مَعْظاً بسوء ما لهم وهول مصيرهم .
 وهل من احد احقّ يساهم العذل والتأنيب ، وأحرى بان تُغضض دونه لاحظة
 الرحمة من هؤلاء الضالين الغاوين الذين جنوا على نفوسهم الجاهلية اثر الجنانية ' يوم
 اخذوا يتهورون ويستهترون ، وقد غفلت عيونهم عما يُنجي . لهم الدهر في حجة
 صروفه من النبال النافذات . فلو لم يُغلقوا آذانهم ويُوصدوا قلوبهم دون نواصع
 الناصحين ، ولم يقابلوا بالازدراء عظات الحكماء الراشدين حتى تهتكوا واهرفوا
 في المعاصي إسراف الحمقى ، وقرعوا في كل حماة ، لا هورا في تلك المهاوي المخبلة
 والمصارع المذلة ، وما صاروا عبداً لأصنام الشهوات يُقدّمون لها كل يوم بل كل ساعة
 انفس ما يملكون ، ألا وهو العقل والحرية والدين والضمير والوجدان فضلاً عن
 الصحة والشرف والصيت والجاه والعرض والمال .

على اننا كيفما اجلنا رائد الطرف في هذه الاصقاع وايضا سرّحنا بصائرنا في منازلنا
 ومحافلنا وملاهيها ومقاهيها ، لا تقع عيوننا الا على ما يُغذيها ويُدميها من المشاهد
 المخزيات والآثار المشجيات بما يدل على ان الاستهتار ضارب اطنا به والتهور موثق
 في الصدور اسبابه . وحسبك ان تؤم في هذه من الليل احدى المقامر التي يختلف
 اليها عشاق المياسر ، حيث يجلس الى الموائد الخضراء الموسرون فضلاً عن الموسرات ،
 حتى ترى الأموال كيف تُبذّر والاجسام كيف تُصهر والقلوب كيف تُجرح
 والأجنان كيف تُقرح . هناك تُعائِن الوجوه الذابلة الذاوية اشدّ صفرة من الزعفران
 والعيون القانئة اشدّ حمرة من الارجوان . هناك تقرأ على الجبهات سطور الامل
 واليأس والبشر والكآبة والفوز والنشل ، وتُبصر على الحدقات شرار الغضب ونيران
 الندم واللّهف ، وتلمع على الشفاه تارة البسمة الكذّابة وطوراً الومضات الخلاية .
 ويجول المكر في حلقات المتقارمين جولاته الخدّاعة ، والظفر لمن يكون اشدّهم
 احتيالاً وافرهم دهاءً واكتسبهم سرّاً واسترهم شعوراً . وهل من رجل في الدنيا
 أتقى من المقامر حظاً وأسوأ مالاً ، يُجي لياليه في الميسر من التمسق الى الشقق حيث
 يُسرف اموالاً اذخرها بشقّ النفس ، او ورثه ايأها أباه بعد جهد جهيد وعناء مديد ،
 فيجرمها أفلاذ كبده وحشاشات مهجته ، حتى لقد يطوون مراحل الحياة على مجامر

البوس والفاقة ، ويشبون فقراء وُضعا . ليس لديهم مهنة فيرتزقوا منها ، ولم يقتبسوا علماً فيعينهم على معاشهم ، ولم يُبق لهم يوم المِتلاف رأس مال فيتاجروا به . وربما كان بين ليف هذه الأسرة فتيات جمع بين الحُسنيين : حسن النفس وحسن الجسد ، غير ان فقر والدهن وسعته الحيثة كانا من احجز الحواجز بينهما وبين الزواج . وتأمل كيف تكون حال فتاة في بيت ابويها ولا سيما اذا صارت عواناً او بارت بوار السِّلَع .

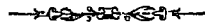
انما كان الأصلح لهذا المقامر أن يطوي ليليه بين اعضاء أسرته معتنياً بما يصلح احوالهم اعتناء الاب البرّ الوفيق والوالد الحكيم الشفيق . او ما كان الأجل به أن يُنفق ما خسره من المال طريفاً كان او تليداً في ما يُريح نفسه ويُسعد اهله ، بدلاً من ان ينفقه في سُبل اورثت جسده العليل ، وفواده الحشرات ، وصدرة الزفريات ، وعينيه أسْحَن العبرات ، وبدلاً من ان يُعرض أسرته لتصاريف الدهر وغيره الساحقة حتى ترزعزت اركان سعدها واضطربت اسباب راحتها وكُدرت موارد بهجتها . فكم من ليلة قضتها قرينته الناضلة ومن حولها صغارها يسألونها عن والدهم أين يُجي سهراته ، فكان جوابها لهم دمعات تترقرق في عينها ثم تسيل احراً من الجمر على وجنتيها ، وتمتهدات محرقة تُصعدها من صدرها الكليم مع انفاسها المتقطعة الملتبحة . وكيف لا تخنقها النصّات ، ولا تُذيبها التلهفات ، وهي غرقى في بحر الهم والغم ، يرشقا زوجها من تلك العرقة الجهنمية بالسهم بعد السهم . ألا تبتأ لهذا الأب الجهول الذي يُعرض ثروته للتأف وأسرته للعطب ، وسحقاً لليد التي ساقته لأول مرة الى لجة الشقاء وهاوية الافلاس . فلو كان قد امتنع عن ان يصحب المقامر الى بيوت الميسر يوم ألقوا عليه بان يصحبهم اليها ، لما الفت قدماء الاختلاف الى هذا الملهى الذي هو ولا ريب مدفن الاموال ومتلقة الاجسام والأعراض ، وكفى أسرته التعسة تلك الفجائع الهائلات والبوائق المصحفات . .

فَإِذَا ان يتفكّر عُشّاق الميسر في عواقبه الوييلة حتى لا يتعرّضوا ولا يُعرضوا أسرهم لنكباته التي يعور في لجتها الصبر ، ومِلَمَاتِهِ التي ألقها أنها تُثقب الذل والعسر ، لتلا يكونوا عبرة لمن اعتبر . والعاقل يتحرّز من أن يكون موعظة لسواه ويُجِلّ

نفسه عن ان يُقدم على امر فيه هلكته ، او يألف عادةً مؤذيةً يتعذر عليه الانعتاق منها حتى تتسلكه . والحكمة كلُّ الحكمة في ان يقف المرء في وجه نفسه موقفَ العزم ، كلما زينت له الإقدام على عملٍ تكون فيه العقبي وخيمةٌ عليه لئلا يستطرقة ويتعسر عليه فيما بعد النكوص عنه .

واكثرُ الناس تهوُّراً واستهتاراً الذين لا يجترسون الاحتراس الواقعي يومَ يُباشرون امرًا مغبُّهُ وبيلةً عليهم . فاذا فعلوه مرةً عاودوه أخرى حتى يشقَّ عليهم تركه ، ولو تمثَّلت لأبصارهم مضارُّه الجسام . وذلك على حد ما يقع لبعض النتيان الأغرار قبل مخالطتهم للشراء السُفهاء ، فانهم اذا رأوا فتاةً خفيرةً امتدَّ سلك الحياء الى ابصارهم فيغضُّونها حشمةً وتضوُّناً ، ولكنهم اذا ابتلوا بعشرة بعض المتهتِّكين المستهترين لا يلبثون ان يتلقَّنوا عنهم احاديث الفحشاء ، ثم يتدرَّجون في ميدان القعَّة والتَهْتِك حتى يبلغوا اقصى غايته . والله اعلم بما يكون من امرهم ، وكيف يكون متقلبهم في هذا الميدان المحفوف بالأخطار والهلكات .

هذا ولولا ضيق المقام لأطلقنا اليراع في هذا الموضوع المهم حتى نتناوله من جميع اطرافه ، ولكننا نقف الآن عند هذا الحد ، ولعلَّ الذي اوردناه من الأمثال على مضارِّ التهوُّر والاستهتار كافٍ لأولي الاتعاظ والاعتبار . فليقيسوا عليه ما لم نذكره مما لا يجنفي على بصائر الألباء



آفات المناصب

كلُّ يري من نفسه ميلاً الى السوود والرفعة والوحاهة ، وهذا امر طبيعي ناشئ عن حبِّ الشهرة والكفِّ بالمجد والمهيام بملوِّ المقام وخلود الذكر . فادا اشتدَّ ذلك الميل في قلب امرئ . صرف كل قواه الى إحراز الغايات البعيدة في مضار العلاء ، فلا يسكن له بال حتى يفوز بأماله ، ولا يبالي بما يقاسيه في سبيل ذلك من العناء والكمد . واذا كان على جانب عظيم من الهمة لا تُقَعِّده وعودة الطريق عن

متابعة مسيره ، بل يذلل العقبات ويمهد المصاعب ، ويزداد مضاً ونشاطاً كلما شئت عليه المطالب وتعمّرت الرغائب .

ولا جرم ان النفوس الأبية المعروفة بالعزائم الماضية هي التي تتنازع اطراف المعالي ومطارف السوؤد ، لان فيها من الأنفة ما يترها عن مهابط الهوان ومهاوي الحمول ، ويرفعها الى روابي العز والكرامة ، بخلاف النفوس الوضيعة فانها تقنع بأدنى الحظوظ عجزاً وصغاراً . واذ كانت القناعة عن ضعف وقعود همة فان صاحبها لا يستوجب الا المذمة ، لانه لو تهيأ له ان يتبوأ مرتبة عليا ، او يفوز بنصيب من الثروة بدون جد وكدح لعد ذلك من الغنائم ، وكان فرحة بالحصول عليه فرح من صادف كترأ بدون نصب . فيلزم عمأ تقدم أن الطموح الى المنازل العالية اذا وقع بصاحبه عند حد التزاهة والعدالة كان من الأمور المحمودة ، لان حب المجد هو الذي يستحث المهم على المشروعات الجليلة والأعمال الخظيرة ، ولولاه لما وُطن الهام نفسه على تقخم المصاعب وتهجّم المكاره والمهالك ، ولما طاب له أن يطوي ايامه ويحيي ليليه في ترويض النفس وصقل الذهن وتهذيب الطبع واكتساب العادات الحميدة ، ولما لذ له ان يخوض غبار المعارك ويقنم لحج المعاطب والمخاطر ، ولما راقه ان يقتل العمر بين صرير الاقلام ومداد الحابر ، ولما سهل عليه ان يحبل نفسه فوق طاقتها بجأ عن اكتشاف حديث او وضعا لمؤلف نفيس يجتد في الدنيا أحدوثته ويعلي بين الأنام شأنه

ومعلوم أن الأمم الراقية لم تدع طريقاً من طرق العلياء الا سلكته ، ولم تترك من العز شأواً الا وقد انتهت اليه ، ولذلك نرى فيما بينهم من ارتفع بمعارفه وأدابه ، وسياسته وتجارته ، واختراعاته واكتشافاته ، وشجاعته ووطنيته . وقلنا نرى بيننا من اقتدى بهم في المدارج التي انتهجوها للارتقاء الى ذرى الرفعة والكرامة . فأين علمائنا اصحاب الاستنباطات الباهرة ، واين ساستنا ارباب الدهاء والحصانة ، وأين تجارنا الذين يتاجرون بمنسوجات معاملتنا ، واين قوادنا البواسل الذين يتهاكرون في الدفاع عن الوطن ، واين محسنونا الذين شيّدوا الأندية الخيرية وغروها بكمارهم وتبرعاتهم ، واين شركائنا الدائبة في انشاء المشاريع الوطنية التي تحيي البلاد وتوسع

نطاق عمرانها ، واين حُكَّامنا الذين يعتنون باسعاد الشعب وإنهاضه من هاوية الذل والشقاء . فجميع ذلك تكاد لاتقع عليه عينٌ في بلاد فسيحة الارجاء كثيرة السكَّان . وانما نرى أغلبنا يأتهم مراتب المجد عن طريق المناصب في الحكومة . وجبذا لو كان في مناصب بلادنا مجد ، وانما هي عبارة عن سرابٍ يُخدع مظهره ويسوء مخبره . ألا ترى طالب المنصب عندنا كيف يسعى اليه بالترُّف والتذلُّل ، واذا ظفر به كان عبداً للحاكم بحيث لا يتجرأ على أن يصدع بالحق اذا كان مولاه من أنصار البطل ، ولا يتجاسر على ان يُنصف بين المترافعين خشيةً ان يُسيء بانصافه الى بعض الأَحْطِياء المتطرفين فيتحاملوا عليه ويُعنوا بجلعه عن منصبه . وأيُّ مجد يناله الاسير والرقيق ، وأيُّ عزٍّ يدركه المقيَّد بارادة غيره ، وأيُّ شرف لمن يعيش ذليلاً وضيعاً ، وآية راحة لمن بيت خائفاً ويُصبح مضطرباً مهموماً . فالى متى يتلاهي وجهاتنا بهذه القشور ، وحتام بتراحم كبرائنا على المناصب ويعتبرونها من اسباب سعدهم وعظمتهم وهنائهم ، والى متى لا نرى في الشعب نهضة الى الارتراق عن غير طريق الاستخدام .

ولا يخفى ان مناصب القضاء والادارة انما أنشئت في الدنيا للقيام بمصالح الجمهور ودفع الظالم والذود عن المحارم وتوطيد دعائم الأمن ، حتى لا يبقى في وجه الشعوب سدودٌ تحول بينهم وبين التبشُّر في مذاهب العمران وميادين المدنية . ولذلك ترى الامم الناهضة لا تعهد في مناصبها الا الى رجال يصلحون لها ، واذا آنت من احدهم ميلاً الى منصب لا يجدر هو به قاومته بجماع قواها حتى لا يلحق أذىً بعباد الله . أمّا نحن فليس عندنا لهذا الامر الجلل شأنٌ ، ولذلك ترى البلبلة في ادارتنا والتأخر في احوالنا . والصحفُ الصادقة الوطنية تنقُ من هذه الاثقال وتبث اولياء الامر الشكوى اثر الشكوى ، وتُهب بالشعب للمطالبة بحقوقه ، وهو غريق في لجة الحمول لا يُرعى سماعاً ولا يُعير التفاتاً

ولقد مرَّ على بلادنا ماينيف على نصف قرن ولم نَرَ للتجج فيها بريقاً ، بل دعادت جدران عزنا ونفدت خزائن اموالنا ، وبارت اراضينا وتلاشت زراعتنا ، وأهملت صناعتنا ، وقلَّ نسلنا وانحطَّت آدابنا وأحلاقنا ، وتقوَّضت اركان ألقنتنا وتفرَّق شملنا . وعلى الجملة فاننا تحوَّلنا من مهاد الراحة واليسر الى حضيض التلق والهوان ،

وهوينا من ذروة الشرف الى دركات الصفارة والضعمة ، حتى اصبحنا حديثاً سائرًا وعظمة
 زاجرة تهددنا عوامل الانتقراض من كل جانب. فإ الذي آل بنا الى هذا المتقلب السيء ،
 أصواتك دكت منازلنا أم لازل حسفت اراضينا ، أم حط نزل ببقاعنا ام أوبشة
 تنفتت في قطننا . لا لعمرى ولما تهافتنا على المناصب هو الذي جر علينا هذه المحن
 وتلك الرزايا .

ينشأ الغني في بلادنا على أسرة النعمة والدلال ، فلا يُقوم له طبع ولا يُصلح
 فيه عيب ، ولا يُقوم له ميل ، وانما يرى على هواه ، فلا يشب حتى يُصبح فواده
 عشاً للشوائب والمفاسد ومنغرساً للملكات الذميمة . واذا وضعه ابواه في المدارس
 يقضي فيها عدة سنوات لا يقتبس في خلالها من المعارف إلا ما يزيد بطراً وخيلاً .
 وقلماً ينصب الموسرون على التحصيل ، لانهم يعتمدون في الغالب على ثروتهم ،
 فيخرجون من تلك الربوع العلمية وهم آخلاء من الادب وأعطال من حلى التهذيب
 ومحاسن العلوم والفنون . ولا يرون لهم ذريعة الى ادراك المعالي الا بان يتقلدوا اعنة الادارة
 والقضاء ، ولذلك يبذلون في هذا السبيل قصارى المجهود ، ولا يدعون طريقاً تُبلىهم
 مرادهم الا يتحمونها . وأغلب الطرق التي يسلكونها ادراكاً لمقاصدهم الترف
 والمدالسة والتذلل والاستطاف ، الى ما هنالك مما يكسبهم الذل والهوان بدلاً
 من العز والوجاهة .

وما ادراك ما يتزل من الاضرار بالبلاد اذا تقلد مناصبها من امثال هؤلاء
 الرجال . ألا فليخافوا الله فيما يلحقون بعباده من الاسواء ، وليتقوا يوماً يناقشهم فيه
 الحساب . ولعلك تقول : كيف تنسب خراب البلاد الى عشاق المناصب وهم عدد نزر
 بالقياس الى سائر الشعب . فتحن ندفع هذا الاعتراض ببراهين شتى لا تُدحض ولا
 يستهين بها الا المكابرون . قل لي رعاك الله ، ما الذي فرّق كلمتنا وغرس الضغائن
 في صدورنا ، ونشر الفتن في ربوعنا ، وعرض وطننا لنواب كادت تطحنه وبلايا
 اوشكت ان تهوي به في اعق لجج العار والبوار . أليس تراحم كبرائنا على مقاعد
 المجد ومجالس العلاء . فأية قرية لا تلعب بها يد التفريق ولا تعصف بين اهليها
 زوابع التحزب والتعصب . أم اى قضاء لا يقوم ولا يقعد انخيازاً الى زيد وكيد العمرو

وتعصباً على بكر ، بل اي رجل لا يحمل لواء التشيع مُعْرِضاً عن الاهتمام بمصالح اهله خدمة لرعي يسير هو تحت لوائه . ومتى تناهت القلوب وتضاعفت الصدور ، فأنذر البلاد بالخراب العاجل .

وبديهي أن حركة الاعمال تتوقف على الاموال ، فاذا لم يكن في البلاد رجال من ذوي الثراء تأخرت التجارة والصناعة والزراعة التي هي من اغزر موارد العمران وآل مصير الشعب الى السوء والانهطاط . ونحن وان كنا لا نخلو من الاغنياء الا ان اغنيائنا هم في حكم الفقراء ، لان دنائيرهم مكدّسة في خزائهم ، لا يُنفقونها في الوجوه العائدة بالنفع على الجمهور ، وانما يستخدمونها لتفسيذ مآربهم وادراك مقاصدهم . وكثيراً ما يتخذونها سبيلاً الى العروج في مصاعد العلا ، بل كثيراً ما يصرفونها في كُتُب بعضهم بعضاً على خلاف ائزاه في الأمم النجبية الراقية . وبسبب نزوب يتابع الارتراق عندنا كثرت المهاجرة التي اورثتنا من المضارّ الجسيمة ما لا يقع تحت احصاء . فلو كانت هذه الفئة الغنية تُطْفئ من صدرها عشق المناصب وتكَبّ على المشاريع المنجحة للبلاد ، لانفعت ونفعت الفئة العاملة ، وصدتها عن التقاتل لأغراضٍ شائنة ليس من ورائها الا الخسران والخذلان . فأملنا في اغنيائنا العقلاء ان يُحلّوا كلاً منا هذا محلّ النصح والاخلاص ويعملوا بمقتضاه . فاذا فعلوا حقاً لنا ان نباهي بهم في كل محضر ، ونلهج بذكرهم الطيب في جميع الاندية . وليكونوا على ثقة انهم يكونون اذ ذاك ارفع مقاماً واعلى مجداً ، لان المجد الحقيقي هو المجد الخالد الناشئ عن حسن الاحدثة وجميل الفعال والخلق . المهمم الله وإيانا ما يوول الى خير الوطن والأمة اللبنانية الكريمة .

العجب بالنفس

احاط العناء علماً بالمضار الفادحة التي تصيب المعجبين بانفسهم المدّعين بما ليس فيهم حتى قالوا عنهم انهم اعداء نفوسهم ، فجاء هذا القول المأثور آية في البلاغة وقطرة من قطرات الحكمة اذ جمع غوائل العجب بأبلغ معنى واوجز تعبير . ولا ريب ان العداة ، مها ساموك من المكاره ونصبوا لك من الاشراك لا يبلغون منك ما تبلغه انت من نفسك اذا كنت من اهل الدعوى ، فاذا حملوا على سمعتك حملة منكرة لا تصادف افتراءاتهم عند العقلاء آذانا واعية لما بينك وبينهم من العداة حتى كأنما يكتبون على صفحات الماء ، واذا حاولوا ان يوسعوك ضيماً استنصرت عليهم بما يقبلك اذاهم ، واما اذا كنت مُعجباً بنفسك فإنك تجني عليها من حيث لا تدري ، تُعرّضها للمهانة وانت تظن انك تستزل عليها التكريم ، وتهوي بها الى دركات الخمول وانت تتوهم انك تسبوها الى اوج الشهرة والمجد . ولا بدع في ذلك فان الصلحاء المستكبرين يسبحون في فضاء الوهم والغرور فلا تروى قدمهم على قمم الحقائق ، ولا تنفذ بصائرهم حجب مساوئهم ، وربما صورها لهم الاعجاب محاسن ، وأراهم حسنات غيرهم سيئات . حتى لقد يزعمون ، على شدة فاقنتهم الادبية والعلمية ، أنهم من نواضع عصرهم ونوادير زمانهم . فاذا تكلموا تخيل لهم أن الحكمة تتدفق من أسلات لسانهم ، واذا كتبوا وهموا ان البلاغة تسجد ليراعهم والسحر يقطر من نفثات بيانهم ، واذا خطبوا تخيل اليهم ان الاسماع اصداق الآلى اقوالهم ، والاضاليل اهداف للوامع برهانيهم ، الى ما هنالك من الاوهام التي تتصّبب من مخيلتهم جارفة معها ما لهم من الكرامة في الالباب ، فيستيقظون وهم فوق طوفان من المثالب تتدافع على متنه المخازي من كل جانب .

وبديهي^٤ ان العجب لا يرى له على الغالب مرتعاً خصباً الا في العقول القاصرة ، ولا يجد جواً فسيحاً الا في قلوب الاغرار الذين جاد عليهم العلم بشيء من العرفان فظنوا اذهانهم منبسطاً لأنواره ومتحفاً لأناره ، حتى تعطرسوا وبسطوا اجنحتهم على ارباب التحقيق . ولا جرم ان ذلك من نتائج الجهل الفاضح الذي لا يتبدد معه

النظر الى سماء الخفائق ، ولولاه لعرف كل حدة^٣ وشعر بقصوره ولم يتجاوز طوره
وربما سرى العجب في عروق الكتاب المتأدين فكان سداً منيعاً دون تعنتهم
في المعارف . فلم يعلقوا في حباته لبغوا في العلوم نبوغاً باهراً ، ولكنهم قبل ان
يُرووا ظمأهم من مناهلها الصافية اخذتهم نشوة الحيسلاء بما ترشّفوه من كروس
المذاهنين ، حتى توهموا انهم قبضوا على نواصي العلم واحاطوا باطرافه . ولا تعجب من
ذلك فان اصحاب الدعوى والصلف ، بما يترآكب في اذهانهم من أجرة الكِبْر لا يرون
احداً ابعد مدى في العلم منهم ، وان الحدّ الذي انتهوا اليه هو الحد الاقصى ، ولذلك
يتقاعدون عن الاستفادة والاستزادة حتى يتقدمهم في المدارك من كان دونهم فطنةً وذكاءً
ولا تسلم عما يحوق بذوي العُجب من ضروب الهوان والخسران ، فانهم فضلاً
عن تقهقرهم في المعارف وتقصيرهم في جميع الفنون يستهدفون للتثريب والتقرّيع
ويُثيرون عليهم سخط الجمهور ، ويغرسون الضغائن والحزازات في الصدور حتى
يعيشون بلا نصير ولا ظهير . ولا تستغرب ان تضرب التعديرات من حولهم نطاقاً ،
فان نفوسهم الصلفة مجتمعة المقابح والعيوب ، وألسنتهم عقارب لدأغة ورووسهم مثار
للخيلاء ، فلا يحترمون من يستوجب الاحترام ، بل يمتنون ما يأتيه غيرهم ترفعاً
واستصغاراً ، ولا يريدون الا ان يحتسبوا العظمة ويحتكروا الإطراء ويختصوا
نفوسهم بالجلالة . وليت شعري كيف يقوى ارباب الأنفة على تحمّل هذا المي
الثقل ، بل كيف يطيق اهل المعرفة الراسخة ان يسحب عليهم ذيل الكبرياء من
هم عند هذه الدركة من الشطط والعباوة .

ولهذا السبب حرّز الحكماء من مخاطر العُجب وانذروا المجتمع بعواقبه القتالة
حذراً من ان يسم قلب العمران ويتزع جذور التآف . ولا شك انه من أضر الشوائب
بالانسانية واهدما لمباني المدنية واسدّها لأبواب النجح ، ولذلك لم تناسك عن ان
نطيل نفس الكلام على مضاره الباهظة ، حتى اذا تحطّم هذا الحاجز المتين ، الحائل
دون تقدّمنا جرينا في ميدان الفلاح ابعد الاشواط .

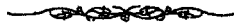
وأبهظُ خسارة يتزلها العُجب بالاعداث انه يُقعدهم عن الترتي في مدارج العلوم
والآداب ، ويثنيهم عن تثقيف اخلاقهم وترويض نفوسهم ، اذ يثقل لهم انهم اصبحوا

من التأدب والترويض بحيث لم يبقَ لهم حاجة للاستزادة من المحاسن ومكارم الاخلاق،
 وأمسوا من المعارف على حظٍّ وافٍ يفنيهم عن الاستفادة بشروح أستاذهم ، ولذلك
 يصبحون صعبى المقادة مترفعين عن الانتصاح والاستيضاح ، متقاعدين عن الاقتباس
 والتحصيل فيحرمون فوائد شتى . ولا يزالون يتدرجون في صلابة الرأي الى ان
 تهبط نفوسهم الى غور النقص والغواية . فاذا فطنهم احد الى عطر ارتكبه ، او حذرهم
 من عيب امتزج بنفسهم ظنوه تماماً منه وابتوا على مركب الضلالة ، يتعذرون في
 مغازرهم ، موثرين التقلب في غيهم على ان يرجعوا الى مُرشد يُنهيهم في المسائل
 العويصة سوابل الهدى والسداد ، وذلك مخافة ان يشعر الناس بقصور نظرهم اذا
 استعانوا بغيرهم . وهناك سلسلة من المعاييب يُطوّقها اغناقهم الصلفُ والدعوى .

واما الكبار فلا تسل عن مخاسرهم اذا لعبت بنفوسهم حُتياً الادعاء ، فانهم
 ينقطعون عن الاستشارة والاستصاح ويستبدون بادارة شؤونهم ويستصوبون كل
 ما يُجرونه من الاعمال ، فاذا انتقدهم احد لمغمر فيهم حملوا انتقاده العادل على محل
 الحسد والمقت وأبطنوا له الضغينة والعداء ، ولا يروقههم الا ما يُنشئونه ولو تراحت
 فيه الشوائب والمظان ، ولا يلدن لهم الا اطراء افعالهم والاعجاب باقوالهم ، واذا وقع
 في مسمعهم ثناء على فاضل لمأثرة اتاها او تنويه بها لمقالة نعتها وشأها مجت
 آذانهم عبارات التقريظ ونسبوا الى الغلو والمداهنة ، ولم يألوا جهداً في تحقير ما اكبره
 المنصفون وتصعير ما أعظمه المحققون ، ولا يزالون في سكرة الاعجاب وهم متشاغلون
 عن إصلاح طباعهم المختلفة وبراء اذواقهم المعتلة الى ان يذوقوا من عفتهم ما يكدر
 صفاء الحياة .

على ان العُجب وان كان غايةً في القبح في جميع الطبقات فهو في الرؤساء اقبح
 صورةً واسوأ عاقبة ، لانهم يشغلون مقاماً تدور على قطبه مصالح الجمهور . فاذا
 ادعى الرئيس العصمة حتى استقل باشغاله وانفرد باعماله، ولم يستصحب بآراء العقلاء
 ولم يقف عند نصائح الحكماء ، فلا تسل عن مواقع الخلل في ادارته وموضع النقص
 في احكامه ، ولا تأخذك الدهشة اذا رأيت إعراضاً من قومه عنه ، ولا تعجب
 للانتقادات العنيفة أن تنساقط على افعاله واجراءاته ، اذ انه لا يقنع لناصح ، ولا

يستمع الى مُشير ، ولا يلتفت الى مخلص ينتبه الى غفلاته ، ولا يميل بسعده الى مرشد يده له على عثراته ، حتى لقد يشطّ فيا يُجويه ، ويضلّ فيا يرتثيه ، ويزيغ فيا ييرمه وينقضه ، ويثيه فيا يُقرره ويدحضه ، وهو مع ذلك يتناول على مرؤوسيه ويستبدّ بشؤونهم ويستخفّ بمصالحهم ، فلا يضبط لهم امراً ، ولا يُحكم لهم شأنًا ، ولا يُقوم لهم معوجاً حتى ترى اللبلة فاشيةً في تصرفاته منتشرةً في أعماله واشغاله ، وحتى تراه على حال لا يُحتمق معها املٌ ولا ينجع فيها علاج ، فيقضي العمر سقيم الرأي قرين الخلل حليف الاضطراب اليق المهانة ، ويودع الحياة وهو خجلٌ من صفحاتها السوداء . وقانا الله شرّ العُجب ، واوقف كلاً متاعند حدّ نفسه ، فان في معرفة الحدود برهاناً على فضل العقل والكمال ، وفي تعديها دليلاً على الحمق والسفخ والضلال



الاستئثار او الغلو في حب النفس

هو الداء الوييل الذي يلازم الانسان من مهده الى رسمه ، فاذا استحكمت من خواده افسده وأعماه وشغلته عن ابناة جنسه . بل هو الفرس الجروح الذي يقود راكبه الى مهاوي الضلال والغواية . بل الحاجز الكشيف بين العقل والهدى والرابط الوثيق بين القلب والهوى ، والعدوّ الاشدّ للحقيقة والصواب والصدق والاخلاص . بل هو منبت الرثاء ومطلع الحور ومعدن الطمع والشهه . بل الحاكم الظالم الذي تظلمت البشرية من زيغ أحكامه ، ورزحت المدنية تحت يواهظ أثقاله . ولا بدع فان المستأثر تتلاعب في صدره الاهواء وتترامى به من نقيصة الى نقيصة ومن دنينة الى دنينة ، حتى يصبح عشاً للذائل ومغرساً للمخابث والمفاسد ، وحتى يرتكب من المنكرات ما يجعله في ساقه الأوغاد ، وتهبّ في قلبه عواصف الحُبث والرداءة فقتستأصل منه العواطف السريفة والتزعات العالية بحيث يصبح اسير مطامعه رقيق ميوله ، تناديه المروءة فيصمّ أذنيه عن اجابة ندادها وتتصدى له النفوس المنكوبة فيتمامى عنها قسوةً وعنفاً . ولذلك تراه وحيداً في المحن لا يرقّ احد لبلواه ولا يواسيه في يواساه .

وحسبُهُ من الحُسران أن الناس لا يعقدون عليه املاً ولا يوتجّون منه خيراً، ولا يقبلون منه نصحاً ولا يُحسِنون به ظناً. لانه اذا وعد أخلف واذا سعى فلنفسه، واذا اتّشّن غدر واذا استشير خدع، واذا عاهد نكث واذا نالته نعمة كفر بها . وكلُّ امرئ من هذه المعاييب حريٌّ بتغيير القلوب عنه والإعراض عن صحبته . وما تكونُ حال امرئ يتجافى عنه معارفه ويخذله اصحابه وينقبض عنه اهل وطنه ، فهو كالمضو النّين لا يفيد الانسانية ولا يستفيد ، فلأن يُبتر من جسمها أصلحُ له ولها

ومها اُتّسعت حالُهُ فلا يطمئنُّ له جانب ولا ينطبق جفنه على لذة الكرى، لان هواء التّرقّد في جنبانه لا يزال يُجبي فيه المطامع ، ويُثير التّزعات الكامنة احرازاً لما تُحدّثه به النفس ، وهيبات أن يفوز بما يتحرّاه من جسيات المطالب، وهو عند هذا الحد من الحُساسة والحرص والحسد والاستنثار . وهبُ أنه استوفى حظه من مباحج الحياة واطايبها، فلا يسكن شرهه ولا يُروى ظمأهُ، لأنهُ يريد أن يسابق جميع الاقران في كل ميدان مع انه من اعجز الفرسان، فاذا تحلّف عنهم لزمه المهْمُ وشبّ في صدره التعم ، حتى ينبو عن مضجعه جنبه ولا تذوق مقلّته طعم الرقاد .

ولا تسلّ عن المحظورات التي يجترحها المستأثر وصولاً لما يتوّخاه من الرغائب ، فانه لا يستنكف من الكذب والبُهتان ولا ينجل من مواطن الذل والهوان، ولا يستعبي من الحيانة والمكر ولا يخشى مغبات الانساد والنسيمة ، ولا يُهشّه ان يجثّ ذكره ويسقط قدره ، وانما يطيب له ان يظفر بجميع امانيه ولو عانى من ضروب العار والمهانة والحُسف ما يضيّق به الصدر .

وبديهيّ ان الاستنثار اكثرُ ما يُستجيب في اولياء الامر الذين في يدهم زمام العباد . فاذا تمكّن من نفوسهم اقدمهم عن الاشتغال بمصلحة الجمهور، وصرّف كل قواهم الى خدمة مصالحهم انفسهم . وحينئذ لا يتألكون عن ان يستزفوا ثروة البلاد بالطرق المحظورة لينفقوها في الوجوه التي تناسب اهواءهم وتعود الى تعزيز مقامهم ورفعة شوّرتهم . وما كان احراهم بان يراعوا جانب الحق ويضعوا الى صوت الضمير الذي يُحثّهم على تقديس الحقوق وتزويه كراسي القضاء والسيادة عن الاستنثار والاستبداد، وكلاهما من اقبح المساوي . واشنع الشوائب ، ولا ريب ان الرّعيم اذا قصرَ عنايته

على خيره الخاص وضع بينه وبين مرؤوسيه سداً قوياً ، فينفرون منه ويحتدون عليه ويخذلونه اذا استنصر بهم ، وربما تألبوا عليه متى امكنتهم الفرصة منه وثلثوا عرشه تحت قدميه . وهل من رجل اتعس حالاً من رئيس يظهر لمرؤوسيه بمظهر العدو ، ولا يطيب له الا تذليلهم ولا يذله الا تقهرهم . ومتى بلغ سوء الظن بالروساء الى هذا الحد كانوا افتك من الأوبئة البطاشة .

علي ان رذيلة الاستنثار لا تحل في قوم الا اهلكته ، ولا تُقيم في مجتمع الا قوّضت دعائمه . فاذا رأيت في بطانة الرجل انقساماً وحقدًا وحسدًا واعتياباً فلا تشاك ان حب النفس المفرط هو الذي بدد الألفة من بينهم وانزل في محلها الوحشة والجفاء والنفرة . واذا وجدت التعصب ناشراً في أمة اعلامه وابصرت ان الوطنية ليس لها عند اهله شأن فاحكم ان الاستنثار متغلب على نفوسهم ، يفترس منها المحبة والائتلاف والمبادئ الشريفة والعواطف السامية . واذا نظرت الى معهد لا يُخرج للبلاد شيئاً يعزّونه بعارفهم الواسعة وآدابهم الرائعة فتبين ان مديري ذلك المعهد قد آثروا المكاسب الدنيوية على التربية السديدة والتعاليم الصحيحة . واذا وقع بصرك على لجنة تداعت جدرانها بعد ان كانت موطدة الاركان ، وتشتت شملها بعد ان كان على اقوم نظام ، فبني أن محبة الذات هي التي انتجت ذلك التشعب وفككت تلك السلسلة . واذا عاينت مجلساً تدب فيه عقارب الاعتياب والحُبث والرئاء فلا يخالجن ضميرك ريب في ان هذه المحبة الممقوتة قد دبّت في عروق اربابه فسنت دماءهم ومزقت وحدتهم وافسدت نياتهم . واذا رأيت قوماً فرق فيما بينهم اختلاف المذاهب ، وهم اخوان في الوطنية ، فقل ان الاستنثار الذميمة هو الذي غرس في صدورهم ذلك الروح الحُبث وبث في اذهانهم تلك الافكار السافلة . وقصارى الكلام انه حيث يكون الاستنثار لا تكون غيرة ولا مروءة ولا حمية ولا اشرف ولا انصاف ولا اتحاد ولا قوة . ومتى خلت الديار من هذه المزايا التي هي من اقوى دعائم العمران والتقدم ، فأنذر اهاليها بالخراب والوار عاجلاً او آجلاً . وفي الله البلاد شر هذه النقيصة الذميمة ومهد لها عقبات التجرد والنخوة والتهاك في سبيل المصلحة العامة حتى لا تتخلف عن سائر البلدان النشيطة في مضمار الغز والمجد .

مضار المسكرات

ألف سوادُ الناس في هذه البلاد معاورة المسكرات حتى أصبحت فيهم ملكة لا يرون عنها محيداً ، وأكثرهم يشغلهم الالتذاذ بها عن التبصّر بعوائلها الفتاكه ، فلا ينتبهون لمضارها الا بعد تدرجها بهم وتغليبها على ارادتهم السقيمة الضعيفة ومن المعلوم ان الذين يدمنون شرب المسكرات انما يتصلحون منها في اول الامر كمية قليلة، ربما احدثت في نفوسهم على قلتها انقباضاً واشماتزاًء اذ لم تألفها بعد اجسادهم ، ثم يتدرجون في الاسترادة منها حتى اذا لعبت سورتها في رؤوسهم ودب دبيبها في عروقهم ارتاحوا الى معاقرتها ارتياحاً يجعلهم بعد مدة من السكّيرين الشرهين والمعاقرين المفرطين . ومنهم من يقتصر منها على قرح يتناوله قبل الاكل تفتيحاً لشهوة الطعام وتفكيكياً للنفس ، غير ان هذه الفئة قلما تأمن تجاوز حد الاعتدال في الشرب ، فيؤول بها الامر الى ما لا تحمد عقباه .

وبديهي ان السكّير لو عرف ما أتزله به المسكرات من المحن قبل الاقدام على شربها ، لتفوت منها نفسه كما تفوت من السم الذعاف . كيف لا وهي تؤهن جسده وتضعف بصره ، وتطنّي شعله ذهنه ، وتجعله شرس الطبع خائر العزيمة فاتر الهمة بل تفسد في الجملة دينه ودنياه ، وتعرض أسرته لاشدّ التوازل وافتك الآفات . واذا كنت في ريب من ذلك فانظر اليه وهو على مائدة الشراب متلجلج اللسان محمر العينين مباد الرأس يكاد يُغشى عليه ، وكثيراً ما يتقيأ ما شربه حتى تتقرّر العين من مرآه ، فاذا حمل الى بيته أوسع أسرته سباباً وشتماً وتجديفاًء وربما انهال عليها بالضرب ، فتأملوا في سوء حاله وحال أسرته الشقية به

على ان السكّير يكون في الغالب قصير الحياةء يُدركه العجز في كهولته وهو معرض لعلل موبقة أهتها تصلب الشرايين وما يتفرّع عنه من الامراض القلبية والرئوية . ولو لم يكن للمسكرات غير هذه الاضرار لكان التحرّز من شربها فرضاً على من فيه مسكة من العقل ، ولكنها تتطرق مضارها الى النفس والاخلاق

فُتْعِمِي البصيرة وتُفْسِدُ حِكْمَهَا ، وتَضْرِبُ سَدًّا بَيْنَهَا وبين المدركات ، وتتناول
الذاكرة فتحجو من صفحاتها محفوظاتها السالفة وتذكاراتها الغائبة ، وتُحْجِزُهَا عن اذخار
ما تريد اذخاره من المقولات والمتولات . ثم انها تجمل في الطباع خشونة وشكاسة ،
فيغضب السكّير ويعرّب من لاشي . ويُسْمَعُكَ من احاديث البطولة والحماسة ما
يُضْحِكُ الشكلي ، وكثيراً ما يسلق ندماءه بقوارص كلامه ولواذع لسانه ، ولا سيما
اذا خالفوه في رأيه . وبما يزيد في بلائه أن ضرر هذه العادة غير مقصور على السكّير
وحده بل ينتقل الى ذريّته ، فينشأ اولاده وحفدته بِلَهَاءِ العقول هازيل الاجسام ،
سبّتي الاخلاق ، ضِعْفَاءِ الارادة والحافظة ، متاخيب جنباء ، من اهل الاهواء ،
مُعْرَضِينَ للسّل الرئوي ، ويكونون في الغالب سكّيرين لان السكّير لا يلد الا سكّيراً
كما انه لا يُنْجِبُ وان كان نجيباً .

قلنا وبعد ان رأيت ما رأيت من عواقب المسكرات الوخيمة فلا تعجب اذا
اتفق الدين والشرع على تحريم معاقبتها والافراط من شربها ، اذ تقوّض اركان المجتمع
وتقضم عرى الوئام بين اعضاء الأسرة ، وتُفْسِدُ الاخلاق ، وتُذَيِّبُ الاجسام ، وتضعف
الاذهان ، وتُتَلَفُ النسل ، وتُثِيرُ بركان الشهوات ، وتحمل على ارتكاب المعاصي
والمسكرات . وهل من داء ادوأ من هذا الداء الدوي ، وهل من جناية افظع من
جناية الآباء اذا ادمتوا شرب المسكرات وانزلوا بنفوسهم ونفوس بنينهم كل هذه البلايا .
الا فليستوا الله في فلذات اكبادهم ، والا كانوا اقصى من الضواري واصلب من الجلامد .
وما اشدّ ما يكون عقابهم يوم يناقشون الحساب امام منبر القضاء . وما يكون
مقامهم عند ابائهم يوم يعلم هؤلاء ان اللعل التي حلّت بهم انما ورثوها من والديهم
السكاري . .

باب الشعر

الملاححة الجوية

فَتَحُوا السَّمَاءَ وَطَارَدُوا الْعُقْبَانَ
 وَالْجَوْثُ وَدَعَّ عَزَهُ وَهِنَاهُ
 وَالرِّيْحُ قَدْ سَلَسَتْ مَقَادِئُهَا لَهُمْ
 اللَّهُ دَرَهُمْ إِذَا مَا أَطْلَقُوا
 فَتَخَالَهَا عِنْدَ الْمَهْبُوطِ صَوَاعِقًا
 تَحْكِي الطَّيُورَ بِشَكْلِهَا لَكِنَّا
 لَوْ حَاوَلَ النَّسْرُ النَّفْيَ لَحَاقَهَا
 أَوْ لَسْتَ تَحْسِبُهَا وَقَدْ طَارُوا بِهَا
 أَمَا جَنَاحَاهَا فَلَا تَطْوِيهَا
 فَإِذَا ارْتَقَتْ قُبُوبَ السَّجَابِ وَحَلَقَتْ
 مَا كَانَ أَبْدَعُ مَشْهُدًا عَايِنْتُهُ
 شَاهَدْتُ «فَدْرِينَ»^(١) الْجُرِّيَّ مَحْلِقًا
 مِنْ فَوْقِ مَرْكَبَةٍ يَجْرُكُهَا كَمَا
 لَمَّا دَنَا وَقْتُ الرِّيحِ لَسَعَتْ مِنْ
 زَفْرَاتِ مَصْدُورٍ تُصَدِّعُهُ النَّوَى
 حَتَّى إِذَا حَمِيَتْ مَرَاجِلُهَا جَرَتْ
 قَالُوا بِسَاطِ الرِّيْحِ وَهُمْ كَاذِبٌ
 مَنْ كَانَ يَحْلِمُ أَنَّ أَطْبَاقَ السَّمَاءِ
 مَنْ كَانَ يَحْسِبُ أَنَّ مَضَارِ الْمَوَا

وَجَرُوا عَلَى مَتْنِ الْمَوَا فُرْسَانَا
 مَذَّ صَيْرُوهُ لِحَيْلِهِمْ مَيْدَانَا
 حَتَّى غَدَتْ مِثْلَ الذَّلُولِ لِيَانَا
 لِلْمَرْكَبَاتِ السَّابِحَاتِ عِنَانَا
 وَإِذَا تَعَالَتْ خِلَتَهَا بِيْرَانَا
 أَمْضَى جَنَاحًا بَلَى أَشَدُّ جَنَانَا
 لَا رَتْدَ خَوَارِ الثُّورَى عَيَانَا
 كَالْبَرْقِ آتَا وَالسَّهَامِ أَوَانَا
 حَتَّى يَكُونَا لِلهَوَا مِيْرَانَا
 وَقَفَ الْعُقَابُ إِزَاءَهَا وَلِهَانَا
 يَسِي الْقُلُوبَ وَيَفْتَنُ الْأَذْهَانَا
 كَالنَّسْرِ يَسْبَحُ فِي السَّمَاءِ جَدَلَانَا
 يَهْوَى فَتَخَفِقُ تَحْتَهُ خَفَقَانَا
 أَحْشَانَا مَا يَبِيعُ الْأَشْجَانَا
 فَتَشْبُ فِي اضْلَاعِهِ نِيرَانَا
 كَاللَّيْثِ يَزَارُ فِي النَّفْلِ غَضْبَانَا
 فَإِذَا بِهِمْ قَدْ شَاهَدُوهُ عَيَانَا
 سَتَّخُمُ فِي رَجَبَاتِهَا سُكَّانَا
 سَيَصِيرُ يَوْمًا بِالْوَرَى غَضًّا

(١) هو أول طيار خلق في سماء بيروت

فَبَنُوا لَهُمْ فِي جَوْهَرِهِمْ أَوْطَانًا
 مَلِكَ الرِّقِيعِ بِبَاسِهِ أَرْمَانًا
 لَا يُمَجِّزُ الْإِنْسَانَ فِيهِ مَكَانًا
 فِي الْجَوِّ تَحْمِلُ فَوْقَهَا الرُّكْبَانَا
 فَاللَّهُ خَوْلَ آدَمَ السُّلْطَانَا
 خَرَقُوا السَّمَاءَ وَسَخَّرُوا الْآكْوَانَا
 حَتَّى رَأَيْتَ بِجُودِكَ الْإِنْسَانَا
 هَدَمْتَ لَهَا أَيْدِي الْوَرَى الْأَرْكَانَا
 تَطْوِي الرِّقِيعَ وَتَنْثِي نَشْوَانَا
 أَوْجَ النَّبَاهَةِ يَنْشُرُ الْعَمْرَانَا
 يَقِفُ اللَّيْبُ أَمَامَهَا حَيْرَانَا
 سِحْرًا وَنَحْسَبُ رَبِّهَا شَيْطَانَا
 تَلِدُ الْعُلُومُ الْمُعْجِزَ الْقَتَانَا
 يَسْقِي الصَّدُورَ مِنَ الْعُلُومِ لِيَانَا
 أَوْ لَمْ تَرِيدِي صَنْعَهُ إِتْقَانَا

فَالْأَرْضُ لَمْ تُشْعِجْ مَطَامِعَ أَهْلِهَا
 لِخَفِضِ جَنَاحِكَ أَيُّهَا النَّسْرُ الَّذِي
 قَدْ كُنْتَ تَرْعَمُ أَنَّ مَلِكَكَ خَالِدًا
 فَإِذَا بِهِ وَالْمَرْكَبَاتُ سَوَابِحُ
 لَا تَأْخُذُكَ حَيْرَةٌ بِمَا جَرَى
 أَيْنَ الْمَفْرُءُ مِنَ الْأَنْثَامِ فَإِنَّهُمْ
 مَا كُنْتَ تَخْشَى فِي حِمَاكَ مُزَاحِمًا
 فَلَقَدْ مَضَتْ يَا نَسْرُ دَوْلَتُكَ الَّتِي
 وَمَضَى زَمَانٌ كُنْتَ فِيهِ مُنْمَعًا
 يَأْشُرُقُ مَا لَكَ خَامِلًا وَالْقُرْبُ فِي
 أَفْلا تَرَاهُمْ يُجَدِّثُونَ غَرَائِبًا
 مِنْ كُلِّ مُعْجِزَةٍ نَكَادُ نَعْدُهَا
 لَا، لَيْسَ مِنْ سِحْرِهِ نَاكَ وَإِنَّمَا
 سَقِيًّا لَصَدْرِكَ يَا فَرَنْسَا إِنَّهُ
 أَيُّ اكْتِشَافٍ لَمْ تَكُونِي أُمَّهُ



وطني المفدى

وَقَلْبِي لَا يَوَدُّ سِوَى عُلَاكَ
 وَمَا عَوَّدْتَنِي إِلَّا وَفَاكَ
 وَكَمْ أَجْهَدْتُ فِي مَدَدِي قِوَاكَ
 عَلَى فِكْرِي الْمُحَلِّقِ فِي سَمَاكَ
 وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ مَاتُوا فِدَاكَ
 فَفَزَّرْتَنِي وَشَرَّفْتَنِي هَوَاكَ

سَوَادُ الْعَيْنِ يَا وَطْنِي فِدَاكَ
 نَشَأْتُ عَلَى هَوَاكَ فَتَى وَفِيَّا
 فَكَمْ عَزَّزْتَنِي وَرَفَعْتَ شَأْنِي
 وَكَمْ أَتَزَلْتُ مِنْ وَحْيٍ جَمِيلٍ
 أَيُّهَا وَطْنُ الْأَسْوَدِ فَذُنُوكَ نَفْسِي
 رَضِعْتُ مَعَ الْحَلِيبِ هَوَاكَ صِرْفًا

فدى شرف تسلسل في دِماكا
وأبقى في الضريح على ولاكا
وهل يحمي بنيك سوى حماكا
وليس يذود عن شرفي سواكا
شفائي الأرز ينفع في رباكا
وقد نشق القواد شذا ثراكا
وحسي نعمة آني أراكا
يفوح بكل ناحية شذاكا
وأجري طبق ما يهوى علاكا
وأنت أرتني بسنا هداكا
حساماً في يديك على عداكا
وحسي عزة آني فتاكا
إذا ما حاولوا يوماً إذاكا
ببذل الروح إن خطب دهاكا
وفوقى بات خفأفا لواكا
وما ضل الألى عبدوا بهاكا
بجحك بعد أن نشقوا هواكا
متى أدركت في العليا مداكا
متى استوفيت حظك من هناكا
بني للمجد صرحاً في ذراكا
أنالك ما تعذر من مناكا
كسالك من المفاخر ما كساكا
وما أشهى المنية في رضاكا
جبال الأرز تؤنسني صباكا
سوى كفن تطرزه يداكا

سأبذل مهجتي ودمي وقلبي
وأرعى عهد حيك كل عمري
فما لي في سواك حمى منيع
لقد أبيت لي شرفي موصولاً
إذا ما انتابني داء عزال
وكيف يلم لي داء وبيل
لأنت حديقتي ونعم روعي
سأشرك في الوري ذكراك حتى
وأجعل في القواد هواك ديناً
لأنت سقيتي علماً زلالاً
وأنت حملتني في كل خطب
فصرت فتاك في كل اللواهي
أكره على اللمدى لئلا هصوراً
ولي قلب جري لا يبالي
وكيف أخاف غارات الاعادي
جعلتك بعد ربي خير رب
ولم يخطئ بنوك وهم سكارى
ستدرك مهجتي غر الاماني
وأرشف في الحياة ألد كاس
فكم أنجبت من مولى خطير
وكم أنبت من بطل كمي
وكم نشأت من حر آبي
عليك وقت يا وطني حياتي
إذا ما مت فاحفر لي ضريحاً
ولا تجعل لجسمي يوم دفني

اللغة العربية على منبر الخطابة

واللغاتُ الحسان تهوى الخلودا
 بل كسوني من العلاء بُردا
 قلّدتَه يدُ القريضِ هُودا
 وُيريكَ الجان فيه نضيدا
 راقَ وشياً ولا يزالُ جديدا
 كلَّ شاذٍ يُسكِّتُ الثرِيدا
 ما رأوه من المعاني فريدا
 خُطباتي وارقصوا الجلمودا
 حكماً تجعلُ الضلُولَ رشيدا
 لا يُجلبِي بغيرِ دُرِّي الجيدا
 أبصرَ الأسدَ والاباةَ الصيدا
 ورأى اللُطفَ كيفَ يأوي البيدا
 ومَلأتِ الزمانَ عزاً وجودا
 رفعَ العُجمُ في الرُئي لي بُنودا
 وتجاوزتُ في السِّباقِ الحدودا
 سُنَّةٌ لا أُطيقُ عنها مَعيدا
 حولَ عُنتي القيودُ تَعلو الثُيودا
 وكثيرون يَنكثون العهودا
 في سبيلِ الرِفا وحِدي شَيدا
 هيَ كانتَ علي كَمالي سُهودا
 لا ترى في الجلي لمن نديدا
 يجعلُ المحتمى به صنديدا

كُتِبَ اللهُ لي البقاءَ مديدا
 ما جفاني من نشأتي قطُّ ولدي
 أيُّ نحرٍ بين اللغاتِ كنعري
 أيُّ صدرٍ يجوي الكنوزَ كصدري
 في الفياقي نشأتُ لكنَّ بُردِي
 سُعراني قد أحرسوا بالقواني
 حَلَّقوا في العلي نُسورا وصادوا
 ولكم رنحُ المنابرِ خفرا
 فتصمَّحَ أسفارهم إنَّ فيها
 كلُّ نذبٍ يخوض بحرَ بياني
 واذا ما تلا تراجمَ قومي
 ورأى الذوقَ في الفلا حَضْرِيَا
 قد طويتُ الزمانَ عصراً فعصراً
 وتفرَّدتُ بالبلاغةِ حتى
 عجزَ الناسُ عن لحاقِ عُباري
 إنَّ حفظَ الذمامِ قد باتَ عندي
 أيُّ عهدٍ قطعتهُ كان منه
 واذا ما وعدتُ انجزتُ وعدي
 إنَّ نفسي تطيبُ إن يقضَ يوماً
 والمعالِي وقد بلغتُ مداها
 نخوةً في حَماسةٍ في إياه
 وجواري للخائفين ملاذاً

كيف أخشى العدى وحوالي سور
 كيف أخشى غارات ريب الليالي
 كيف أخشى ذبول روضي وعندي
 معهد قد لقيت في جانبيه
 يوضعُ النشء من ثدي حليباً
 يا بني العرب عززوني فتحيوا
 وانثروا في الملا ماثر قومي
 كانت العرب في الحيام ملوكاً
 كانت العرب أرحب الناس صدراً
 لا يرون الوفاق الا نعيماً
 فانبدوا منكم التنافر حتى
 وتباروا في ما يُفيدُ فلاحاً
 انا الشرق في الجهالة عبد

من قلوب بها أفل الحديد
 وامامي لبنان يدمي الأسود
 منهل طاب مصدراً ووروداً
 عطف أم على الوليد وحيداً
 فيشبُ الفتي حُساماً حديداً
 وأذيعوا في الأرض ذكري الحميدا
 وتحدوا بالمكرمات الجدوداً
 أتكونون في التصور عبداً
 ولدى الضيم اصلب الناس عوداً
 ويرون الشقاق خطباً شديداً
 تجملوا العز في البلاد وطيدا
 وابدلوا في العلوم جهداً جهيدا
 فارفعوه بالعلم حتى يسودا

الهزار الصداح

مرحباً بالهزار يشدو طروباً
 نعات تجلو الهموم عن الصد
 ما غناه الهزار الا مدام
 إنما الطفل بلبس يتغنى
 إنما الطفل زهرة تملأ العي
 انا الطفل كوكب يلبس الرب
 حبذا الطفل يوم يمرح ريماً
 فوق غصن الدلال يسبي القلوبا
 ر وتغني عن الفواد الكروبا
 يتمسى بين العروق ديبيا
 في حماه فيخرس العندليا
 ن جالاً وتغتم النفس طيبا
 ع رداء من البهاء قشيا
 بين سرب الطبا ويمدو وثوبا

للمعالي وللعلوم كُتُوبا
 وله عزيمةٌ تُذَلُّ الصَّوْبا
 وله الرأيُ كالشَّهابِ نُقُوبا
 وله فكرةٌ تُريه العُيوبَا
 إِنَّ مِنْ حَوْلِكَ السَّمِيعَ المَجِيبَا
 فتنقَّلْ على الصدورِ حَبِيبَا
 ترتجِي أَنْ تَرَكَ نَجْلاً نَجِيبَا
 وارِعْ مِنْهُ مَرَعَى الحَنَانِ خَصِيبَا
 بدلالٍ يَكُونُ سِحْرًا مُذِيبَا
 حَبِّدَا الأَنْسَ بالبَتِينِ نَصِيبَا
 حينَ تَعْدُو كَدَنَ القَوَامِ رَطِيبَا
 في هَوَاكِ الغَرِيبِ يُحْكِي النَسِيبَا
 واذا ما نَطَقْتَ تُعْبِي الخَطِيبَا
 كان مَجْرَى الكَهْرِبَاءِ عَجِيبَا
 كان كَالنَّارِ في الصَّدُورِ سُوبَا
 من سَقَامٍ يُعْبِي الطَّبِيبَ الأَرِيبَا
 رارها حينَما تُغْفِي طُرُوبَا
 وَسَمِعْنَا بَعْدَ العِنَاءِ نَجِيبَا
 زَاخِرَاتٍ فَحُضَّهِنَّ لُغُوبَا
 فَتَوَهَّمْتَهَا سَرَابًا كَدُوبَا
 فَوْقَ هَامِ الوَرَى خَفَّتَ الخُطُوبَا
 وَتُدَانِي عِنْدَ المَسَاءِ الغُرُوبَا
 فَكْرَهْتَ المَقَامَ فِيهَا غَرِيبَا
 مُدْغِدَا المَرءِ فِي المَلَّاحِمِ ذِيبَا
 مَعَ طُغَاةٍ يَأْبُونُ إِلاَّ الحُرُوبَا

حَبِّدَا الطِّفْلُ يَوْمَ يَغْدُو طُوبَا
 حَبِّدَا الطِّفْلُ يَوْمَ يُضْحِي فِتْيَا
 حَبِّدَا الطِّفْلُ وَهُوَ كَهَلِ رَصِينِ
 حَبِّدَا الطِّفْلُ وَهُوَ شَيْخٌ وَقُورٌ
 إِلَيْهِ يَا بَلْبَلَ الرِّيَاضِ تَرْتَمُ
 وَلِكَ الصَّدْرُ حينَ تَصْدُحُ غَصْنُ
 وَتَفْكُهُ مَجِبٌ أُمَّ رَوْومُ
 وَارْشَفِ اللُّطْفَ مِنْ أَيْبِكَ زُلَالًا
 وَتَدَلَّلْ مَا شَتَّ فَالْقَلْبُ يُسِيبُ
 أَنْتَ أَنْسٌ لَوَالِدَيْكَ وَسَلْوَى
 خَفِيفُ الحَيَاةِ يَغْدُو رَبِيعًا
 مَلِكٌ أَنْتَ فِي السَّرِيرِ وَدِيعٌ
 فَإِذَا مَا سَكَتَ تَسْبِي نُهَانَا
 رُبَّ ثَعْرٍ رَصَعْتَهُ بَابِتْسَامِ
 رُبَّ دَمْعٍ نَثَرْتَهُ كَاللَّالِي
 وَمُنَاعَاتِكَ اللطِيفَةُ تَشْفِي
 أَنْتَ لَا تَدْرِي مَا الحَيَاةُ وَمَا آءُ
 كَمْ رَأَيْتَكَ فِي الجَمِيِّ تَتَغْنَى
 هَلْ تَرَأَتْ لِمَقْلَتِكَ الأَمَانِي
 أَمْ تَعَاهَيْتَ عَن صُرُوفِ اللِّبَانِي
 أَمْ رَأَيْتَ الخُطُوبَ وَهِيَ جِبَالُ
 أَمْ رَأَيْتَ الحَيَاةَ كَالشَّمْسِ تَبْدُو
 أَمْ عَرَفْتَ الدُّنْيَا بَدَارِ اعْتِرَابِ
 أَمْ رَأَيْتَ الدَّمَاءَ تَجْرِي بِجَارًا
 فَأَبَيْتَ الحَيَاةَ بَيْنَ الضُّوَارِي

وهو للحرب لا يزال رَكُوبًا
 لم زَ المرد قبلها قطُّ شيئا
 إن تحاميتَ في الحياة العُيوبًا
 إذا عاش في الأنام مَعيبًا
 في سباق العلى جَزوعاً هَيوبًا
 أبداً رَبَّهُ عليه غَضُوبًا
 يَتَقَى غَيْثُ الهنا عليك سَكُوبًا
 كلَّ امرءٍ يُلقى عليك الذُّنُوبًا
 آمِنَ التَّربُّبِ يَحْصُدُ التَّأديبًا
 وهو يُصلى طَيِّبِ الضُّلُوعِ اللَّهِيَا
 فهو في الأرض كوكبٌ لن يَغِيبا
 في فُؤادِ التَّاريخِ مَسْكاً وطِيبًا
 مُحْرَزاً في الوردِ المَقَامِ المَهِيَا
 مُدْ دَعَاهُ التَّنْدِي فَلَبَّى مُجِيبًا
 وَتَوَّ السَّعْدَ في يَدَيْكَ رَدِيبًا
 بِخُنُوءِ يُنْسِيكَ حَتَّى الحَلِيبَا
 وَاحِيٍ في قُطْرُوكِ العَزِيزِ حَسِيبَا
 وَانْشَرْنَ الأتَارَ فِيهِ طُيُوبَا
 فَسَى أَنْ تَكُونَ اسْمِي نَصِيبَا
 مِنْ مَلَدَاتِ ذِي الحَيَاةِ ضُروبَا
 عِنْدَ قَوْمِ يُؤَيِّهُونَ الأَدِيبَا

كلُّهم يدعي التمدنَ صرفاً
 أي حرب كهذه الحرب شوماً
 لا تخف أيها الصغيرُ الرزايا
 ما شقاء الحياة إلا من المرء
 كلُّ من يألف المخابث يُسمي
 والذي يُحدث المجازر يلقى
 ساءل الناسَ واعتزل كل شره
 واصنع الخيرَ ما حيتَ وجانب
 فالذي يزرع البلاء بقوم
 يحسبُ الناسُ أنه في نعم
 والذي يصرف الزمانَ شريفاً
 هو حيٌّ بالذكرِ والذكرُ يبقى
 ها أيوكَ المفضلُ مجيهاً جليلاً
 أنزلته القلوبُ فيها أميراً
 نقشته بفضله تحيَ رعداً
 وتمتع بعطف أمك وانعم
 أيها الطفلُ كُن فتى عبقرياً
 واملأَنَّ التاريخَ مجداً وغزواً
 مثلك التابغون في الأرض كانوا
 جثت بكراً لوالديك فذاقا
 وغداً تُصبحُ الأديبُ المرجى

اليوبيل الذهبي

الاب لويس شيخو اليسوعي

وانظر الى الذكر الذي احرزته
وجمعه وضبطه وشرحه
يوماً فيني كل ما حملته
من بعد ما جاهدت ما جاهدته
أبدًا بفضل طالما عمته
ما نثرت من اليراع وُصغته
ونشرت في الخافقين وُصغته
فتقرُّ مقلتها بما نظمته
وزها عجياها بما نعتته
لما تحلت بالذي رصغته
ملا البلاد هدى بما أودعته
سكرت به الأذان مذ أنطقته
حبرته فيه وما أبدعته
مما اكتشفت لهم وما استنبطته
آثارهم فاهنا بما استخراجته
عرش بجيش المكرمات خفرتة
ومشى وراءك فيأق دربته
وبدا لها الصعب الجحوح فرضته
فرضا عليك حسامة فشطرتة
منذ الفتوة معقلا عزرتة

كل اليراع وما كالت فقف به
ذكر يخلده الذي صنفته
أفا لمضيك في حياتك راحة
أوما لروحك من فراغ ساعة
حتى ترى ان البلاد مقررة
اي امرى في فطرننا لم يلتقط
لغة حملت لواءها منذ الصبا
ترنو اليك وانت تنظم عقدها
كم زاد رونقها بما نسفته
واكم علا بين اللغات مقامها
ما «المشرق» الوهاج الأكوكب
ما «المشرق» الصداح إلا بلبل
تصبو اليه نفوسنا كلفا بما
أنشأت للأعواب أنفس متحفه
لولاك ظلت تحت أطباق الثرى
لك في الصدور مهابة قامت على
فالتف تحت لوك أشرف موكب
وعزيمة ذاب الحديد ولم تذوب
أرهفتها في كل خطب معضل
إن الحمية في فوادك سيدت

وحميته من كل طارئة ولم
 خمسين عاماً قد طويت محلقاً
 وشعارك الحق المبين يصونه
 غضب نبت كل الصوامر دونه
 وشجذت بالحجج القواطع غريبة
 لا تُعبد السيف الذي ثم الظبي
 لو كان يلقي ذو النور جزاءه
 لأعيد للشرقي غابره عزه
 أو كان يُنصب في الحياة لمحسن
 نصبوا لك التمثال فوق منارة

تدعُ الفؤاد تدك ما حصته
 كالنسر تهزأ بالذي عاركته
 قلم على الحق المبين وقتته
 لم ينلم حدهاً مذ جردته
 فانسأ جيش البطل حين شجذته
 ورفعتنا فوق الرابي ورفعته
 وينال في دنياه ما قد نلته
 وأراك من آياته ما شنته
 أثر على ما شاد بما شدته
 شمساً من مجموع ما أنشأته

تحية « غورو » القائد الكبير

أيها القائد الكبير الخطير
 أقسم السيف أن يكون اميراً
 سر بجو العلي الى حيث تهوي
 ولك القلب أينما كنت برج
 كنت في الحرب آية الناس حتى
 فسحقت الجيوش تلو جيوش
 وحصون في رمس قامت جبالاً
 ما حمتها صحائف من حديد
 قلب غورو، والموت عذب لديه
 حمس الجند في المعارك حتى
 ما بناه الألمان في نصف قرن

أنت للسيف من صباك سمير
 إن نضاه على عداه الأمير
 فالمعالي تسير حيث تسير
 ولك الصدر منبر وسرير
 هابك القرن وهو ليث هصور
 وغدت تحتك الرواسي تور
 شاهقات تهابهن النُور
 بل حمتها من الجنود الصدور
 يوم يدعو الى الجهاد النفير
 بات كل الى المنون يطير
 زعزعت من أسه كف غورو

هيَ خَطَّتْ والنصر طوعٌ لما خَطَّتْ وربُّ النصر العزيزُ التقديرُ
مَنْ عليه عَوَّتَ في كلِّ خطبٍ مستحيداً به ونعمَ المجير
ايها البوش لا تنوحوا فهذي شيمةُ الدهر والحظوظُ تدور
قد سكرتم عجباً وتهتم دلالاً فانظروا اليومَ كيف كان المصيدُ
كنتم سادةً فصرتم عبيداً وعقابُ الشعبِ العتيِّ التيرُ
يومَ طارت يمينُ غورو ترنَّحتم سروراً وهل يليق السرور
كان ذا منكم غورراً وما يعلق الا بالأغبياء الغرور
انَّ يئاهُ ان تطير يبقَ فيه قلبُ ليثٍ على الليوث يُغير
أَوْ ما فيه همةٌ لا تسمى حربٍ فنَّ يفوز فيها الخبير
كانتِ الحربُ بالسلاحِ فأمت جثت غورو لبنان والأمنُ فيه
جثت لبنان والمجازرُ فيه ضائعٌ والبلاءُ طامٍ غزير
جثت لبنانَ والعيونُ دوامٍ زاحراتُ كأنهنَّ مجود
فتدارك حشاشةً في بنيه وفوادُ الفقير فيه كسيد
إنَّ جيراننا استطالوا علينا قبلَ أن يذلَّ البلاءُ الكبير
وربضنا حولَ العرينِ أسوداً فصرنا ولم يَعْنا الزئيرُ
كيف نُغضي على الهوانِ وفينا ووقفنا والقلبُ فينا يفودُ
نحنُ قومٌ الى الصِّيَغمِ نُغزي كلُّ حُرٍّ به العدى تستجير
نحنُ لولا حُبُّ السلامِ أطرنا لم يهلُّنا شرُّ العدى المُستجير
نحنُ لولا هيامنا بفرنسا مثلما كُنا للحروبِ نظير
إنَّ في صَدْرنا نفوساً كباراً لجهلنا وما علينا نكير
فأذخرنا لحادثاتِ الليالي كلُّ خطبٍ في مُقلتيها صغير
يا ابا الحزمِ عاجِ الداءِ فينا فابنُ لبنانَ في الوعى مشهور
فرقَ التُّركُ بينا من قُرونِ إنَّ داءَ الشقاقِ داءٌ مُبِيد
إنَّ عينَ السماءِ تراكِ يقظى فعدونا والليلُ فينا يَشور
وقلوبَ الأعوانِ حولك سورُ

من المهد الى اللحد

على صفحاتِ العمرِ خَطَّتْ يدُ الدهرِ
عَرَفَتْ بِهَا سِرَّ الحَيَاةِ وَكُنْهَهَا
فَمَا العَمْرُ إِلَّا مَرَحَلَاتٌ نَجْوَزُهَا
نَشِيدُ لَنَا الْأَحْلَامُ بُرْجَ سَعَادَةٍ
عِظَاتٍ لِذِي الذِّكْرِ تُسَطَّرُ بِالتَّبَرِّ
وَمَا تَحْتَوِي الدُّنْيَا مِنَ الحُلُومِ وَالْمَرِّ
عَلَى الشُّوْكِ أَحْيَانًا وَحِينًا عَلَى الزَّهْرِ
فَتَنَسَّفَهُ الْآيَامُ بِالثُّوبِ الحُمْرِ

(الطفل)

ومهد به نامَ الصَّغِيرِ مَقْمَطًا
يُرِيدُ حِرَاكًا وَالتَّيَاطُ يُصْذَهُ
تُتَرَجِّمُ عَنِ لَوَاعِيهِ عِبْرَاتُهُ
إِذَا هَزَّتْ صَوْتُ الطِّفْلِ مَهْجَةَ أُمِّهِ
تُنَاعِيهِ نَشْوَى مِنْ مَلَامِحِ وَجْهِهِ
وَتُنَشِّدُهُ شَعْرَ الهَوَى فَيُعِيدُهُ
بِرَأَاهُ يَفْدُو الشَّهْدُ أَشْهَى مِنْ الْكُرَى
تَرَاهُ بِرَأَةِ الغَرَامِ كَأَنَّهُ
وَطَوْرًا تَحَالُ الدَّهْرُ يَنْضُو حَسَامَةً
فَيُثَبُّ سَوْسُ الهَمِّ جِدْعَ فَوَادِهَا
أَلَا إِنَّ عَيْشَ الْأُمِّ مَرٌّ مَذَاقُهُ

(الصبي)

ويوم به طابت عن الناس مهجتي
خَرَجْتُ وَفِي صَدْرِي الهَمُّومُ كَأَنَّهَا
فَهَذَا اشْرَفَتْ عَيْنِي عَلَى زَهْرَةِ الرَّثْبِي
رَأَيْتُ جِيُوشَ البُشْرِ شَدَّتْ عَلَى الْأَسَى
هَذَاكَ نَهْرٌ تَحْتَهُ الرِّيحُ فَوْقَهُ

فَلَمْ أَرَ لِّلْسُلُومَى سَيِّلًا سِوَى القَمَرِ
رِوَاثِ وَمَنْ يَقِصِّي الرِّوَاثِي عَنِ صَدْرِي
وَقَدْ كَلَّمْتَهَا بِاللُّجَانِ يَدُ القَطْرِ
فَلَمْ تُبْقِ لِلْأَتْرَاحِ فِي الصَّدْرِ مِنْ إِثْرِ
زُرُودِ لُجَيْنٍ أَوْ سِلَاسِلَ مِنْ دَرِّ

لَهُ نَفْحَاتٌ أَيْنَ مِنْهَا الْعَطَرُ
 صَبِيٌّ ذَكَتْ فِي خَدِّهِ جُدُوهُ الْعَطَرُ
 فَلَاذَ بِهِ حِرَّانٌ مِنْ شِدَّةِ الْفَرِّ
 عَلَى بَيْتِ غُلٍّ حَوْلَ كُدْسٍ مِنَ الْبَرِّ
 وَأَتْلَفَ مَا فِيهِ مِنَ التَّمَلِّ وَالذُّخْرِ
 يُذِيقُ الْوَرَى كَأَسَا أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ
 بِأَعْجَزِ خَلْقٍ اللهُ شَبَّوْا عَلَى الْغَدْرِ

(الشاب)

تَجَلَّتْ بِهَا شَمْسُ الْحَقَائِقِ فِي فِكْرِي
 وَهَمَّتْهُمْ مِنْ دُونِهَا هِمَّةُ النَّسْرِ
 لِيَسْتَخْرِجُوا الدَّرَّ الشَّيْنِ مِنَ الْقَعْرِ
 لَهُمْ عَزَمَاتٌ لَا تَكِلُ عَنْ الصَّخْرِ
 يُجَاهِدُونَ عَنْهَا بِالْمُتَّقَةِ السُّمْرِ
 وَصَانَهُمْ مِنْ عَصَبَةِ الْحَتْلِ وَالْمَكْرِ
 تُرَدِّدَهَا فِي غَايِبِهَا أَسْدُ الْخَدْرِ
 بِبَأْسٍ عَلَى حَدِّ الظُّبَى أَبَدًا يَجْرِي

(الكهل)

لِيَجْتَنُونَ زَهْرَ الرَّشْدِ مِنْ قَنْنِ الْخَبْرِ
 بِصَيْرٍ بِأَخْلَاقِ الْوَرَى سَايِرُ الدَّهْرِ
 وَلَيْسُوا أَوْانَ اللَّهْرِ كَالْخُودِ فِي الْخَدْرِ
 فَمَا هُمْ بِأَطْوَادٍ وَلَا شَارِبِي خَمْرِ
 بِأَدَابِهِ الْحَسَنِ وَأَخْلَاقِهِ الْفَرِّ
 وَيَجْعَلُهُمْ مِنْ مَعَشَرِ السُّوءِ فِي حِجْرِ
 تَوَدِّي بِهِمْ يَوْمًا إِلَى هُوَّةِ الْوَزْرِ
 يُثَبِّتُ فِي الْأَذْهَانِ جُرْثُومَةَ الشَّرِّ

عَلَى ضَفْتَيْهِ الدَّوْحُ مَدٌّ ظِلَالَةٌ
 إِذَا بَفْرَاشٍ مَرَّ يَعْدُو وَرَاءَهُ
 فَلَمْ يَرَ غَيْرَ الدَّوْحِ مِنْ مَلْجَأٍ لَهُ
 وَقَدْ وَقَعَتْ عَيْنُ الْفَتَى بَعْدَ سَاعَةٍ
 فِدَمْرُهُ ظُلْمًا وَشَتَّتْ شَمْلَةً
 قَفَلْتُ بِنَفْسِي هَذِهِ صُورَةَ الَّذِي
 مَتَى أَلِفَ الْأَحْدَاثُ أَنْ يُتَزَلَّوْا الْأَذَى

نَظَرْتُ إِلَى أَهْلِ الشَّيْبَةِ نَظْرَةً
 لَهُمْ عَزَّةٌ قَعَسَاءُ تَأْتِي صَغَارَةً
 يَغْوِصُونَ فِي بَحْرِ الْمَفَاخِرِ جُهْدَهُمْ
 الْأَسْوَدُ أَبَاهُ الصَّيْمِ فِي سَاحَةِ الْوَعْيِ
 وَأَوْطَانَهُمْ لَا يُسْتَبَاحُ ذِمَارُهَا
 رَعَى اللهُ أَشْبَالَ الْعَرِينِ وَأُسْدَهُ
 وَحَيًّا مَعَاوِرَ الْحُرُوبِ تَحِيَّةً
 هُمْ عُدَّةُ الْأَوْطَانِ يَحْمُونَ عَزَّهَا

وَلَا نَالَتْ أُلْجَى الْكُهُولِ فَإِنَّهُمْ
 لَهُمْ هِمَّةُ الْقِتْيَانِ لَكِنْ قَلْبُهُمْ
 فَلَا تَسْتَفِزُّ الْمَطْرِبَاتُ قُلُوبَهُمْ
 فَهَمٌّ بَيْنَ حَادِي خَفَقَةٍ وَرِزَانَةٍ
 إِذَا رَزَقَ الْكُهْلُ الْبَنِينَ غَذَاهُمْ
 يُلْقِنُهُمْ فِي الْمَهْدِ حَبَّ بِلَادِهِمْ
 وَيَجْزُرُ عَنْ أَسْمَاعِهِمْ كُلَّ لَفْظَةٍ
 وَيَجْجِبُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ كُلَّ مَشْهَدٍ

إذا اوجَّعَ عَصَنٌ فِيهِمْ هَبٌ مُسْرِعاً
وإن بَدَرَتْ مِنْهُمُ بَوَادِرُ حَدَقَةٍ
فَلحظتُهُ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ عِنْدَهُمْ
وإن صَنَعُوا صُنْعاً جَمِيلاً جَزَاهُمْ
يُذِيرُ عَلَيْهِمْ مِنْ رَحِيقِ حَنَانِهِ
وَأَشْرَفُ مَا يَأْتِيهِ فِي جَنبِ خَيْرِهِمْ
فَيُنْفِقُ فِي هَذَا السَّبِيلِ نُضَارَهُ

(الشيخ)

وشَيْخٌ جَلِيلٌ كَلَّلَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ
إِذَا قَلَّتِ الْأَيَّامُ غَرْبَ مِضَانِهِ
وإن جَنَّ لَيْلُ الْمَشْكَلاتِ تَأَلَّقَتْ
فَلَا تُحْطِي الْمَرْمَى بِسَاهُ طُنُونِهِ
تَحْفُ بِه فِي كُلِّ نَادٍ مَهَابَةٍ
وَمَجْلِسُهُ مَشْرُورَةٌ فِي أَدِيمِهِ
لَهُ مَطْلَعٌ زَانَتُهُ هَالَةٌ حَكِيمَةٍ
أَلَا إِنَّ رَأْيَ الشَّيْخِ أَنْفَعُ لِلرُّوِي
فَكَمْ نَكْبَةٍ جَلَى الشَّيْخُ عُيُومَهَا
وَكَمْ غَمْرَةٍ خَاضُوا عَلَى إِثْرِ غَمْرَةٍ
لَقَدْ صَقَلَتْ كَفَّ التَّجَارِبِ ذَهَنَهُمْ
فَبَاتُوا عَلَى نُجْبٍ بِأَطْوَارِ دَهْرِهِمْ
إِذَا كَرَّ جَيْشُ الْعُسْرِ جَرَّدَ فِكْرَهُمْ
عَلَى أَنَّ عَمَرَ الشَّيْخِ مَرٌّ وَلَوْ غَدَا
تَرَاهُ أَوْانَ الْقَرِّ يَهْتَدُ رِعْدَةً
يَنْوَحُ عَلَى عَهْدِ السَّبِيَةِ نَادِباً
فَلَا غُرُوبَ إِنْ يَأْسَفُ عَلَى زَمَنِ الصَّبَا

كَتْكَلِيلُ عُنْصَنِ الرُّوضِ بِالنُّورِ وَالزُّهْرِ
فَأَرَاؤُهُ تُعْنِيكَ عَنْ طَلْعَةِ الزُّهْرِ
لَهُ حَكِيمَةٌ أَزْهَى مِنَ الشُّهْبِ الثُّرَى
وَيَقْرَأُ مَا فِي صَفْحَةِ الْغَيْبِ بِالْفِكْرِ
كَأَنَّهَا كَافَتْ الْأَبْطَالَ بِالْمَجْدِ وَالنَّصْرِ
عُقُودُ بُجَانٍ أَوْ سُذُورُ مَنْ التَّيْبِ
كَأَنَّهَا مِنْ حَوْلِهِ هَالَةٌ الْبَدْرِ
مِنَ الْعَضْرِ فِي كَفِّ الْفَتَى الْبَاسِلِ الْقَرِّ
وَلَوْلَاهُمْ ضَاقَتْ بِهَا حَيْلُ الْقَطْرِ
وَلَمْ يَحْفَلُوا يَوْمَآ بَعْدَ وَلَا جُزْرِ
وَبِالصَّقْلِ يَغْدُو الذَّهْنُ أَجْلَى مِنَ الْفَجْرِ
وَعِلْمُهُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّنْفَعِ وَالضَّرِّ
عَلَيْهِ مِنَ الْأَرَاءِ صَمَامَةٌ تَقْرِي
عَلَى عَرْشِ عَزَّةٍ فِي سَمَا النَّهْيِ وَالْأَمْرِ
وَإِنْ حَلَّ فَصْلُ الْقَيْظِ ذَابَ مِنَ الْحَرِّ
قَوَاهُ وَقَدْ خَانَتْهُ فِي مَغْرَبِ الْعَمْرِ
فَقَدَّ بَاتَ مِثْلَ الْقَوْسِ مُحْدُودِ بَالِ الظَّهْرِ

وأبصاره كَلَّتْ واستنانه هَوَتْ
 يرى حوله أن المنايا رواصله
 وفي يديها المنحآت تنحت قبرة
 فليس يغيب الموت عن عين فكره
 فتباً لدنيا يغمرُ الناسَ ههنا
 إذا شئتَ ان تحيا حليفَ سعادة
 غيرُ الوري من زان أيامِ عمره
 وفي صدره همُّ احمرُّ من الجمر
 تُنشبُ في احشائه مخالبَ العدر
 وتحفرُه كفُّ الردى ايماءً حفر
 ولا تُصرفُ الانظارُ عن لُجَّةِ القبر
 ولذاتُها فيها عصيرٌ من الصّد
 فأكثرُ من الحُسنَى وأقلُّ على البرِّ
 بما يُسهجُ الأبوابَ في موقفِ الحشر



تحية كلية القديس يوسف

في يوبيلها الذهبي

في المشرقين نشرتِ نورَ هُذاكِ
 يا جنةَ العلياء هل من جنةِ
 روحتِ صدرَ الدين حتى شاقه
 من حولك الانهارُ يجري ماؤها
 ولقد زكتِ فيكِ القصونُ وصالحتِ
 والعلمُ لاحت في البلاد بدوره
 كم من فتى حاز العلى من بعد ما
 كم من فتى نظم الخلى في نحوه
 كم من فتى قد صار سيّد قومه
 يُثني عليكِ وقلبه بكِ هائمٌ
 لكِ مهجةُ الأمّ الروومِ وطالما
 إن يُكبرِ الناسُ الوفاءَ فانهم
 والغربُ عباقُ بطيبِ شذاكِ
 تُهدي الى العلياء مثلَ جَنّاكِ
 ما تحملُ السّماتُ من ريباكِ
 مُتدافعَ الأمواجِ فوق تراكِ
 قَمَمَ الجبالِ وهامةَ الأفلاكِ
 مُذ فاض في جوّ البلاد سنّاكِ
 أرواهُ من لبنِ العلى ثدياكِ
 لمّا ملأتِ من الجواهرِ فاكِ
 وفوآدهُ يهفرُ الى مرّاكِ
 ولسانهُ لهجٌ بئشرِ حلاكِ
 أنسى حنانَ الأمّهاتِ هواكِ
 قد قدسوا عند البلاءِ وفاكِ

وبذلت في مَدَد الضعيف قُوراك
 مما يُخَلد في الورى ذِكراك
 شهدوا بما جادت به كَفَّاك
 فعدا إمامهم بفضل غذاك
 بعد اقتباس العلم في معنك
 حتى ارتوى من غاديات سماك
 لما تكحل طرفه بهُداك
 حتى طعنت فؤاده بقنناك
 وهاجة تهدي الى مينناك
 سكرت بسلسل مائها أبنناك
 وتقوده للسفخرات يدناك
 ووقت من الزلل الذمير حطناك
 وفعلت ما يرضى به مولاك
 يطاء العروة كما وطنت عداك
 قد سار للهيجاه تحت لواقك
 تحميه من عُصب الفساد طباك
 إلا اهتدى في شرقنا بضياك
 جيش المعاطب نختمي بحماك
 يوماً علينا في الوغي اعدناك
 وجنودها لم تحش غير دواك
 أعيالك داء عاجته نُهناك
 والعاصفات تهب حول فنناك
 أفيستطيع المرجفون أذاك
 إن العلى منذ الصبا تهواك
 ألبابنا تخزي الذي عادناك

فلکم اَعْنَتِ على الزمان وصرفه
 أو يُنكر الشرقی ما أوليته
 أو یجحد الابناء فضلك والعدی
 کم من یتیم کان عیَل قومہ
 کم جاهل امسى منار بلادہ
 رشف المعارف وهو ریان الحشی
 کم تائه امسى على نهج الهدی
 کم من غوی ما مضى في غیہ
 للحکمة الثراء فيک مناوِر
 للعلم والآداب فيک مشارع
 سقیاً لمن ترعاه عینک في الدجی
 وممکت لاحظة السماء من الصبا
 فنهجت في دنياک اقوم منهج
 من یتبع الحق المین فانما
 یا غایة الآساد کم من جفله
 خاض المامع بین أطراف الظبی
 أمارة الابجار هل من مرکب
 فلا ننت مرفانا الأمين فان سطا
 ولأنت معقلنا الحرز اذا عدا
 طاردت أدواء النفوس فأدیرت
 یعیی الأساءة الداء إن یؤمن وما
 لم تحفلی بالنازلات صواعقاً
 قد کان قلبک في الثواب جندلاً
 یا نجمة زانت محاسنها العلی
 آتارک الحسنا قد رُقمت علی

لو لم يكن للماتين غشاوة
سيري على منحك تحرسك العلي
واطوي من الأعصار ماشاء الألى
ابداً تتوق الى لقاء عيوننا
وعلى رضاك دماؤنا موقوفة
نفديك بالأرواح غالية ولا
يوبئك الذهبي فاض شعاعه
تعمي العيون لأعظمو مسماك
فالرشد كل الرشد في منحك
يرعون بالتهجات عهد ولاك
وقلوبنا تحلو لها نجومك
والموت عذب في سبيل رضاك
تهوى سوى أن نستमित فداك
في كل قلب شاعر بنداك

تهنئة بوسام

صدرك الرحب والمناقب فيه
قد أرانا من البيان شعاعاً
وسقانا من نثره سلسيلاً
إن صدرًا رصعته بالمعالي
وفؤاداً ارويته في صباه
لحري بأن يكون مناراً
عرفتك البلاد من رُبْع قرن
مطرباً مستع العلي بقواف
حولك النش يشربون غيراً
حملوا راية الجهاد ونالوا
ان تكن واحداً فحولك جيش
لغة العرب قد حميت جماها
أينا كنت ينشق الناس عرفاً
زاهيات مثل النجوم المضية
ومن الفضل حلة سندسيه
ومن النظم خمره بابلية
لجدير بالشارة الذهبية
من زلال المعارف العصرية
وحيق بالتهنئات السنية
بليلاً في ربوعها الأدبية
غردت فوق غصنها الشعارية
من مجاري آدابك الكوثرية
قصب السبق في مجال الحمية
دربنة اقوالك الحكيمه
بيراع أمضى من الشرفية
من أزاهير أصغريك الذكيه

وإذا كانت النفوس سكارى
فالوسامُ الحطير يهتزُّ خفراً
فهبتاً لك الوسامُ وأولى
كلُّ من يزرعُ الجميل كبيراً
يا فرنسا وأنتِ في كلِّ عصرٍ
علمينا كيف الثبوغ يُجازى
بالتَّهاني تُهدى اليك نقيَّة
فوق صدر تزيُّنه الأريحيَّة
بالتَّهاني آتاركُ الوطنيه
يُحصدُ الشُّكرَ من قلوبٍ وفيه
آيةُ الله في سما العبقريه
فزاه في الأُمَّة العربيه

(١) العقد بين المهجتين

عقد الإلفانِ عقدَ الفرقدينِ
وحري بهما بُرجُ العلي
غادةٌ هيفاءٌ قد أبدعها
جمعتُ خلقاً وحلقاً سلباً
أشربتها أئمةً حبَّ العلي
حكمةً التقوى وهل من حكمةٍ
حكمةُ العلم الذي يرفعها
يا ابن بيتِ الفضل طِبْ نفساً بما
قد رشفتَ الجودَ من منبعه
وورثتَ الغزءَ عن خير أبٍ
ليس يُعلي المرءَ في الدنيا سوى
يومَ تمَّ العقدُ بين المهجتينِ
بعد أن حلَّاء سماء المقلتينِ
من براها آيةٌ للأدبين^(١)
وكالُ الصُّن جمعُ الحليتينِ
وأبوها قد سقاها الحكمتينِ
مثلاً تُسعدُها في العالمينِ
بين أربابِ الثهي في الخافقينِ
حزنته من شيمٍ لا من لُجينِ
والعلي استصفيتها من معدنينِ
وإيأه النفسِ عن مأسدتينِ
حسبٍ قد ناله بالأصغرينِ

(١) نظمتها بلسان صديقي لي مهتتاً فيها الشاب الاديب الشيخ ميشال الجميل احد تلامذتي القداما باقتراوه بالآسة المهذبة اعلي كريمة الحكيم النطاسي الدكتور امين الجميل

(٢) ادب النفس وادب الجسد او ادب الدين والدنيا

كلُّ مجدٍ لم يثم يوماً على
 كان لي والدك البرُّ أباً
 ولأنتَ اليومَ لي أوفى أخ
 فاحي يا «ميشال» في روض الهنا
 إننا لِنسانُ يُزهي بكما
 قد رأى في صدره زنبقتين
 إن تباهى أو تهادى طرباً
 فالعالي أَرخَتْها يدهُ
 أسـ فضلـ كان واهي الجانين
 كاد يُنسيني حسانَ الأبوين
 وكفانا أننا كالأخوين
 أبداً مع «أملي» كالزهرتين
 مثلما تُرهي السما بالنتين
 ورأى في نحره لولوتين
 بكما ما بين اهل المشرقين
 وحلاه صاغ من جوهرتين
 سنة ١٩٢٥

أقول النجم

في رثاء المرحوم المطران يوسف ابي نجم

أنجمَ الكمالِ وبدر السِّدادِ
 أفلتَ فغابت نُجومُ العُلى
 عهدناكَ أحنى الانام فواداً
 وأرتأهمُ للعيون الدوامي
 فلمْ بنتَ عنَّا فأدميت مناً
 رحلتَ ونحنُ أشدُّ افتقاراً
 فبتنا حيارى حِيالَ الرِّزايا
 ولو كنتَ تُفدى لكنتَ المُفدى
 تزلتَ ضربياً دجياً الحواشي
 بلى انت في كلِّ قلبٍ مُقيمٌ
 سيدُكركَ النَّاسُ ذِكراً يسودُ
 قليلٌ على القُطر بُسُّ الجِدادِ
 وغتَ فنامت أماني البلادِ
 وأرعاهمُ لذمام الوِّدادِ
 وأشعرهمُ بالخطوب السِّدادِ
 القلوبُ فرقَ لهنَّ الجِدادِ
 إليك فكيف نُطبقُ العِبادِ
 وبتنا كأننا نهمُّ بوادِ
 بألقي نهمُّ وألقي جوادِ
 ولو انصفوا انزلوك الفوادِ
 وحبكُ يبقى ليوم المعادِ
 كما ذكرُ يوسفَ في مصرَ سادِ

فيوسفُ صدَّ الجاعة حيناً
 لقد كان ذِكْرُكَ مِلَّ البلاد
 وقد كان فضلكَ صافي الزُّلال
 وقد كان رأيكَ في المشكلات
 فمُنذِغْتَ ذُبْنَ أَسَى والثبَاعِ
 وكيف تطبقِ العيونَ الكرى
 عزيزٌ علينا المُنْصَابُ بنجمِ
 عزيزٌ على الدين أن يُبتلى
 فيا دهرُ كُنْ آمناً فالذي
 فتكت به في الدجى غيلةٌ
 فكيف جرحت قلوب الورى
 أليس من الجوران تُجتنى
 فما كان أفجعَ خطباً أَرانا ان
 سمعنا له في البلاد دويّاً
 سمعنا له في قلوب الاعادي
 اذا الرُزّة أدمى قلوب العدى

.....

ألبنانُ سُحِّ الدُموعِ عِزاراً
 وأجرِ المناحات في كلِّ صوبِ
 ألبنانُ سُحِّ النَوَادِ على
 ألبنانِ حُطِّ المصابِ الجسيمِ
 بلِ أَحْفَرُهُ في الصِّدرِ واجعل له
 ألبنانِ وجداً على والدِ
 فَمَنْ للمشاكل إن اعضلت
 وَمَنْ للخطوب إذا استحكمت

وشاركِ نجومَ الدجى في الشهاد
 ولا تَحْلَمَنَّ ثيابَ السَّوادِ
 حكيم به قد بلغت المراد
 على القلبِ بالدَّمعِ لا بالمدادِ
 إيطار الأَسَى من نَجيعِ السَّوادِ
 فقدت به في البلايا العتادِ
 ومن يُصلح الدهر وقت الفسادِ
 ومن للقضاء إذا العدل بادِ

فيا لهفَ قلبي على راحلِ فُقدنا به السيف وقتِ الجِلالِ
 إذا الصبرَ عزَّ لمصرعه فسُوقُ الهنا أصبحت في كسادِ
 أهالِ الإله على رسمه عهاداً من العفو تلوَ عهادِ
 ويوآه في جنانِ العلي مقاماً علياً جزاءَ الجهادِ



نكبة القطرين

في رثاءِ المرحومِ المطرانِ يوسفِ دريانِ

هُصابٌ أسالِ سوادَ المُقلِّ وأدمى القلوبَ غداةَ نَزَلِ
 فما أبصرتَ مصرُ من مثلهِ وقد فُجعتَ في العُصورِ الأوَّلِ
 ألا ودِعي يا نفوسُ المنى فقد غار بعدَ الفقيدِ الأملِ
 هوى من ساهُ فكان دويُّ كما لو هوى في خضمِّ جبلِ
 لقد شكَّته الكنانةُ فذاً كما شكَّته جميعُ النحلِ
 فيا لهفَ نفسي على راحلِ بعيدِ المرادِ قصيرِ الأجلِ
 فقدناه بجراً، وفقدُ البحارِ عزيزٌ، ولم يبقَ إلاَّ الوشلِ
 لقد كان أصفى من الفجرِ ذهناً وقد ضربوا بذكاهُ المثلِ
 ولو لم يكن كوكباً نيراً لما ألبسَ الشرقَ أنهى النحلِ
 فكيف ثوى في ضريحِ صغيرِ وقد كان دونِ مداهُ زحلِ
 وكيف حوى الثُربُ صدرَ أرحمياً تضيقُ به شامخاتُ القلِّ
 لقد ألبُ الرُشدُ منذ الصبا وما عرفتَ قدماهُ الرُّلِّ
 وقد كان في عصره أوحداً فريدَ الخصالِ جليلِ العملِ
 إذا انتَ عاشرتهُ خلتهُ إخا اللبثِ حيناً وحيناً حملِ
 يُديرُ عليكَ الحديثَ سَلافاً ويُنسيكَ وقتَ الحديثِ العسلِ
 عزيزتهُ ما نبا غربها وهمتُهُ ما اعترأها مللِ

قضى العمرَ وهو جريءُ الجنانِ
 وقد كان حراً الضميرِ ايماً
 وقد كان في نفسه دولةً
 وقد كان في رأيه جحفاً
 وخيرُ الورى عالمٌ لا يُبارى
 فهل عرف الرمسُ أيَّ حكيمٍ
 وهل عرفت مصرٌ ما نابها
 يحقُّ لها ان تنوح عليه
 فمن للحصافة من بعده
 ومن للجلال ومن للمعالي
 سيرته لبناننا كلها
 أيوسف من ذا يُرينا الصواب
 أيوسف من ذا يُعيدُ الرجاء
 ومن ذا يسدُّ الفراغ الذي
 تركتَ ومن ذا يسدُّ الخلال
 فما شعرت نفسه بالوجلِ
 تزيه الفؤاد بدون دحلِ
 تدين له في النضال الدولِ
 يفل الجيوش بدون أسلِ
 وأجدرهم بالثنا من بذلِ
 طوى في ثراه واي بطلِ
 وهل شعرت بالمصاب الجللِ
 بدمع سخين يذيب المقلِ
 ومن ذا يعالج متاً العللِ
 ومن للبيان ومن للجدلِ
 أُصيب فضاقت عليه الخيلِ
 اذا ما تفتى وباه الخطلِ
 البنا ومن ذا يقينا الفشلِ
 تركتَ ومن ذا يسدُّ الخلالِ

أنت ملهوف

في رثاء المرحوم خليل باخوس صاحب جريدة الروضة

قضى حياةً بين الطروس خليلُ
 تسابقتا في الوجد حتى كلتُما
 سوادكما مذ ذاب فاض سوادهُ
 فأغناه عن لبس الحداد تلهفاً
 فليس ببدع أن يذوب كلاكما
 فعاه لي الناعي فأكبرت نعيه
 اذا أن صدري أنه إثر أنه
 فيا قلب دع طرفي عليه يسيلُ
 فأيكما في ذا السباق قتيل
 على جسدي حيث الهوم تجول
 على بدر فضل قد عراه أقول
 وقد حل في بطن الصريح خليل
 وقلت له ان المصاب ثقيل
 فإن انين المومنين يطول

يطيب لها بعد الفقيدي رحيل
 « مُصابي جليلاً فالعزاء جميل »
 وليس الى مرأى الحبيب سيليل
 وما هوَ إلا في القلوبِ تزيل
 وفي كل وجهٍ من نَوَاهِ ذُبُولِ
 وما كان عن نهجِ السِّدادِ يحول
 كأني به للمكْرُماتِ سليل
 فَأَتَارُهُ الحُسنى عليه دليل
 وكم من إمامٍ مع هواه ييسل
 بجدِّ يرَاعٍ ما اعتراه فُقول
 ورأيك في كلِّ الخطوبِ أصيل
 وانت علينا بالوداعِ بخيل
 وفي كلِّ صدرٍ من نواكٍ غليل
 كما يسقطُ المِغوارُ حينَ يحول
 وقلْبُهُمْ مِمَّا دهاك عليل
 وأعيْنُهُمْ شَكَرى عليك تسيل
 نظمتُ لآلي الدمعِ وهيَ سُيُولُ
 بكاءِ اليأ ما بكتُهُ ذُكُولُ
 وابتوا وكلُّ عن ابيةِ سَوُولُ
 وفي كلِّ قلبٍ لوعةٌ وعويل
 وليس لنا في الناسِ عنك بديل
 عليها وقتتِ العُمرَ وهو طویلُ
 ويُذوي حُبَّيْها الوسيمَ نُحُولُ
 تركتَ من الآتارِ وهو جليل
 وذكركَ حيِّ والزمانُ كفيلُ

كأني بروحي وهيَ في غمرةِ الأسي
 فقلت لها يا رُوْحُ صبراً فإن يكن
 فقلت وكيف الصبرُ والرُزءُ هائلُ
 تَوَى صاحبُ النفسِ الكبيرةِ في التَّرى
 مضى وله في كلِّ صدرٍ مناحةٌ
 عرفناه حرّاً الفكرِ في كلِّ موقفٍ
 واخلاقه كانت ارقً من الصِّبا
 اذا كان خُلُقُ المرءِ عُنوانَ فضله
 لقد كان مطواعاً لصوتِ ضميره
 فيا راحلاً عن موطنٍ قد حميته
 لقد خضتِ ميدانَ التِّضالِ مُجاهداً
 فكيف رحلتِ اليومَ يا صاحبَ الوفا
 خَفَّفتَ في الألبابِ أذعَ لوعةٍ
 سقطتَ بساحاتِ الجهادِ من العنا
 وفارقتَ لإخواناً عليك تلهَّفوا
 مشوا كلُّهم من حولِ نَعشِكَ حُشَمَاً
 فإن يرثِكَ الحُلَّانُ نثراً فإنني
 عليك بكتِ يومَ الرحيلِ عقيلةٌ
 وغادرتِ أيتاماً عليك تحسَّروا
 لقد هالهم ذلك المصابُ فاصحوا
 عزيزٌ علينا أن يُواروكَ في التَّرى
 عزيزٌ علينا نزي « الروضة » التي
 ينوحُ على غرَيْدها بلبيلُ العلى
 إذا ما طواك الرمسُ يثسركَ الذي
 وفضلك يبيتُ في القلوبِ مُخلِّداً

وحشة الداء

أَنشَبَ الداءَ مِخْلَبِيهِ بِقَلْبِي
 وَيَحَ طَرَفِي فَأَيَّ ذَنْبٍ جَنَاهُ
 نَاوَأْتَنِي الْأَيَّامُ حَتَّى دَهْتَنِي
 مَن مَجْرِي مِمن وَحْشَتِي وَمُعِيذِي
 فَكَأَنَّ النَّهَارَ لَيْلٌ بِهِمْ
 كُلُّ نَوْرٍ فِي مَقَلَّتِي ظِلَامٌ
 عَيْلَ صَبْرِي وَأَيُّ صَبْرٍ لُمَضْنِي
 فَاذَا الْجَوْهُ بِالْغَمِّ تَغَشَّى
 لَعِبَتْ بِي الْعُيُومُ حَتَّى كَأَنِّي
 وَكَأَنِّي بِقَلْبِي وَهِيَ حَيْرِي
 كَلَّمَا سَاوَرَ الْكُرَى مَجْرِيهَا
 كَمَ لِيَالٍ طَوِيئَتِهَا وَفَوَادِي
 أَرْقَبُ النَّجْمِ وَهُوَ مِثْلِي مَغَشَّى
 لَا أُنِيسُ بِهِ أَدَاوِي كُلوْمِي
 كُنْتُ فِي عُزْلَتِي كَأَنِّي بِسَجْنٍ
 مَا صَفَا لِي فِي عَلَّتِي قَطُّ عَيْشٍ
 كَيْفَ تَقْوَى عَلَى الْهَجُودِ عَيْوَنِي
 لَمْ يَزَعْ عَنِّي طَيْفُ الرَّدَى نَصَبَ عَيْنِي
 ضَرَبَ الدَّهْرَ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا
 حَالٌ بَعْدُ الدِّيَارِ دُونَ التَّلَاقِي
 تَابَعَ الْجَوْ غَيْثُهُ نَحْوَ شَهْرٍ
 وَذَعَرْنَا مِنَ الرَّعُودِ غَضَابًا

وَأَمْضُ الْأَدْوَاءَ دَاءَ الْفَوَادِ
 فَيُقَاسِي الشُّهَادَ تَلَوَّ الشُّهَادِ
 بِمُخْطُوبٍ تَفْتُ قَلْبَ الْجَمَادِ
 مِمن مَقَامٍ بِهِ أَضَعْتُ رِشَادِي
 أَوْ كَأَنِّي فِي ظِلْمَةِ الْأَحَادِ
 كُلُّ أَنْسٍ عَلَيَّ صَعْبُ الْمَقَادِ
 زَادَهُ الْهَمُّ وَهُوَ اخْبَثُ زَادِ
 صَحْتُ يَا جَوْ لَا تَعْتَبْ فَوَادِي
 كُرَّةٌ فِي يَدِ الدَّوَاهِي الشَّدَادِ
 فِي لُجَاجِ الدُّجَى الشَّدِيدِ السَّوَادِ
 شَرَّدَتْهُ بِلَالُ الشُّهَادِ
 فَوْقَ جَمْرِ الْغَضَا وَشَوْكِ الْقِتَادِ
 بِغَمٍّ أَرَسَى مِنَ الْأَطْوَادِ
 لَا سَبِيلَ يُرْوِي فَوَادِي الصَّادِي
 أَوْ كَأَنِّي أَهْمٌ فِي كُلِّ وَادِ
 وَحَرَمْتُ الْجَفُونَ طَعْمَ الرِّثَادِ
 وَالْمَنَايَا تَطُوفُ حَوْلَ مَهَادِي
 كَفَرَاتِي لِلْحَافِظِينَ وَدَادِي
 مَدَّةً خَلَّتْهَا مِنَ الْآبَادِ
 وَأَطْرَادُ الْأَنْوَاءِ أَيْ أَطْرَادِ
 فَتَشَكَّتْ حَتَّى النُّفُوسُ الصَّوَادِي
 وَمَلَلْنَا الْمَقَامَ فِي كُلِّ نَادِ

يا رعى الله من رعى عهدَ حي
 قد أعانوا على الشفاء فوادي
 لو جفوني كما جناني سواهم
 إن بعدَ الاحباب افتحْ خطب
 فإذا ما نضرتُ بعد ذبولي
 وإذا ما حيثُ كانت حياتي
 كان لي في السقام أمهرَ آسء
 فجزاهُ الإلهُ خيرَ جزاء

وقفته بين عامين

بين عامٍ مضى وعامٍ جديدٍ
 يصرفُ الغرُّ عمره في الملاهي
 وأمرُ الأيام ما كان فيها
 خلَّ عنك الهوى وعش عيش حره
 أي ذكر يبقى إن عاش ميتاً
 إنما العاقلُ الذي يتباهى
 وبنو العزم فخرهم بجلاهم
 إصنع الخير ما استطعت فلا خيرَ بن
 كان قلبه كالخديد
 وتعلّف على أخي البؤس حتى
 يتأسى عن حظِّه المنكود
 كلُّ يومٍ يُقضَى بصنع جميلٍ
 فهو أبهى من عقد دُرّ نضيد
 والذي يزرعُ العوارفَ يجني
 في اوانِ الحصادِ خيرَ الحصيد
 تتوالى الأعوامُ والناسُ ضم
 عن خطوبِ دوئها كالرعود
 كلما أوعدَ الزمانُ بنيه
 بلمّاته ازدروا بالوعيد
 عبدوا المال وهو ربُّ كذوب
 يحملُ القلبَ كالشريدِ الطريد

اي نفع يُجديهم يومَ يغدو عابدُ المالِ بينَ اهلِ الوقود
يا عبيدَ الاهراءِ لا تتادوا في الهوى واتَّقوا تعديَّ الحدود
انَّ من يعصي من برآه يُقاسي ما يُقاسي الشريدُ بعد الشُرود
والذي يغطُّ الجميلَ كَنودٌ وأخسُ الأخلاقِ خُلُقُ الكنود
ايُّ خيرٍ ما استزلتُه البرايا من سماءِ الرحمنِ ربَّ الجود
اذا جادَ بالوجودِ علينا أيُّ برٍّ يفوقُ برَّ الوجود
هوذا العامُّ فاتحاً يسفرُ فضلـه فأملأوه من كلِّ مسعى حميد
هالةٌ ما رآه في كلِّ قطرٍ من زحامِ على التُّقودِ شديد
فقسى اللهُ أنْ يئنَّ علينا بسلامٍ بعد الحروبِ مديد
فقلوبُ الورى الى السِّلْمِ ظمأى وهي تصبو الى وئامِ اكيد
تلكَ آمألتنا عسى أنْ نزاها مُشمراتٍ في عامِنَا ذا الحديد

اصلاح الغلط

وجه	سطر	الخطأ	الصواب
٣	١٠	صنيعك	صنيعك
٤	٥	ما	مأ
٤٢	٣	وحوه	في وجوه
٤	١٩	محادرة	حذراً من
٦١	٢٥	مدر	قدر
٨٨	٢٥	والتابنين	والمبرزين
١٠٥	٣	التشوش اداراتا	التشوشُ الانتظامَ في اداراتا
١٢٥	٣	والاعجاب	والاعجاز
١٦٢	٨	يُرئنه	يُرئنه
١٦٧	٣	يتوفروا	تتوفروا
٢٢٩	١٢	تحسيه	تحسينه
٢٤٠	٥	يُنحن	يُنحن
٢٤٠	٩	بجدتهم	بجدتهم

فهرس الكتاب

وجه	وجه
الترتيب ١٢١	العصامي خير من العظامي ١
حسن الادارة وسداد التدبير ١٢٨	التسامح والمخالقة ٥
الثبات والإيمان ١٣٣	الأنفة والإياء ٨
الإقدام والإحجام ١٣٧	سرعة التصديق ١٥
الإحكام والإبداع ١٤٠	عبر الدهر ١٩
تصفح الاعمال والاقوال ١٤٩	تنازع البقاء ٢٢
الامانة ١٥٣	الهوى يعمي والغرض يُصم ٢٦
الاعتماد على النفس ١٦٣	الاحلام الذهبية ٢٨
المروءة ١٦٩	النخاسة العنينة ٣١
الوطن نعم ارضي ١٧٥	النخاسة السرية ٣٧
الغيرة الوطنية ١٨٠	منافع الروايات ومضارها ٤٩
الجرأة الادبية ١٨٢	اركان النجاح ٥٤
الانتقاد ١٨٧	الثقة بالنفس ٥٧
آداب الانتقاد ١٩٠	الثقة بالغير ٦٤
الوقت اثن من الذهب ١٩٤	الضبط والتدقيق ٧٤
العزم والحزم ٢٠٣	التنشيط وإثارة الهمم ٨٥
العفو والحلم ٢٠٦	التيقظ والتحفظ ٩٨
منافع الاتحاد ٢١٠	التروي والتأني ١٠٥
عرفان الجميل ٢١٤	الاعتدال ١١٠
الصحة ٢١٨	المنافسة ١١٧

وجه	وجه
مضار المسكرات ٢٩٢	المدرسة منبت الرجال المتظام ٢٢٠
باب الشعر ٢٩٤	المهنة ٢٢٤
الملاحة الجوية ٢٩٥	اقسام المهنة والحكمة في اختيارها ٢٢٧
وطي المفدى ٢٩٥	الزراعة حياة الامم ٢٣٠
اللغة العربية على منبر الخطابة ٢٩٧	شرف المحراث ٢٣٣
المزار الصداح ٢٩٨	الشفقة البشرية ٢٣٦
يوبيل الأب شيخو الذهبي ٣٠١	الاقتصاد ٢٤٤
تحية غورو ٣٠٢	الاسراف ٢٤٩
من المهد الى اللحد ٣٠٤	التقتير ٢٥٢
تحية كلية القديس يوسف ٣٠٧	المدنية المصرية ٢٥٥
تهنئة يوسام ٣٠٩	الانقياد الاعمى ٢٦٦
العقد بين المهجتين ٣١٠	المداهنة ٢٧٣
افول النجم ٣١١	التزلف الذمى ٢٧٥
نكبة القطرين ٣١٣	التهور والاستهتار ٢٧٧
أنة ملهوف ٣١٤	آفات المناصب ٢٨١
وحشة الداء ٣١٦	العجب بالنفس ٢٨٥
وقفه بين عامين ٣١٧	الاستنثار والعلو في حب النفس ٢٨٩

